ابراهيم عيسى

اذهب الى فرعون

اذهب إلى فرعون

إبراهيم عيسى

■ فهرس

الإهداء..

إلى يحيى إبراهيم عيسى

النفاق الابن الشرعي للفساد!

نقل المقريزي عن كعب الأحبار قوله للخليفة عمر بن الخطاب رضي الله عنه: "إن الله عندما خلق الدنيا جعل لكل شيء شيئًا، فقال الشقاء أنا لاحق بالبادية، وقالت الصحة وأنا معك.. وقالت الشجاعة أنا لاحقة بالشام، فقالت الفتنة وأنا معك.. وقال الخصب أنا لاحق بمصر، فقال الذل وأنا معك!!" والذل هنا إن صحت الرواية (وأغلب الظن أنها صحيحة) هو القهر والخضوع للآخرين.. مهما كان هؤلاء الآخرون محتلين من جلدة غريبة أو حكامًا من بني جلدتنا.. وجلدتنا طول الوقت تعلمت ثم استكانت للسع الكرباج ثم امتدت لعبادة صاحب الكرباج!!

بعضهم كان مصابًا بالحريق والبعض قارب على التفحم والسليم منهم كان في غيبوبة يشك الأطباء خروجه منها، ومع ذلك وقف الدكتور إسماعيل سلام وزير الصحة وقتها وسط هذه الكارثة المميتة وضحايا القطار بين الحرق والتفحم، بين السكتة القلبية والسكتة الدماغية، ولم يكن يشغل باله سوى مصافحة المرضى ويبلغهم بالحرف الواحد "تحيات السيد الرئيس والسيدة الفاضلة قرينته "وكان دكتور إسماعيل سلام كان يتوقع من المريض المحروق أو الميت إكلينيكيا أن

يهب ويجري من فوق السرير بمجرد سماع جملته السحرية وكأنها كافية كي يبرأ الأكمه وتحي الموتى"!!

لم يسأل الوزير نفسه ولم يسأله بطبيعة الحال غيره: وما دخل هذه الجملة التي أخذ يرددها كأنها نشيد وطني طوال تفقده الميمون للقتلى والمرضى وقد كان حريصًا على التحدث في التليفون عن رعاية ودعم السيد الرئيس والسيدة قرينته والمرء يسأله نفسه عن تماسك المسئول النفسي والعصبي في أزمة مثل هذه وتصميمه على إبداء آيات النفاق وسور الولاء وأحاديث الطاعة حتى وهو يقف على جثث المواطنين ضحايا السياسة، سياسته هو ومن يهوى!

صحيح إنه كلما نطق أي مسئول ووزير الآن فإنه يحرص سواء لتأمين نفسه وتحصين مكانته أو لدرء التهمة ودفع المسئولية على أن يذكر في جمل لحوحة ومقيتة قبل أي تصريح أو رأي أن ما يفعله هو إنما يقوم به طبقًا لتعليمات وبناء على توجيهات وتماشيًا مع سياسة واستجابة لإرشادات الرئيس، وبينما يبدو الأمر على أحد وجوهه ولاء من هذا المسئول أو ذاك للقيادة السياسية التي عينته وأبقته على مقعده وفي منصبه، فإنه يبدو من وجهة أخرى أن المسئول لا يملك

من أمره شيئًا وإنما هو عبد المأمور!! وربما يظهر من جهة ثالثة محاولة من المسئول لإسكات أي نقد له أو لما يقوله ولما يقوم به بدعوى أن نقده والاعتراض عليه إنما هو اعتراض على ذات القيادة العليا والتي لا تستوجب عندنا إلى الولاء والطاعة والولع بحكمتها وبصيرتها!!

والمدهش في هذا السياق أن كل ما تفعله الحكومة ووزراؤها (الذين يتنافسون في حب الرئيس والوطن كما يصر دكتور عاطف عبيد على التصريح منذ تمكينه من منصب رئيس الوزراء!) إنما هو كما يتلو المتحدث باسم المجلس دومًا طبقًا لتعليمات الرئيس ثم إذ بهذه السياسات تأخذ بالوطن إلى منحنى هبوط مروع فيتدخل الرئيس بقرارات أو تعديلات ما فإذا بنا نسمع نفس تصريحات أنه بناء وطبقًا لتعليمات وتوجيهات، فكيف يطالبنا هؤلاء أن نفهم أن الداء والدواء واحد المصدر وأن المالح والعذب واحد المنبع!!

عمومًا موقف دكتور سلام انتهى نهاية درامية تليق بالفيلم الذي نعيشه حيث أطيح به وحده فيما يشبه الإهانة السياسة وخصوصًا أن الجمود والتصلب السياسي الذي تشهده مصر

يجعل من تغيير وزير وحده وبمفـــرده وقبـــل أن يتجـــاوز العشرين عامًا في مقعده حدثًا غريبًا ومدهشًا في نفس الوقت وبات الكل يسأل عن سر الإطاحة بالرجل بينما أساسًـــا فـــي بلدنا العريقة لو تركت القلم لهوى نفسي لوضعت نقطة فوق حرف عين العريقة. نحن لا نعرف لماذا جاء الـــوزير كـــي نعرف لماذا رحل؟!

لكن مشهد دكتور سلام مع ضحايا حادث القطار وما قاله وكرره وأكده! يذكرني بالمحافظ الأسبق ماهر الجندي والذي كانت تلاحقه تهم الفساد كما تلاحق القطط فأرًا في مســـتودع ومع ذلك لم يمسسه إنس ولا جان إلا بعد خروجه من منصبه (مع مراعاة أن الرجل في الأصل كان مستشـــارًا!!) وكـــان السيد ماهر قد احترف وضع صور ولوحات هائلة الحجم في نواحي محافظته للسيد الرئيس بشكل فادح الكثـــرة واضـــح الدلالة كأنه يعلن منافسة الآخرين في حب قيادته السياسية ثم قرر لوحده وبفرده أن يصنع للـــرئيس تمثـــالاً فـــي ميـــدان بالمحافظة مزايدة في النفاق وتزلفًا مريعًا إنما كـــان يكشـــف عن محاولته المداراة عن فساده بمزيد من النفاق وبمزايـــدة على أقرانه وإمعانًا في الولاء والطاعة وانغماسًا في ملـــذات

البقاء على مقعده وفي منصبه، لقد بات الإغراق في النفاق وسيلة للتقرب وللتمدد في المنصب والبقاء في الموقع وليس غريبًا أن كل مسئول يبدو مولعًا ومدلهًا في محبة قيادته السياسة إنما يفعل ذلك مراضاة ونفاقًا وتزلفًا من ناحية ومداراة وحماية وتغطية لفساده، وليس عجيبًا أننا نرى اتهامات وشائعات بالرشوة والفساد لشخصيات بات كل همها ليلاً نهارًا الغناء بالتمجيد والتقديس والعبادة للسادة! فالنفاق في جوهر الأمر هو الابن الشرعي للفساد، صلة وثيقة وقربى لصيقة بين الفاسد والمنافق، فهو نفاق يحمي فسادًا وفساد يستثمر النفاق!

لكن هل معنى رحيل مسئول أو اثنين أن هذه الطريقة في البقاء على المقعد غير ناجعة وثبت فشلها؟ وإجابتي هي النفي.. لا، على سبيل القطع فتلك الطريقة التي نضع لها تعريفًا مختصرًا وهو: النفاق بكل قوة من أجل البقاء أكبر مدة، أفلحت وتفلح مع كثيرين شاخوا على مقاعدهم وربما بقوا عليها حتى ترث الفوضى الأرض ومن عليها، وهؤلاء كائنات تستحق أن نضعها في متحف النفاق للقرن العشرين مثلاً ومثالاً ومدرسة وجامعة في كل طرق المديح والتقديس

والتأليه للحاكم، إنهم رجال صدقوا ما عاهدوا الشيطان عليه فمنهم من يمرح في منصبه من مئات السنين تقريبًا ومنهم من قضى وطره ومنهم من ينتظر أكثر وينتصر على الزمن والشيخوخة وعلة الجسد أما من أطيح به فهذا يشبه تمامًا تخلص السفينة من حمولتها الزائدة أو مجرد قرابين لمعبد الخلود.

المشكلة الحقيقية أن مجتمعاتنا العربية تسمح لصور الحكام أن تملأ جدران الوطن ولتماثيل الأمراء والرؤساء أن تحتشد في الميادين والشوارع وهو ما يعبر عن شعوب تنافق حكامها إما ضعفًا ويأسًا وإما خوفًا وقهرًا وهو مناخ سائد وسيد في أوطاننا، وغيرها من الأوطان المكبوتة والمكتومة وقد سافر المرء وجاب دولاً ومجتمعات ولم أشهد في أي شارع ولا مدينة ولا ميدان في واشنطن أو برلين أو حتى جوهانسبرج أو غيرها تمثالاً أو حتى صورة لرئيس وكلمات تبايعه حتى الموت. ولا نفهم حتى موت من الضبط؟ حتى موت الحاكم.. أم حتى موت المحكوم!!

طبعًا الخلفاء يدخلون الجنة "حدف"!!

لا زلت أذكر المشهد كأنه جرى أمس، الرئيس السادات يجلس على منصة في لقاء فكري وسياسي، وأمامه في الصفوف الأولى عدد من الشخصيات السياسية من بينهم الشيخ عمر التلمساني مرشد "الإخوان المسلمون" وقتها، وقد فتح الرئيس السادات على الآخر كعادته فتكلم وتهجم على شخص عمر التلمساني فإذا بالرجل لا يخاف هيبة السلطان ولا إرهاب السلطة ولا نفاق الجالسين ولا تقديس الحاضرين للرئيس فقال زاعقًا: إني أشكو إلى الله، انتفض السادات وسرت فيه فزعة ورجفة لعلها من أفضل ما كان فيه فكأنها الخوف من الله حقًا، انكسرت حدة صوته وهو يوجه كلامه إلى عمر التلمساني مرة أخرى مستفهمًا كمن يريده أن يراجع نفسه ويتراجع عن كلمته: بتقول إيه يا شيخ عمر؟ فأجابه الرجل بكل بسالة: إنني أشكو إلى الله يا ريس. فرد السادات بلهجته العتب: كده يا عمر تشكو إلى الله، ثم والغريب أن السادات أخذ يطلب أو يرجو عمر التلمساني قائلاً: اسحب شكوتك إلى الله يا شيخ عمر!!

كان هذا في نفس الوقت الذي يقف فيه على منصة مجلس الشعب الشيخ الشعراوي (مع الاعتذار لمحبيه الكثر فحب

الحق أولى) وهو يقول عن السادات في وصلة مدح انجرفت حتى الخطيئة حين جلجل صوته قائلاً: والذي نفسي بيده لو كان لي من الأمر شيء لحملت الرجل الذي رفعنا تلك الرفعة وانتشلنا مما كنا فيه إلى قمة ألا يسأل عما يفعل، وهكذا وضع الشعراوي الرئيس في صف واحد مع النبي ﷺ كما الآية القرآنية لا يسأل عما يفعل وهم يسألون.. لكن في ذات القاعة نفسها وفي البرلمان نفسه كان هناك نائب آخر هو الشيخ عاشور الذي صاح بعدها بأيام بجرأة وجسارة: يسقط الرئيس أنور السادات.. وسقطت عضويته طبعًا بعد أن أكد النواب بتصفيق حاد أن أحدًا لا يمكن أن يسأل الرئيس عما يفعل!!..

والأمر هنا يذكرك بما جرى مع هارون الرشيد حين كان يسمع ابن السماك الواعظ المشهور الذي قال له "يا أمير المؤمنين.. اتق الله واحذره، لا شريك له، واعلم أنك واقف غدًا بين يدي الله ثم مصروف إلى إحدى منزلتين لا ثالث لهما، جنة ونار "فبكى الرشيد (أخيرًا لقينا حاكم عنده دم!) فأقبل الفضل بن الربيع – أحد بطانات الحاكم – وقال للواعظ معاتبًا "سبحان الله. هل يخالجك شك في أن أمير المؤمنين

مصروف إلى الجنة إن شاء الله، لقيامه بحق الله وعدله في عباده ".. اتفضل يا سيدي ها هم الذين نراهم كثير بيننا يصعدون بالحاكم إلى مصاف الآلهة التي تتلقى إلهامًا ولا تخطئ أبدًا ولا يسألها أحد عما تفعل، وقد امتلأ الوطن بفيضانات من النفاق تجرف الحق والعدل في وجهها وتزين الطغيان والديكتاتورية وتتملق أفعالاً ظالمة على أنها قمة العدل وتمتدح أفعالاً فاشلة على أنها قمة النجاح، وتركع إعجابًا بأقوال سقيمة على أنها الحكمة المنزلة والآيات المطهرة، وبات النفاق متاع الحياة الدنيا، هناك نفاق الاستقرار حيث ينافق البعض من أجل بقائهم على مكاتبهم وفي عزبهم ناهبين وجائرين ولأنهم يعرفون أن الولاء والطاعة (وكذلك النطاعة) هي التي أتت بهم، فهم أحرص الناس على النفاق المغالي فيه والممجوج حتى يحفظوا استقرار مقاعدهم، وهناك كذلك نفاق الاستمرار وأصحابه هم الذين لا يكفون عن طموح الترقي والتصعيد لا يرضون بالأبعديات التي بين أيديهم بل يطمعون فيما هو أكبر وأكثر، ومن هنا يمتد نفاقهم من تقديس وتأليه الحاكم إلى تقديس المقعد الجالس عليه والبدلة التي يرتديها وذريته وأهله

وحفدته وأخوته.. ثم هناك نفاق من نوع جديد طازج وهو نفاق اليأس.. حين يدرك البعض أنه لا أمل في حركة ولا بركة ولا تغيير ولا صعود ولا طموح وأنه لا طريق إلا النفاق فيمارسونه يأسًا ويحلقون بالركب لعلهم ينالون ما يرون أنهم أهل له من ثروة أو نفوذ أو إمارة أو سفارة، وهناك النفاق المتذاكي الذي يعتقد أصحابه أنه قليلاً من النفاق يصلح المعدة ويسمح لهم نفاقهم للسيد والسادة أن يقولوا بعدها كلمة طيبة كشجرة طيبة!! وهناك النفاق الجبان بلا هدف سوى التقليد والمشي وراء القطيع والخوف من عدم النفاق فتمتد يد تتلف حياتهم أو يتلصص عسس على قلوبهم وعقولهم، وهناك النفاق الماسوخي الذي يلجأ إليه مرضى احتقار الذات والتلذذ بالمذلة. هذا هو النفاق بكل أنواعه الذي يحتاج إلى العلماء والمثقفين لتعريته وفضحه فإذا بهم أول من يمارسونه وأكثر من يحترفونه، حين وقف الإمام أحمد بن حنبل مقيدًا ومكبلاً ومضروبًا بالسياط ومخنوقًا بدوائر الحديد أمام الخليفة المعتصم قال له: يا أمير المؤمنين اذكر وقوفك بين يدي الله كوقوفي بين يديك.. فسارع المحيطون بالخليفة من المثقفين والمفكرين والوزراء والركع السجود

يتنادون: يا أمير المؤمنين إنه ضال مضـــل كـــافر يـــرفض طاعتك وحكمتك ورؤيتك وخطابك.. فأمر الخليفة بأن يرموا ابن حنبل في السجن والجلد والتعذيب. وفي قلب الليل البهيم دخل على ابن حنبل زنزانته رفقة مـــن العلمـــاء ومفكـــري العصر يحاولون إقناع ابن حنبل بعـــدم معارضـــة الخليفـــة وإعلان طاعته واستشهد أحدهم وهو المـــروزي بقـــول الله تعالى: ﴿ **وَلاَ تَقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ** ﴾ ادعى بأن إصرار ابن حنبل على المعارضة يعني بقاءه في السجن مع الجلـــد والتعـــذيب والموت فكأنه قتل نفسه (شوف الضلالي؟) فرد عليـــه ابـــن حنبل: اخز يا رجل (يعني اختشي وخلي عنـــدك دم!.) ثـــم طلب منه أن ينظر خارج السجن ليرى ما حولـــه، فخـــرج المروزي فرأى المئات من الشباب يمسكون بأقلام ومحـــابر في أيديهم فسألهم: انتوا هنا بتعملوا إيـــه؟ فأجـــابوه: ننظـــر ما يقول أحمد بن حنبل فنكتبه.. فعاد فقال لابن حنبـــل: فيـــه جماعة قاعدين ماسكين أقلامًا وورقًا منتظـــرين أي حاجـــة تقولها فيكتبوها. فقال له ابن حنبل:... اقتل نفسي ولا أضـــل هؤلاء كلهم.!.

لنظل نبحث إذن عن مثل هذا المثقف.. وكذلك مثل هـذا الرجل الآخر الذي واجه معاوية في عز جبروتـه وملكوتـه حين وقف معاوية على منبر صلاة الجمعة قائلاً: أيها الناس إن المال مالنا والفيء فيئنا، من شئنا أعطينـاه ومـن شـئنا منعناه...؟ واستمر يقول خطابه التاريخي هذا فـي الجمعـة التالية ثم الثالثة فإذا برجل يقف في قلب الجامع قائلاً باسـم الأمة: كلا يا معاوية إن المال مالنا والفيء فيئنا، مـن حـال بيننا وبينه حاكمناه.. فنزل معاوية من منصة منبره وأمره أن يأتوه بالرجل.. فقال القوم كلهم هلك الرجل.. لكنهم فوجئـوا بمعاوية الطاغية التقي يقول لهم: إن هذا الرجل أحياني أحياه الله، فقد سمعت رسول الله ﷺ يقول "ستكون أئمة من بعـدي يقولون فلا يرد عليهم (لا يراجعهم أحد ولا يعارضهم أحـد) يتقاذفون في النار كما يتقاذف القردة" صـدق رسـول الله.. وأني تكلمت أول جمعة فلم يرد عليَّ أحد شـيئًا فخشـيت أن أكون منهم ثم تكلمت في الجمعة الثانية فلم يرد عليَّ أحد شيئًا فقلت في نفسي أنت من القوم، فتكلمت في الجمعة الثالثة فقام هذا الرجل فرد عليَّ فأحياني الله (رواه الطبراني).. وكل ما نرجوه إذن أن نحس على دمنا ونرد على حكامنا.. ثم لـنعلم

جميعًا أن الموت حق والبعث حق والجنة حق والنار حق... طيب مم نخاف ونرتجف، مم نفزع ونجزع.... إننا وإنك ميت وهم ميتون.. وسنكون جميعًا لحظتها عرايا، كبيرنا وصغيرنا، فعلى إيه النفاق يا نصابين.. يا جبناء، يا أولاد الهرمة...؟

طويل العمر!

لم يحدث على مدى العشرين عامًا الماضية أن مات وزير أثناء توليه الوزارة سوى الراحلان عبد الهادي راضي وزير الري ودكتور جلال أبو الدهب وزير التموين. لنكتشــف إذن أنه لا رئيس وزارة ولا وزير ولا مسئول ولا رئيس مجلس إدارة صحيفة حكومية أو رئيس تحرير جريدة قومية مــات أثناء توليه المنصب يكاد الأمر يكون بلا استثناءات، ما معنى ذلك؟ معناه الواضح المباشر أن السلطة تطيل العمــر وكــل الكلام الذي تسمعه من مسئولين عــن همــوم ومســئوليات المنصب كلام كله كذب أو مجرد هراء لا معنى له ولا طائل منه، فكل الترويج السخيف عن توترات ومتاعب ومسئوليات وهموم المنصب الحكومي والوزاري تهريج أشبه بالنصــب فالتواجد على الكرسي يسمح لهم بأطايب الحياة وملذات الدنيا وطول الصحة والعافية ونفوذ السلطة ومراتع العزبة وقصور الاستراحات ورمال الشواطئ والبلاجات الخاصة والفــاخرة والحماية والمناعة من المحاسبة والرقابة والعقوبة فضلاً عن أن البقاء الطويل الممتد الأبدي على كرسي المنصب أصاب الجميع بالبلادة من النقد تصاحبها أمراض جنــون العظمــة والتوهم بتلقي الوحي الإلهي فضلاً عن بطانــات المنــافقين

والأفاقين الذين يزينون لصاحب المنصب أفعاله ويحولون كلماته إلى آيات قرآنية وأنفاسه إلى قبس نوراني ووحي ينتهي بالرجل الجالس على عرش منصبه إلى الرضا عن الذات والولع بالنفس وتصديق نفاق من حوله، ومن ثم يطول عمر المنصب وصاحبه طويل العمر يطول عمره وينصره على مين يعاديه، هاي هيه!

لقد سمعت وزيرًا يتحدث في حوار تلفزيوني مع صحفي قائلاً في صيغة زهد تمثيلي "أنا قاعد النهاردة – يقصد على كرسي الوزارة – ومش قاعد بكرة" وقد ابتسمت وأنا أكلم نفسي: يا نهار أسود الراجل بقاله ٢٢ (اثنان وعشرون عامًا فقط لا غير) في منصبه وعامل علينا زاهد وكمان عايز يقعد لبكرة!! إن هذا الوزير وغيره يعبر عن النظرية التي أطلقت عليها نظرية (هات الدفتر)، وملخصها أن كل مسئول تتحدث عن سلبياته سارع وصرخ في سكرتيره هات الدفتر وقعد يقرأ لك عددًا من الأرقام: في عام ١٩٨٥ كان لدينا كوبري واحد والآن لدينا ٢٣٤٩٨ كوبري، كان لدينا عام ٨٢ مليون زعزوعة قصب الآن صار لدينا مليار زعزوعة! وهكذا تمتد نظرية هات الدفتر في كل عروق مسئولي البلد لدرجة

أن مسئولاً أخذ يتحدث معي بجدية وصرامة عن عدد مواسير المجاري التي زادت فقلت له يا سيدي الفاضل كلما سمعت الحكومة تردد هذا الكلام برطانته وعطانته أصبت بالإمساك حتى لا أشارك في إنجازاتكم، الغريب أن الحكومة بتحسب علينا البول بينما أي حكومة في الدنيا تضمن لشعبها حق التبول في أمان، فضلاً عن أن المجاري لا تحتاج عبقرية فذة ولا وزراء من المريخ من الأخذ في الاعتبار أن الذي صرف على المجاري هي المعونات الأجنبية والله أعلم كم منها ذهب لمجار أخرى!! ثم حكومة إيه دي اللي كل ما تكلمها تقولك مجاري وكبار، أين التصنيع والتصدير؟ والصناعات الثقيلة والخفيفة؟ أين التكنولوجيا والاختراعات العلمية؟ أين الأجهزة الطبية التي نصنعها وأين المعدات التي نصدرها؟ وأين الاكتفاء الذاتي من محاصيل الغذاء؟ أين القمح؟ وأين الطاقة الذرية والقنبلة النووية وأين الشباك ترموا نفسكم منه يا ضلالية؟

إن المسئولين المتخصصين في مغايرة الشعب ينسون إنهم يعيشون على قفا أجدادنا وكل مصادر الدخل القومي لا علاقة لحكومة بها ولم تفعل شيئًا إلا تبديدها بعون الله، خد عندك

ما هي مصادر دخل مصر من العملة الصعبة والثروة السهلة؟، أولاً قناة السويس والمعروف أنها محفورة منذ أيام الحاج الخديوي إسماعيل بدماء جدي وجدك! لا فضل لأي من وزرائنا الميمونين في حفرها والحمد لله!

نأتي إلى ثانيًا وهو البترول وكلنا نعرف أنه عبارة عن تراكم كائنات منذ مئات أو آلاف السنين وعمل من أعمال الطبيعة كما أن اكتشافه والتنقيب عنه من خلال شركات أجنبية وسلم أرضك تستلم بمشيئة الله دولاراتك ولا فضل لمسئول واحد في اكتشافه اللهم إلا التصوير يوم الافتتاح ببرنيطة بيضاء!

ننتقل إلى ثالثًا وهو السياحة التي تستند إلى آثار بناها السلف الفالح من الفراعنة والأقباط والسلف الصالح من العصور الإسلامية.. وعلى الصحراء التي يمثل فضل الحكومة فيها أنها تركتها صحراء!! وعلى النيل ونخص بالشكر أوغندا وبحيرة فيكتوريا والمطر الأفريقي العظيم، ثم نصل إلى رابعًا حيث أموال العاملين في الخارج والحقيقة أن دور الحكومة المصرية واضح تمامًا في هذا البند فقد نجحت في تطفيش المصريين وهجوا إلى الخارج ويرسلون

لنا الأموال بينما الحكومة تساعد وتمول رجال أعمال يهربون هذه الأموال إلى الخارج ثانية!!

من هنا لا أفهم السخف الذي يتردد كل فترة عن ضرورة تغيير وزاري، كأن القصة هي تغيير زيد وعبيد (هذا عبيد آخر غير دكتور عاطف عبيد!) التغيير هو تغيير أقوى أعمق وأشد، تغيير سياسة وتغيير منهج وتغيير انحيازات!

لا أفهم حالة الإحباط واليأس والكمد التي تصيب كثيرين انتظارًا لشيء ثقيل الظل يسمونه تغييرًا أو تعديلاً وزاريًا والحقيقة أنني أجد في انتظار هذا التغيير الذي يأتي دائمًا أقرب إلى التعديل أو ألصق بالتهريج وهذا درس قاس في وضوحه للذين يتمنون لشيء أن يتغير حتى على سبيل التمثيل وفش الغل وطق الحنك وتنفيس الغضب!! لكن الجمود والتصلب والفشل الذي نعيشه لا يمكن أن يتبدل هكذا أبدًا.. بعينكم يا كلاب؛ ابقوا قابلوني!! ليس مطلوبًا من أي حكومة في الدنيا أن تتغير وتتحول أو أن تموت وتغور لمجرد أن الشعب يريد ذلك؛ الحكومات تتغير حين يكون الشعب قادرًا على تغييرها وعلى قلب المائدة على دماغها

وعلى إجبارها على الرحيل وأخذ ذيلها في أسنانها وطريــق السلامة يا شربات وغني حاول تفتكرني يا سيادة الوزير!!

كما قلت قبلاً وأقول دومًا وأؤكد حين أكرر، الحكومــات تتغير عندما يكون البرلمان (أرجو ألا يكون هناك أي خطــأ مطبعي يجعل البرلمان برطمانًا)! يكون البرلمــان (ولــيس البرطمان!) قادرًا على سحب الثقة من حكومة أو من وزيــر ويهز الوزارة بطلبات سحب الثقة التــي تــدفعها للاســتقالة لو عندها دم (أو حتى لا تملك إلا الحمار من الــدم) تتغيــر الوزارات ويرحل الوزراء عندما يكون هناك رأي عام قوي يتم التعبير عنه فــي الصــحف والتليفزيــون والجامعــات والنقابات! لا أن تكون كل هذه الحاجات في بلد ما مثل أواني الزرع التي توضع في الشوارع التي يعبرها مسئول مهــم! مجرد ديكور سقيم وتمثيل رخيص لكومبارس فــي الحيــاة السياسية!

هكذا تتغير الحكومات عندما تكون هناك أحزاب وليست خرابات يديرها عجائز يعــانون مــن خــرف الشــيخوخة أو مرض يعانون من العته المنغولي!

هكذا تتغير الحكومات وكما هو واضح فنحن لا نملك واحدًا في المائة من هذا كله فلماذا نغضب أو نعتب أو نقرف عندما لا تتغير الوزارات عندنا.؟

الذي يريد التغيير يكافح من أجله ويسعى إليه وقد يموت لتحقيقه، شعب لم يبذل هو وسياسيوه وأحزابه ونقاباته وصحفه ومجلاته أي مجهود من أجل إحداث تغيير حقيقي (وربما جذري) وشعب لم يتعلم من إحباطاته أبدًا؛ ينتظر التغيير ليه!

كل مرة ينتظر التغيير ولا يأتي التغيير أو يأتي كنكتة بايخة وسخيفة؛ كل مرة يحدث ذلك والناس لا تتعلم ولا تفهم وتتحرك لتفعل شيئًا ومع ذلك يجلسون كالبلهاء في انتظار كلام عن تغيير قادم لا يأتي!

تتغير الحكومات ليس هبة ولا منحة للشعوب بل هو حق لها إذا كانت تريده وتستحقه فلتفعله فورًا أما الأحزاب والأشخاص والناس المحبطة فهؤلاء سذج ومغفلون والقانون لا يحمي المغفلين والحكومات لا تتغير بفضل شوية ناس نايمة فاضية كسولة مستسلمة ناعسة تعسة كل ما يملكونه

هو دموع الحسرة والإحباط مثل الأرامل في محكمة الأحوال الشخصية!

وكأنما أنتَ النبي محمد ﷺ وكأنما أنصارك الأنصارُ

أكاد أرى البعض يصرخ ويسأل الله عز وجل ولماذا نحن وحدنا يا الله دونا عن بقية الأمم والشعوب الذين لا نرى حكامًا يتغيرون ووزراء يسقطون وحكومات تتبدل وسلطة يتداولها الجميع وانتخابات حرة بلا تزوير ورؤساء بغير استفتاءات مزيفة بل عبر انتخابات حرة (مش كده وكده) بين مرشحين؟

لماذا نحن يا رب وحدنا دون العالم كله الذين نعيش تحت حكم حكومات أبدية وعروش خالدة وحكام لا يتركون مقاعدهم ولو انطبقت السماء على الأرض، يرثون أمتنا ويورثونها لأبنائهم من بعدهم؟ لماذا نحن (ونحن تشمل العرب والمسلمين والأقباط..) نعيش في استبداد بلا نهاية وطغيان بلا توقف وحياة بلا ديمقراطية ويتحكم فينا شرار الناس وبطانة الحكام ورعاع الساسة وفسدة المسئولين.

وأكاد أقول للداعي: أنزل يدك ولا تتعبها فلن يستجيب الله لك مهما دعيت، فالحرية والديمقراطية ليست صلاة استسقاء ولا مطرًا يهبط بالدعاء على أرض جفت، الحرية يكافح من أجلها الشعب، والحرية تبذل الشعوب دمها فداء لها، وهي لا تأتي بالدعاء مهما كان حارًا ومهما بللته الدموع!

لقد استفتى الخليفة الأموي يزيد بن عبد الملك فقهاءه (الضلالية) هل يحاسب الله الخلفاء يوم القيامة على أفعالهم؟ فأفتى له أربعون فقيهًا بأنه لا حساب على الخلفاء يوم القيامة.. مشكلة الأمة في الحقيقة كما أنها في الخليفة الذي سأل، ففي الفقهاء الذين أجابوا، وقد صار الخلفاء ملكًا أو رئيسًا وصار الفقهاء نوابًا أو سياسيين ووزراء أو رؤساء تحرير!!

نحن في حاجة إلى رئيس ديمقراطي عظيم مثل الخليفة الصديق أبو بكر عندما تولى خلافته خطب قائلاً: لقد وليت عليكم ولست بخيركم.. أيها الناس أطيعوني وأعينوني ما أطعت الله فيكم، وإن خالفته فلا طاعة لي عليكم.. ومثل الخليفة العظيم عمر بن الخطاب حين يقول عند توليه الخلافة: فإن زغت فقوموني.. فيرد أعرابي قائلاً: والله نقومك بحد سيفونا، فلا يشكو عمر بل يشكر.. نحن في حاجة إلى مثل هؤلاء، الخليفة والحاكم الذي يخاف الله ولا يعتقد أنه ظل الله على الأرض وإلى المواطن الذي خرج ليقول لعمر (وعمر بعظمة مكانته وجلال قدره!) نقومك بحد سيوفنا.. أو بحد برلماننا أو بحد محكمتنا أو بحد صحافتنا أو بحد

أحزابنا، ولا نعتبرك الزعيم الملهم والقائد الإلهي الذي لا يأتيك الباطل (يا بطل..) من بين يديك ولا من خلفك.. فهل نحن كافحنا من أجل أن يكون حاكمنا مقتديًا بعمر ويكون شعبنا مقتديًا بالرجل الذي صرخ فيه من غير ما يخاف من المباحث أو الرفد من الشغل: نقومك ولو بحد سيوفنا؟

لقد انتهيت من كتاب جديد رائع صدر مؤخرًا لكاتب لم أتشرف بمعرفته وهو نبيل هلال، الكتاب الصادر على نفقته (وهي بطولة مضاعفة) عنوانه: الاستبداد ودوره في انحطاط المسلمين، والكتاب كأنه إجابة عن سؤالي، يشرح الاستبداد السياسي بأنه هو الاستيلاء على السلطة والاستئثار بها ومنع تداولها سلميًا وإساءة استغلالها والتوصية بها لابن ولأخ أو من يختاره المستبد بنفسه.. والاستبداد هو مصادرة حق الأمة في أن تختار بنفسها من يحكمها وحرمانها من أن يتولى قيادتها أصلح أبنائها من الذي تجمع عليه إرادتها وفي ذلك مصادرة لحق كل مواطن، أي مواطن في أن يتولى قيادة الأمة إن أرادت ذلك وصلح هو.

وينكر المستبد حق الأمة في عزله أو مساءلته إذ يرى نفسه فوق النقد والمساءلة كما يصادر الحريات ويقمعها وينكر الرأي الآخر وينفرد برأيه ضاربًا عرض الحائط بضرورة الشورى والديمقراطية، وتتسم أعماله بالسفه المالي فلا يرى فرقًا بين ماله الخاص وبين أموال بيت مال المسلمين، فكلها أموال الله يستبيحها كيف يشاء ويعطي نفسه حق التصرف في أموال المسلمين دون مساءلة سواء أنفقها في سبيل الله أم أعطاها هبة لمادحيه من الشعراء أو اشترى بها المحظيات والغلمان.. ويضيف نبيل هلال في ناصية أخرى حزينة في الكتاب أن أحد العلماء الألمان قال إنه كان ينبغي لنا أن نضع لمعاوية بن أبي سفيان تمثالاً من ذهب في عواصمنا لأنه لو لم يحول سلطة الخلافة عما وضعها عليها الشرع وجرى عليه الراشدون لامتلك العرب بلادنا كلها وسيروها إسلامية عربية. ومن يوم حولها معاوية (وحسابه عند ربنا..) فقد انفرد في تاريخنا العربي بالسلطة الفرعون والسلطان والملك والخليفة واستأثروا بها من دون الأمة فانحرفوا واستبدوا وتسلطوا ونهبوا وأفسدوا وانفرد السلطان بالرأي، رأيه أو رأي فقهائه المأجورين أو رأي مجموعات

المصالح والمنتفعين من المستشارين من رجال المال والتجارة.

وعندما يرى المستبد خلو الساحة أمامه من المعارضين أو المنتقدين لسياسته يغلو في استبداده ويشطط في سلوكه وعندما تلوح أمامه مغانم السلطة والنفوذ تتحول شخصيته إلى النقيض فهو العابد الناسك قبل تولي السلطة ثم الفاجر الظالم بعد جلوسه على العرش، لقد كان عبد الملك بن مروان عابدًا زاهدًا ناسكًا في المدينة قبل الخلافة فلما جاء أمر الحاكم إليه كان المصحف في حجره فأطبقه وقال هذا آخر العهد بك.! لقد قفل المصحف ومن ساعتها لم يفتحه حاكم أو رئيس!!

ومشكلتنا على ساحتنا العربية من بطانة السوء وكلاب السلطة ووعاظ السلاطين ورؤساء تحرير الطغاة يفسرها كتاب نبيل هلال حين يذكر أن البعض يبرر للمستبد ما يفعله بأن له إنجازات فهو قد يبني الجسور والمصانع ويستصلح الأراضي ويفتح الأمصار ويبني المساجد ولكنه في النهاية في جوهر الأمر يسحق روح المواطن ويحول المجتمع إلى قطيع من البهائم يسوسها كيف يشاء والحق إن إنجازات

المستبد هي بعض ما كان يمكن تحقيقه لو كان زمام الأمر بيد غيره ممن يتولى الحكم بطريقة شرعية فالمستبد يحرص على أن تكون له بعض الإنجازات ويسخرها في التمكين لنفسه وترسيخ سلطته وجمع الجند والحراس حوله وشراء ذمم الأعوان والأنصار..

ولما كانت وسائل الإعلام من أمضى الأسلحة وأنجع الوسائل التي يستخدمها المستبد للتمكين لنظامه عن طريق بث الأضاليل وخداع الناس فقد أجزل المستبدون في كل زمان للشعراء والمداحين واحتكروا وسائل الإعلام المرئية والمسموعة التي تمجد القائد وتسلط الأضواء عليه بل تكاد ترفعه إلى مصاف الآلهة، فاسمع إلى القصيدة التي نظمها الشاعر ابن هانئ الأندلسي إلى الخليفة الفاطمي المعز لدين الله والتي يقول في أبيات منها:

ما شئتَ لا ما شاءت الأقدار فاحكم فأنت الواحدُ القهار
وكأنما أنتَ النبي محمد ﷺ وكأنما أنصارك الأنصار

بعد أن أنهيت قراءة كتاب الاستبداد للمؤلف نبيل هلال وتوقفت عند هذه القصيدة الأخيرة".. فاحكم فأنت الواحد القهار... وكأنما أنصارك الأنصار"، قعدت أسأل نفسي سمعتها فين اليومين دول يا واد يا إبراهيم، قريتها الأسبوع

اللي فـــات فـــي أي جورنـــال الأهـــرام وللأخبـــار اليـــوم والجمهورية.. فين يا إبراهيم؟

جيش محمد سوف يعود!

وقف عبد الله خلف تلك الصخرة يتقدم رفاقه، يرقب النار التي بدأت تلتمع من المشاعل المعلقة على الأسوار التي تحيط ببيوت هؤلاء اليهود، بدت مثل الحصن الهائل، لم يكن أحد يعرف منذ جاء هؤلاء إلى هذه الأرض ما الذي يجعلهم جميعًا سكنى مكان واحد بيوتًا متلاصقة كأنها تعتزل أهل المدينة أو كأنها تتحصن أو تتمنع أو تترفع أو تتحفز، شيدوا البيوت متراصة ومتلاصقة وممراتها ضيقة وأسوارها منيعة في علوها ورهبتها على نحو لم يكن أحد في المدينة يعرفه إلا الذين سافروا للشام أو أدركوا يومًا أرض العراق، كأن أهل المدينة صحوا في بكارة أحد الأيام لتفاجئهم تلك الأسوار العالية التي بناها اليهود حول بيوتهم، لفت ودارت وصعدت وهبطت واستقامت وانحنت حتى صارت قلعة وحصناً مما يتحدث عنه أهل المدينة المنورة الذين زاروا بلاد الروم أو الفرس، كان قلب عبد الله يرتج بالعزيمة رجًا كاد أن يسمعه حراس قلعة اليهود وسكان الحصن الرهيب وازدحمت ردهات عقله بتفاصيل الخطة التي وضعها أمام رفاقه الذين صحبوه حتى ذلك المكان، ترميه رياح الصحراء بعاصفة

الليل القادم، فطروا عند آذان المغرب بعدة حبات من التمر وجاءوا حيث العملية الكبرى..

التفت عبد الله إلى مسعود وأنيس والحارث وابن الأسود وقال لهم همسًا:

- سأذهب أنا وحدي.

تذمر الحارث وصرخ فيه إلى الحد الذي جعل مسعود يندفع ويكمم فمه هامسًا:

- هل جننت سيكشفنا صوتك.

رد الحارث بصوت بذل مجهودًا كي يظل خافتًا:

- الوقت ليل ولهب المشاعل يذوي مع الريح والحراس يقظى وعبد الله رجل واهن النظر لا يدرك وجوه الناس عن بعد الذراع فكيف يقوم بمهمة مثل تلك ينتظرها النبي بنفسه.

أجابه أنيس:

- لكن النبي جعله أمير المهمة.

حاول الحارث أن يخفف من حماس صوته:

- نعم هو القائد والأمير.. يأمرنا أن نفعل فنفعل لا أن يقوم هو بالأمر بنفسه.

ربت مسعود على كتف الحارث وهو يشير إلى عبــد الله الذي اندفع نحو الحصن قائلاً: لقد أنهــى عبــد الله الجــدل ولندعوا الله أن يوفقه.

وصل عبد الله سور الحصن حيث كانت البوابة مفتوحــة لدخول آخر رجال اليهود عائدين من عمل متأخر، رفع عبد الله طرف ثوبه إلى أسنانه وغطى به وجهه وقد أعطى ظهره للحراس الذين لمحوه فلاموه وقد ظنوا أنه يهودي فظ تــأخر عن بيته وبولته فزعقوا فيه:

- إيه يا أخينا ألن تدخل؟

عبد الله كان ينتظر هذه الجملة فاندفع يدخل من البوابــة إلى حيث أمر الله ورسوله.

وجد نفسه حيث أراد تمامًا، حــاول بنظــره الضــعيف أن يعثر على منزل رافع زعيم يهود خيبــر، وصــل إلــى مسمعه صخب بعيد أدرك أنه قادم مــن جلســة المباحثــات والسمر الذي يجمع اليهود في بيت زعيمهم، يكمن في قلــب الليل والريح والصمت ينتظر، بعد قليــل بــدأت الأصــوات تخفف والحركة تهمد والمشاعل تنطفئ؛ في خارج الحصــن كان مسعود والحارث ورفاق عبد الله قد نهش فيهم القلق ولم

يدرك أحد من الذي همس وهو يمسح عنه تراب الصحراء الراكب فوق الريح الليلي وقال لعل اليهود ألقوا القبض عليه وانكشف الأمر.. وتعثرت الأفكار بينهم من يرى أن القبض على عبد الله كان كفيلاً بضجة هائلة في المكان ثم أنه لن يدلهم علينا ثم لقد زار كثيرًا رافع وليس غريبًا عليه ولا على المكان وقطع مسعود المواجهة: هيا لصلاة العشاء.

وبينما كانوا يصلون على الرمل وفي جوف الليل وكنف الصحراء ودوي الريح كان عبد الله يقترب من بيت رافع وهو يستكشف الردهات والممرات بيديه وقد أحكم السيف في خصره ولما أحس أنه قد دنا من هدفه لم يستطع التأكد من الغرفة العالية التي ينام فيها رافع أين هي تحديدًا، من أي سلم، على اليمين أم اليسار، يقف وراءها حارس أم أنها خالية من الحرس، أنهض قامته وفرد طوله وفي ثقة بالغة نادى بصوت مسموع وعال: رافع.. أين أنت يا رجل؟

جاءه الصوت من الداخل واضحًا وساخطًا: أنا رافع هنا من ينادي في هذا الليل؟

خالت عليه الخدعة، نطقها عبد الله سريعة لاهثة وهو يندفع إلى باب الغرفة: ومن يتوكل على الله فهو حسبه

اقتحم الباب ليجد رافع ملتفًا بثياب وغطاء وقبـــل أن ينطـــق رافع في العتمة والظلمة بالسؤال البديهي: من أنت كان سيف عبد الله يضرب ناحيته بمجرد ما اكتشف اتجـــاه الصـــوت، هوى السيف على جسد الرجل الذي صرخ صـــراخًا عاليًـــا مليئًا بالعنف والغضب وكأن السيف لم يلمس جلده، سمع عبد الله صيحات تستيقظ من النوم علـــى الصـــراخ وهمهمـــات تستجيب فأسرع خارجًا من باب الغرفة وغاب خلفه ثـــواني ثم عاد إلى رافع ملهوفًا ولاهثًا قائلاً بصوت مختلف كأنه أحد أقاربه يغيثه: رافع لماذا تصرخ.. مـــاذا حـــدث؟ رد رافـــع إلحقني هناك شخص يحاول قتلي، اقترب وأمسك به عبد الله وتمكنت قبضته من كتفه ثم غرس سيفه تحت صرته وضغط بحد السيف في بطنه وحين خرج السيف مـــن ظهـــر رافـــع زعيم خيبر كان عبد الله يقترب من أذنه: هذا جزاء الحـــرب على رسول الله يا رافع! انطلـــق عبـــد الله خـــارج الغرفـــة في الوقت الذي اندلع فيه المكان ضجة وحركة ققز عبـــد الله من على درجات سلم أخطأت عيونه الأحجـــار والصـــخور فسقط وقد انكسرت ساقه كتم ألمه وتكسر عظامه وألقى بنفسه على البوابة يفتحها من الداخل ويفر من مطارديه، حين رأى

الحارث ومسعود وصحبة الرفاق عبد الله يندفع تجاه مخبئهم وخلفه تعود النار في المشاعل ويهتز الحصن بالصخب والغضب وترتفع الصيحات مع الصرخات: قتلوا رافع.. قتلوا زعيم خيبر، ساعتها لم يتبين الرفاق صوت الحارث وهو يهمس في ليل المدينة كأنه يعد العالم كله: خيبر خيبر يا يهود، جيش.

* *

عندما كان هذا الهتاف يخرج حارًا وصادقًا في مظاهرات طلاب الجماعات الإسلامية (خيبر خيبر يا يهود جيش محمد سوف يعود) كان فريق من اليساريين والليبراليين يستنكر الهتاف ويستنكفه، لقد كان ولا يزال رهان اليسار والقوميين العرب والليبراليين كذلك على إخراج الدين من معادلة الصراع العربي الإسرائيلي والأسانيد التي يعلنها هؤلاء على لسان مفكرينا الذين علمونا أسانيد وجيهة بل لعلها وجيهة للغاية، أساسها أننا أبدا لسنا عنصريين بحيث نكره اليهود لكونهم يهودًا فقد عاش اليهود بيننا سالمين مسالمين مواطنين لا رعايا، ولم نكن ضدهم ولم نعاديهم ولا يجب للمواطن الصالح أن يفصل بين الناس بالدين أو الجنس، نحن إذن ضد

أن يجرنا الصراع مع الصهيونية العنصرية إلى أن نتحول عنصريين مثلهم نضطهد اليهود بينما المطلوب والمفروض أن نحارب ونواجه الصهيونية (الغريب أن جناحًا من اليساريين تخلوا حتى عن مواجهة الصهيونية ومحاربة إسرائيل إلى الصلح معها أو التعايش مع وجودها).

وأحسب أن هذا الرأي القائم على إخراج الدين من المعادلة هو المسئول عن تهرؤ العامود الفقري للمواجهة القومية واليسارية لإسرائيل فالواضح أن الدين الإسلامي لم يكن سلاحًا عنصريًا طول مرحلة الصراع مع الصهيونية ويمكن أن يضيف المرء لهذا الرأي أدلة أخرى أهمها أن الجماعة الإسلامية الأهم وهي "الإخوان المسلمون" ورغم أن ذيوعها الأكبر توازي مع بوادر ثم نذر ثم وقائع المواجهة العربية الصهيونية فإن الخطاب الديني والسياسي للإخوان (وقد شاركوا في حرب ١٩٤٨) يخلو من أي نظرة عنصرية لليهود، ولم يمس أي فصيل إسلامي أي مؤسسة يهودية إرهابًا أو انتقامًا على مدى سنوات الوجود اليهودي البارز في القاهرة أو العواصم العربية، وهو ما يؤكد غياب الروح العنصرية تمامًا وكلية عن الظاهرة الإسلامية السياسية وقتها،

بل والحاصل أن الوطن العربي لم يكن من الأطراف التي انتقمت من أقلية داخلها ضحية دخولها في حرب مع طرف على نفس دين وعرق الأقلية، فالمؤكد أن الولايات المتحدة الأمريكية حاربت واضطهدت أقليتها ذات الأصل والجنس الياباني أثناء محاربة أمريكا لليابان في الحرب العالمية الثانية، وهو ما تكرر في بقاع وحروب كثيرة إلا في الوطن العربي، وهو ما يدل من اللحظة الأولى للصراع أن العرب لم يخوضوا حربًا عنصرية ودينية، لكن هذا لا يعني أبدًا أن التاريخ الوجداني للمسلمين والعرب لا يحتفظ بمشاعر غير طيبة أو فيها مسحة عدائية لليهود وأن التاريخ والتراث الشعبي لا ينفي ذلك بل المراجع والأمهات الإسلامية تحفل بغمز ولمز ضد مؤامرات متكاثرة منسوبة لليهود تربصًا وترصدًا وعداء للإسلام والدولة الإسلامية، لكن المؤكد هنا أن التاريخ الإنساني كله والمسيحي تحديدًا لا ينسى لليهود تورطهم في صلب المسيح عليه السلام طبقًا للاعتقاد المسيحي، ثم إن التاريخ الحديث يحفل بكراهية لا محدودة من قبل مسيحي أوروبا لليهود بل والظاهر الطاهر في هذا الموضوع برمته أن الناصر في هذا الموضوع برمته

أن الناصر صلاح الدين عامل اليهود، معاملة راقية خلال الحروب الصليبية كذلك كان طرد المسلمين من الأندلس بعد سقوطها هو نفس اللحظة التاريخية طردًا لليهود وانتقل المسلمون مع اليهود هروبًا في سفن واحدة إلى البر المغربي فرارًا من جيوش المسيحيين المنتصرة..

لكن هذا كله يعني عندي خطأ ولعله جريمة إخراج أو استبعاد الدين من أسباب وحسبة الصراع مع إسرائيل كأننا نخشى دخول الدين المعركة حتى لا نوصم بالأصولية رغم أن المعركة كلها تقف على أعمدة الدين الذي أرادها هكذا وأسنها كذلك هم اليهود مثلما يملكون تمامًا الأسلحة النووية والذرية ويهددون بها العرب ثم يرفضون ويحاربون من أجل ألا يمتلك العرب سلاحًا نوويًا، إنهم يحاربون باليهودية ثم يصرخون لو حاربتهم بالإسلام، والمؤسف أن بعضنا يصرخ معهم دون أن يدرك الفاصل الهائل بين الدين كسلاح احتلال وعنصرية عند اليهود والدين كسلاح مقاومة وعدل عند المسلمين، فالحقيقة أننا لا نحارب اليهود في إسرائيل أنهم يهود ولكن لأنهم محتلون، المشكلة إنهم محتلون لأنهم يهود! أليست إسرائيل مبنية ومؤسسة على أنها

أرض الميعاد لليهود وأن الله وعــدهم بفلســطين، أليســت إسرائيل مفتوحة حتى الآن بلدًا لأي يهودي في العالم، أليست إسرائيل دولة يهودية لليهود الذين يعتقدون ويؤمنــون أنهــم شعب الله المختار الذي فضله علــى العــالمين، إذن كيــف نتجاهل هذا كله وننسى أن أعداء الأمــة ومحتلــي الأرض يهود؟!

حسناً الإسلام يطلب من المسلم أن يحترم حريــة عقيــدة الآخرين واختيارهم الديني وهو أيضًا يجبر المسلم الحق على إعلان أن لكم دينكم ولي دين وأن نؤمن بعيســى وموســى ومحمد لا نفرق بين أحد من رسله.. كل تلك الحقائق نذكرها للإعادة والإفادة لكن عندما يأتي أصحاب دين اليهود ليقولوا لنا أن الأرض التي نحيا نحن عليها ونعيش نحن فوقهــا قــد وعدهم الله بها وأن أرض فلسطين والعرب هــي أرضــهم الموعودة وأن دينهم يقول لهم اطردوا الفلســطينيين منهــا.. اذبحوهم وأخرجوهم وشردوهم، ودينهم يقول لهم إن المسجد الذي نقدسه ونحج إليه وكان نبينا محمد ﷺ قد وقــف إمامًــا للأنبياء والرسل في ساحته وأوقف في سوره براقه المقدس، إنما هو معبدهم وحائطهم المقدس ونروح نحن جريًــا إلــى

الجحيم، ما المنتظر مني ساعتها أن أحضن أصحاب تلك العقيدة، أن أترك لهم أرضي وعرضي؛ يقولون ديننا يأمرنا باحتلالكم فنقول لهم نحن، لكن قرار ٢٤٢ لا يقول.؟ أم نقول لهم وديننا يأمرنا أن نموت من أجل كل شبر في تلك الأرض. الدين الإسلامي هنا لا يضطهد ولا يتعصب إنه يقاتل من أجل الحق ومن الطبيعي أن نسمع هنا البعض يقول ولكن الصراع لن ينتهي أبدًا على هذا النحو؟ والمفجع أن الذي يريد أن ينتهي الصراع يطلب منك التنازل عن عقيدتك ولا يطلب منه هو أن يتخلى عن عنصريته.

هي حرب لن تنتهي أبدًا.. ليكن فإذا كان ثمن نهايتها أن أتخلى عن الحق وألا يتخلى هو عن الباطل الذي يظنه حقًا، فليس هناك أي ضرورة لنهاية الحرب.. نحن هنا لا نتصارع على ملكية قطعة أرض بل نتصارع على الحق.. على أننا لن نقبل أبدًا بأنه شعب الله المختار، ما أريد أن أقوله إن إسرائيل إذا بقيت تحتل فلسطين فهي تحتل أيضًا إلى جانب أرضنا تحتل العقيدة وتنتصر على الحق الإسلامي.

الثابت لدى المسلمين أن سيدنا إبراهيم رأى في المنام أمرًا من الله سبحانه وتعالى أن يذبح ابنه إسماعيل وقد فدا الله إسماعيل بكبش عظيم ولكن اليهود في عقيدتهم يؤمنون أن إبراهيم رأى في المنام أمرًا بذبح ابنه إسحق وأن الله افتدى إسحق بالكبش العظيم. وهم ونحن أحرار نرى ونؤمن بما نشاء لكن عندما يحاربوننا لنوافقهم أن إسحق وليس إسماعيل هو المفتدى هل نسكت أو نقبل أو نغير من ديننا، الأمر نفسه في فلسطين يحتلون فلسطين ليقولوا لنا اعترفوا ولو بالصمت والسكوت أننا اليهود محتلو أرض فلسطين شعب الله المختار وافرض أن قرارات الأمم المتحدة تؤيدهم، هل توافق، هل تصالح ولو منحوك الذهب.. هل ترى هي أشياء كما قال لنا الشاعر الراحل أمل دنقل لا تشتري؟

المؤكد أن الدين هو الذي يجعل هناك سلاحًا خالدًا للنصر لقد مات العرب صمتًا تقريبًا حتى دخل شارون المسجد الأقصى.. ولقد أنقذ الدين فلسطين من الضياع في كامب ديفيد حين لم يقدر كائن من كان أن يفرط في القدس والأقصى، الحقيقة الكاملة الرائعة أن الرغبة في الشهادة والإيمان الراسخ الثابت لدى الفدائي العربي أن شهادته تعني

الجنة وأن شهداءنا في الجنة وقتلاهم في النار هو الشيء المذهل الذي جعل للفلسطيني قوة وللعربي سلاحًا ولإسرائيل الفزع والرهبة ونزعنا عنها أي أساطير للقوة فإذا كان متخيلاً أن قتل العربي يرعبه فها هو الإسرائيلي يعلم جهارًا نهارًا أن الفلسطيني ينتصر حين يموت وهو مهزوم حين يحيا. هل هناك غير الدين وقوة الإيمان أعطى للعرب والفلسطينيين قوة ونصرًا، فكيف يطلب مني اليساري الحكيم والليبرالي المتين أن أتخلى عن قوتي وذاتي وسلاحي وذخيرتي... وجنتي أيضًا؟!

هل هذا يعني أنني أطالب العرب بالحرب على اليهود لكونهم يهودًا ويصبح ذلك مبررًا دينيا لقتل اليهود في أي حدب وصوب؟.. الإجابة على ذلك أنني أدعو العرب والمسلمين إلى عدم إهمال دور العقيدة والدين ثم إن الدين الإسلامي ليس عنصريًا ولن يكون ولن يدع أحدًا يستخدمه للعنصرية أبدًا.

لكن هل حارب الإسلام اليهود لأنهم يهود؟ وهل لليهود الآن علاقة بيهود خيبر؟

* *

ما الذين نفهمه مما جرى في تلك الليلة الرمضـانية مـن السنة السادسة من الهجرة حيث اغتال عبد الله بـن عتيـك المواطن المسلم من أبناء قبيلة الخزرج زعيم خيبر أبو رافع سلام بن أبي الحقيق؟

نفهم أن النبي حين يحارب المشركين والكفار وهو يؤسس دولة الدين الجديد بين أهله وأول من توجـه لهـم بالـدعوة الإسلامية فإذا بطابور خامس من قبائل وجواسيس وأثريـاء اليهود يخوضون حرب التقويض للدولة الإسلامية الناشـئة.. الأمر لم يكن خطرًا على الإسلام بل على الدولة وكان نقضًا للحلف واتفاقيات المعاملة والمهادنة والمسالمة فالرسول بقـى سنوات بين اليهود في المدينة في أجواء من السـلام القـائم على العدل لكن اليهود خرقـوا الاتفاقيـة ومزقـوا أصـول المعايشة والمواطنة في المدينة ووصل الأمر إلى محاولة قتل النبي ﷺ والتحالف مع الكفار لضرب النبوة والدولة والدين!

لقد تحرك الأمر النبوي ضد اليهود ليس أبدًا لأنهم يهـود (فقد كانوا هم أنفسهم سنين وأيامًا في أرض النبي ودولته لم يمس أحدهم قرح ولا جرح من المسلمين) بل لأنهـم العـدو وحليف العدو ضد دولة النبي والإسلام، هنا الحـرب بكـل

فنونها ودروبها وضروبها ومنها اغتيال زعيم خيبـر الـذي تحالف بالمال والسلاح على قتل المسلمين ورعايـا الدولـة ومواطنيها وحين تذهب المجموعة الفدائية بقيادة عبد الله بن عتيك ليستأذنوا رسول الله في قتل رافع بن الحقيـق زعـيم خيبر فيأذن لهم النبي ﷺ، فهذا يعني تمامًا أن لو فرقة فدائيـة إسلامية ذهبت للنبي تستأذنه في اغتيال أرييل شـارون لأذن لها النبي ﷺ: اذهبوا فاقتلوا عدو الله وعدوكم!

وكمان عايزين يورثوها!!

لا يوجد أي باحـــث أو مراقـــب أو خبيـــر أو سياســـي في أوروبا أو أمريكا يقول أو يرى أو يتصور أن مصر دولة ديمقراطية أو أن فيها نظامًا أو حكومة ديمقراطيـــة، بـــل إن المنظمات الدولية تنتع كل سنة والثانية تقارير تفضح وتكشف عوار الديمقراطية في مصر وقد اختارت إحـــدى منظمـــات حقوق الإنسان النظام المصري واحد من أسوأ عشرة أنظمة تحارب حرية الصحافة والتعبير في العالم وذلك على مـــدى أعوام متتالية والأمثلة كالهم على القلب لا يوجد أكثر (وأدق منها)، بل حتى الصحافة الأمريكية التي يتمسح بها حكامنـــا العرب ويتلمسون طراطيف رجليها ورضاها تعـــاير مصـــر في الرايحة والجاية بطغيـــان نظامهـــا وتزويـــر انتخاباتهـــا وقوانين طوارئها ومحاكمها العسكرية وخنقها لحرية الإعلام والصحافة (سلم لي على عيد الإعلاميين) وقد وضعت مجلة نيوزويك الأمريكية منذ شهور مصر في المرتبـــة الســـابعة من الدول العربية المنفتحة نسبيًا، تخيلوا درجة سابعة، ورغم أن حضرات الحكام في مصر من الممكن جدًا أن يهجصـــوا ويقولوا إن هذه الاتهامات مؤامرة كبرى ضد مصر، فـــالرد الوحيد شبه البليغ عليهم هو والنبي تتلهوا وتتكتمـــوا، فلـــيس

هناك من يخدم مصالح الغرب وأمريكا تحديدًا أكثر من فعالكم ورجالكم، بل إن الحكومة الأمريكية راضية عن أدائكم أكثر من رضاها على جورج تينت، فلماذا يخترعون ضدكم تهمًا ويصنعون لكم مؤامرات وخصوصًا أن أمريكا في هذا التوقيت الغبي أغبى من ثور في حلبة يكفيه قطعة قماش حمراء كي ينطح!!

والحقيقة أن الواحد منا يندهش ويذبهل حين يرى حفاوة الإعلام الرسمي الميموني (نسبة إلى ميمون!!) بأي إشادة ولو عبيطة تأتي من الغرب وأمريكا على الأداء الاقتصادي للحكومة أو على درجة الأمان في البلد أو نجاح الأمن في قمع حركات الإرهاب الديني، تسمع الحكومة هذا الكلام فتمشي في أسواق الصحف ونشرات الأخبار كالهبلة التي تمسك الطبلة تغني وتزعق: شفتم إحنا حلوين إزاي ويا سلام على حكمي وحكمك وعد ومكتوب لي أحبك!! بينما تعطي لنا الأذن الطرشاء الصماء لو كان هناك نقد وهجوم وتفنيد للاستبداد السياسي في مصر والغياب الديمقراطي والنبوغ الديكتاتوري.

الخطر الحقيقي هنا أن غياب الديمقراطية في مصر يجعلها أكثر سهولة وأقل مناعة في مواجهة الأوامر والتعليمات الأمريكية والضغوط الإسرائيلية والمعايرات الدولية من ثم يتخذ الحكم في مصر مواقف تنازل له بتفادي الضغط أو تخفيف ثقل الحمل.

الكارثة هنا (رغم أن محدش عارف الخير فين!!) أن سيناريو الابتزاز الأمريكي للسلطة الفلسطينية بمطالبتها بالإصلاح السياسي (وقد طالب به شرفاء العرب وفلسطين قبل إسرائيل وأمريكا كما نطالب به الآن في مصر وغيرها ولا يهتم بنا وبما نطالبه أحد!) سوف يتكرر مع أول ناصية بعد الانتهاء من الإلهاء الفلسطيني، ومشكلة حكامنا العرب أن أحدًا في طفولتهم لم يحك لهم أبدًا حدوتة الثور الأبيض وأصحابه الثيران السوداء عندما تركوا صاحبهم الثور الأبيض يؤكل ولم يعرفوا إلا بعد الأوان أنهم أكلوا حين أكل الثور الأبيض، ورغم أن الواحد فينا يظن أن المسألة واضحة وضوح الشمس إلا إن منافقي حكام مصر المحروسة يعملون الآن بكل إفساد ممكن وبعزم ما فيهم من فساد على توريث مصر وتكرار التجربة السوداء في تحويل جمهوريات العرب

إلى ممالك وملكيات، وهم يخربون البلد فعلاً وسوف تتهد فوق دماغهم لأنهم فسدة جهلة فالأذكياء وحدهم حتى لو كانوا فاسدين هم من يعرفون أن الوقت إصلاح وديمقراطية قبل ما يجد النظام نفسه مدفوعًا بالعصا والخيزرانة من أعدائه وحلفائه لتنفيذ الإصلاحات السياسية، وقد يحدث هذا في أي وقت حتى ولو في ٤ فبراير مثلاً!!!

من الخوف إلى الكهف!

عندما اندلعت الفتنة الكبرى في الإسلام وسالت دماء الخليفة الراشد عثمان بن عفان – رضي الله عنه – على أرض بيته أدرك الجميع ساعتها أن باب الفتنة انفتح وأنهار الدم بدأت دفقها الهائل وأنه آن أوان اتخاذ المواقف الصعبة في اللحظات الحرجة ودفع الدم والعنق ثمنًا لقولة حق في موضع شبهة؛ فقرر كثير من المسلمين أن يبيعوا ضمائرهم لحساب مصالحهم وأكل عيشهم ورزق عيالهم ورغم علمهم البين أن علي بن أبي طالب الأتقى والأنقى والأحق إلا أنهم قرروا مناصرة ومعاضدة ومحالفة معاوية في حربه ضد علي، فمعاوية رجل الدنيا والملك (والمملكة) أما علي – رضي الله عنه – فهو الحاسم الحازم رافع راية التقوى في توقيت يبحث عن نعيم القوت وليس فضل التقوى؛ عن السرير ونعومة الحرير وليس عن شظف العيش وحصر الصلاة؛ من هنا كان بعض المسلمين يصلون وراء علي بن أبي طالب – رضي الله عنه – في المسجد ويذهبون للمطعم والمغنم في معسكر معاوية تحت شعار الصلاة وراء علي أتقى والطعام عند معاوية أشهى؛ ورغم الانتهازية المذهلة التي تنضح (وتنبح) من هذا الموقف إلا أنه عندي أفضل

من الذين رأوا الحق يصارع الباطل فتفرجوا وجروا واعتزلوا الفتنة وقد اعتزل رجال من أهل بدر (الذين شهدوا موقعة بدر الكبرى) فلزموا بيوتهم بعد قتل عثمان فلم يخرجوا إلا إلى قبورهم! ويبدو الأمر في نظري تهربًا أكثر من كونه ترفعًا؛ انسحابًا أكثر من كونه اعتزالاً؛ رغم أن البعض في لحظة احتدام الصراع (والصداع) بين الحق والباطل فإنه فورًا يحاول أن يلعب دور أهل الكهف ويقرر اعتزال الصراع والفرار من المعركة من الخوف إلى الكهف!

فهل كان أهل الكهف على حق؟

هذا السؤال يسكن في عقلي سنوات حيث يرى الواحد منا ما يراه فيشعر أن الحل في البحث عن جبل وكهف النوم في صحبة كلب أفضل من المناهدة والمناكدة التي نحياها؛ وأسأل نفسي هل لو كنت مكان أهل الكهف (وغرورنا في الحق وبالحق يسمح لنا بهذا الاعتقاد (هل كنا سنفعل ما فعلوا؛ في الحقيقة وكلما تنهدت فأعدت السؤال كانت الإجابة، لا، لم أكن لأفعل ما فعلوه فلا جبل ولا كهف ولا كلب ولا عزلة ولا اعتزال!

صحيح أن أهل الكهف مجموعة من الشباب (بعض التفسيرات تقول إنهم في سن الـ ١٧ سنة) كانوا يعيشون في مجتمع ظالم غاشم (تفسيرات تقول إنه كان عصرًا وثنيًا وتفسيرات أخرى ترى أن الأحداث في عصر ما بعد المسيح) كان مجتمعًا يسوده الفساد المالي والسياسي يرتع فيه الكبراء والأمراء والتجار ورجال المال ويصطلي فيه الغلابة والفقراء النار والعذاب، كان مجتمعًا غريبًا موحشًا في ظلمه وفساد كباره إذا سرق فيهم الكبير والأمير من قوت الناس ومال الشعب أقرضوه وتركوه؛ وإذا سرق الضعيف جرسوه وحاكموه وأقاموا عليه الحد وإذا نطق الحر يغضب وينقد ويعارض أغلقوا فمه وكمموا لسانه وسجنوه في منفى أو مشفى، كان مجتمعًا يملأه المداحون والمنافقون ووعاظ السلاطين الذين يسيرون بالدف والطبل وراء الحاكم يرددون اسمه وكلامه ويمجدون سلطانه ويهتفون بالروح بالدم نفديك يا حاكمنا وسلطاننا وأميرنا وسر حياتنا ومليكنا ومالكنا وإله حياتنا؛ وكان لهؤلاء العسس والكهان مكانة عالية ومقام رفيع في هذا المجتمع الذي تعود على الخنوع والخضوع والركوع وكان أهل الكهف شبابًا في مقتبل العمر فتيانًا مثل الورد

والفل يمتلئون حماسًا للحق وحبًا لله وللحرية والحقيقة التفتوا إلى بلدهم فرأوا الوضع منيلاً بنيلة والظلم سائدًا والفساد ماردًا والناس خاضعة والرجالات خانعة والحقيقة ضائعة والرذيلة شائعة والرشوة ذائعة فماذا يفعلون!

الآن نحن أمام الخيار التاريخي فماذا فعل أهل الكهف؟

فعلوا ما تقوله الآية الكريمة (١٠ من سورة الكهف اقرأها معي وتخيل أننا نسمعها بصوت الشيخ محمد رفعت) بسم الله الرحمن الرحيم: ﴿ **إِذْ أَوَى الْفِتْيَةُ إِلَى الْكَهْفِ فَقَالُوا رَبَّنَا آتِنَا مِن لَّدُنْكَ رَحْمَةً وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا** ﴾ صدق الله العظيم، والرواية هنا أن الملك أمهلهم قائلاً: إنكم شبان أغمار لا عقول لكم وأنا لا أعجل بكم فاذهبوا إلى منازلكم ودبروا رأيكم وارجعوا إلى أمري؛ تدارس الشبان تحذير الحاكم ولم يكن هناك بد من الذهاب إلى الكهف واللجوء إلى الجبل!

أهل الكهف قرروا الاعتزال وتركوا المجتمع على حاله وحياته ظلمه وظلامه وكفره وقرفه، صلوا وعبدوا وناموا.. وماتوا هكذا شاءت المشيئة! وفي تفسير الجامع لأحكام القرآن للقرطبي يقول هذه الآية صريحة في الفرار بالدين

وهجرة الأهل والبنين والأقارب والأصدقاء والأوطان والأموال خوف الفتنة وما يلقاه الإنسان من المحنة، فسكنى الجبال ودخول الغيران والعزلة عن الخلق والانفراد بالخالق وجواز الفرار من الظالم هي سُنة الأنبياء صلوات الله عليهم والأولياء، وقال العلماء الاعتزال عن الناس يكون مرة في الجبال والشعاب ومرة في السواحل والرباط ومرة في البيوت وقد جعلت طائفة من العلماء العزلة اعتزال الشر وأهله بقلبك وعملك إن كنت بين أظهرهم "وقد روي من روى عن النبي ﷺ (يأتي على الناس زمان لا يسلم لذي دين دينه إلا من فر بدينه من شاهق إلى شاهق ومن حجر إلى حجر).

ولكنني لا أجد في العزلة والاعتزال ومنهج أهل الكهف أمرًا دينيًا ولا واجبًا إسلاميًا ولن يكون! نعم لقد ذهب الفتية إلى الكهف لكن هروبًا ربما من وضع مؤقت وفرارًا من سجن أو إعدام نازل عليهم من حاكم ظالم وقد دعوا الله أن يجعل لهم مخرجًا أي أنهم كانوا يريدون المخرج للعودة والدعوة بل كان البلد كله قد عرف وأدرك هروبهم ولجوءهم لكهف بديل أن قصتهم باتت تتناقل جيلاً بعد جيل وسنوات

وراء أخرى في جو من الغموض والتساؤل والاندهاش، والمؤكد أن الله أرادهم مثلاً لحكمة يعلمها هو جل شأنه لكن ليس مثالاً يحتذي بالضرورة ويقتضي الاقتداء؛ وإن كان مثلاً فهو عن التمسك بالإيمان والحق والعدل، مثلاً في الصلابة ومقاومة التهديد وليس في الاعتزال وهجرة النزال!! عمومًا لقد نام أهل الكهف وماتوا مئات السنين حتى أحياهم الله وأعادهم وعادوا ونزلوا إلى بلدهم مرة أخرى فإذا بهم بلد مؤمن عادل وقد تغيرت الحال تمامًا، والسؤال: كيف تغير البلد إذن وأهم وأنقى وأعظم شبابها ينامون في كهف؟

إذا كان الشباب الأكثر إيمانًا بالحق وبالحرية في كهف معتزلين ومبتعدين ومختفين عن ساحة الوغى والمواجهة مع الكم والحكومة والأمراء والكبراء فمن إذن غير هذا المجتمع الفاسق الظالم حكامه وأمراؤه.. من الذي نقل الوطن من الظلمات إلى النور؟

هنا لا أملك إلا أن أنحاز لموقف الفتية الآخرين "أكيد فيه ساعتها فتية آخرون!" الذين فضلوا أن يظلوا في بلدهم يقاومون الفساد ويواجهون الظلم والتعسف ويرفضون الواقع ويعارضون النظام الفاشي والحاكم الطاغية ويغيرون المجتمع

بنضالهم وكفاحهم وحولوه من الظلم إلى العدل، من الظلام إلى النور، من الكفر إلى الإيمان.

لو كنت مكان أهل الكهف الأبرار الأتقياء لما صعدت إلى الكهف أبدًا بل ظللت واقفًا في مجتمعي أناضل وأكافح نحو الحق والحرية؛ عمومًا من الواضح أن موقف ومنهج أهل الكهف بالغ التقدير والاحترام بدليل أن الله يحبهم ويجعلهم مثلاً للتقوى والإيمان فضلاً عن آخرين يرون أن خطأ أهل الكهف ليس في أنهم صعدوا للكهف بل إنهم نزلوا منه.!

جهاد من منازلكم!

من يقوم بالعمليات الاستشهادية مضحيًا بنفسه في سبيل وطنه وأمته ودينه؟ من الذي يخرج بالملايين في مظاهرات تملأ العالم والوطن العربي؟ من الذي يجاهد بالإنترنت ويواجه العدوان الإعلامي التدميري الذي تقوده إسرائيل؟

الإجابة إنهم جيل الشباب العربي الذي تسلم من أجيال الحكام والمثقفين أمة مهزومة وأرضًا محتلة ومقدسات مغتصبة واستبدادًا سياسيًا وتخلفًا اقتصاديًا وجمودًا إعلاميًا، لكنه وحده جيل يملك الأمل والروح رغم كل ما فعلته به حكوماته، ووحده يجمع بين الهوية والعقيدة العربية والمسلمة وبين القدرة على فهم مقتضيات عصره وتكنولوجيا زمنه ولغة عالمه.

لقد شاهدت في ليلة قاهرية قبيل آذان الفجر بقليل شباب الجامعة الأمريكية يقودون عربات ضخمة مخصصة كشاحنات لنقل الأثاث وقد اصطحبوها عبر ميدان التحرير وشوارعه يرشدون حركتها وهم مرتدون الشال الفلسطيني ورافعين العلم الفلسطيني بملابس صيفية وبنطلونات قصيرة وقبعات شواطئ، وأمام مقر الجامعة تحول الليل كأنه نهار ظهيرة من الحركة والزحمة لمئات الشبان يحملون بأنفسهم

كراتين وأشولة وعلب الغذاء والأودية والكسوة للشعب الفلسطيني في تلك الشاحنات الضخمة التي صعدت إليها بعض الفتيات لوضع علم كبير لفلسطين عليها مرفرفًا، ولافتة من القماش تشير أن حمولة السيارات هذه مهداة من شباب الجامعة الأمريكية بالقاهرة وقد سافروا بأنفسهم معها إلى رفح، في الوقت نفسه ها هو شباب تجاوز عدده في بعض التقديرات الخمسمائة يذهبون إلى الحدود المصرية الفلسطينية للمشاركة في الانتفاضة وبعضهم استشهد بالفعل وآخرون مقبوض عليهم، وفي الأيام الماضية تلقيت على بريدي الإلكتروني دعوات للجهاد ضد مواقع الأعداء على الإنترنت، فقد قام شباب العرب بواحدة من أعظم حروب العرب انتصارًا في مواجهة أعداء الأمة، على ساحة الإنترنت دون حاجة لاجتماعات فاشلة من وزراء أعلام العرب ودون انتظار توجيهات من السادة والقادة، ووسط جهل مطبق بالتكنولوجيا والإنترنت من مسئولينا العرب الذين يتدارسون إقامة محطة تليفزيون فاشلة قطعًا لمواجهة دعاوى الصهاينة في الغرب وأمريكا، ينطلق شبابنا على ساحة شهودها

بالملايين في معركة مع خصومه وأعدائه في عقر دارهم وفي غرف نومهم.. واقرأ معي السطور التالية:

الهدف إسقاط الموقع العربي لصحيفة "يديعوت أحرنوت" يجب أن يكون الهجوم على الهدف بشكل مركز وسريع.. خطة الهجوم "أ" استخدام الأوامر المرجعية المربكة لخوادم الموقع المراد مهاجمته.. المكلفون بالمهمة ٥٠ مجاهدًا إلكترونيًا على الأقل.. بداية سيتسلل المجاهدون لساحة القتال، ثم سيبدأ كل منهم في أخذ وضع الاستعداد وفتح قواعد إطلاق الصواريخ الموجهة..

كانت تلك السطور كما يقول موقع "إسلام أون لاين" أحد مخططات الاختراق التي تضمنتها حملات شباب العرب لجعل الشبكة الإلكترونية ساحة جهاد مشتعلة ضد المواقع الإسرائيلية بهدف الإضرار بالاقتصاد الصهيوني الذي يستثمر أرباحه في القتل والتدمير؛ فقد قام بعض الطلاب في الجامعات الأردنية بشن حملة أطلقوا عليها "الضربة الواحدة"، أرسلوا خلالها رسائل بريد إلكتروني للشباب العربي والمسلم في جميع أنحاء العالم يشرحون فيها كيفية الاشتراك في تدمير مواقع العدو.

وكان من أوائل حروب الجهاد الإلكتروني برنامج "الدرة" الذي ألحق خسائر مروعة بالمواقع الإسرائيلية قبل أن يتم حجب المواقع الداعمة له عن العمل، وكان البرنامج يعمل عن طريق إرسال كم هائل من الطلبات حسب بروتوكول HTTP إلى الموقع المستهدف، وهو ما يؤدي إلى زيادة الأحمال على مشغل الموقع وتوقف الخدمة به. غير أن مثل هذا النوع من الهجوم لا يكتسب فاعلية حقيقية إلا إذا تم حشد المئات أو الآلاف من المجاهدين للقيام بالهجوم على موقع معين في وقت محدد بدقة. ولتحقيق هذا يتم استغلال المجموعات البريدية لتنسيق الصفوف، ومهاجمة المواقع الإسرائيلية في توقيتات يتفق عليها، وهذا بالقطع يؤدي لضربات فعالة.

وجدير بالذكر أن التضامن لنصرة الحق الفلسطيني – كما تضيف تقارير إسلام أون لاين – قد امتد ليشمل مجموعات من قراصنة الكمبيوتر من مختلف جنسيات العالم يشتركون في حملات قرصنة أو اختراق ضد المواقع الإسرائيلية والأمريكية، مخلفين وراءهم رسالة واضحة "أن هذا يأتي ردًا على البربرية الإسرائيلية ممثلة في آلة الحرب". ومن أبرز

هذه المجموعات مجموعة تسمى WFD، وقد شنت هجمـــات ناجحة على موقع الجامعة العبرية بالقدس وموقـــع الســـفارة الإسرائيلية في نيوزيلندا، وموقع يسمى ADL مناصر للكيان الصهيوني، وموقع وحدة (رفائيل) التابعة للجيش الإسرائيلي، ولم يكن هجوم مجموعة WFD على المواقـــع الإســـرائيلية مجرد نصوص بسيطة، بل كان فيضًا من الملفـــات محملـــة بأفلام تبين انتهاكات العدو الصهيوني في الأراضي المحتلة.

وقد شمل الهجوم تعديلاً في محتويات بعض المواقع دون المساس بشكل أو تصميم الموقع مثلما حـــدث مـــع موقـــع "مساعدة إسرائيل"، وهو موقع خـــدمي يقـــوم بجمـــع آلاف الدولارات يوميًا على هيئة مساعدات من معدات وســـترات واقية للرصاص، وقد قام المهاجمون بتغيير محتوى الموقـــع باستبدال بعض العبارات التي تسيء للعرب فاســـتبدلوا بـــــ "الإرهابيون العرب" "الضحايا العرب"، وبـــ "المســـتوطنون الأبرياء" "المستوطنون المعتدون"، وعادة ما تخلف مجموعة WFD وراءها رسالة اعتذار واضحة عن اختـــراق الموقـــع فحواها "أرجوكم ساعدونا لإيقاف نزيف الدم".

وقد انتشرت رسائل البريد الإلكتروني كما يقول تقرير آخر على موقع إسلام أون لاين التي تدعم الانتفاضة بأشكال مختلفة؛ فتارة ترى رسالة بها نصائح عدة بإمكانك أتباعها لدعم الانتفاضة بشكل عملي من نشر الوعي وتربية الأطفال من الصغر على فهم القضية والدعاء والتبرع. وتارة تجد رسالة توضح لك العناوين البريدية لمجموعة كبيرة من المسئولين العرب والغرب، بالإضافة إلى المؤسسات السياسية والصحفية من أجل الضغط على تلك المؤسسات وهؤلاء المسئولين للقيام بعمل إيجابي ضد الوحشية الإسرائيلية الحالية. وتارة تجد رسالة تطلب منك مقاطعة البضائع الأمريكية والإسرائيلية، مثل تلك التي ظهرت على هيئة إعلان لأحد المطاعم الأمريكية وبه "ساندويتش" ترقد داخله الطفلة الفلسطينية "إيمان حجو" التي استشهدت منذ فترة، أو الرسائل التي تحتوي صورًا لأهوال الغزو الإسرائيلي أو لبسالة المقاومة الفلسطينية، أو رسومات الكاريكاتير التي تتناول بسخرية الموقف العربي الشائن. ثم هناك أيضًا الرسائل التي تنظم مواعيد محددة للصيام وقيام الليل والدعاء

الجماعي، والعروض التي تظهر الوحشية الإسرائيلية وقصة الكفاح الفلسطيني بأسلوب شيّق ومتميز.

هذا بعض من كل.. فقط اتركـوا جيـل الشـباب يقـود واتاخروا شوية عشان النَفس!

فين أيام القلة المنحرفة المندسة؟

لو افترضنا أن عشرة مواطنين جالسين على مقهى قرروا القيام بمظاهرة ضد سفارة الولايات المتحدة الأمريكية في حي جاردن سيتي بالقاهرة احتجاجًا على الدعم الأمريكي السافر والسافل لإسرائيل؛ وأخذوا بعضهم وتوكلوا على الله وصلوا على الذي سيشفع فيهم وانطلقوا إلى جاردن سيتي حيث السفارة الأمريكية فمن المؤكد أنهم سوف يفشلون في التظاهر والاحتجاج؛ وأغلب الظن أن المتظاهرين من الأول حتى الخامس لن يقضوا عيد الفطر القادم في بيوتهم وبين عائلاتهم حيث سيتم القبض عليهم ووضعهم في السجن تمهيدًا لإلحاقهم بأول تنظيم إرهابي سوف يتم تأليفه وإخراجه!!؛ أما المتظاهرون من الخامس حتى الثامن فأغلب الظن أنهم لن يقضوا العيد أيضًا في بيوتهم ومع عائلاتهم حيث يرقدون في المستشفى من أثر الضرب واعتداء الأمن المركزي (والمراكز!) عليهم أثناء المظاهرة المزعومة؛ أما المتهمان التاسع والعاشر فهما سيقضيان العيد من عائلتهما حيث تبين أنهما ضابطا أمن دولة!!

ثم يسألونك أين الشارع العربي مما يحدث في فلسطين؟ طيب وهو الشعب العربي قادر ينطق أساسًا أو يتظاهر أو

يصرخ أو يغضب أو يقول تلت الثلاثة كام! الإعلام الأمريكي منذ ضرب أفغانستان وهو يلح كل صبح في الصحف والمحطات التليفزيونية على أن الشارع العربي الذي كانوا يخافون هبته وثورته لم يتحرك ولم يتظاهر وحتى شهر رمضان الذي أنزل فيه القرآن وقتل فيه الفلسطينيون والأفغان لم تجد أمريكا معارضًا أو متظاهرًا واحدًا يمشي في الشارع احتجاجًا أو انفعال؛ وقد خرجت الدوائر الأمريكية والإسرائيلية بنتيجة مفادها أن الشارع العربي ليس ثائرًا ولا غاضبًا ولا مخيفًا على الإطلاق بدليل أنهم عملوا ما عملوه ولم يحرك ساكنًا ولم يهز ثابتًا!! خذ عندك ما كتبته مجلة النيوزويك الأمريكية عدد ٢٧ نوفمبر ٢٠٠١ قالت (نسمع يوميًا أن أمريكا في الوقت الذي تهزم فيه العدو تخسر حرب الدعاية وتتأجج التوترات في الوقت الذي ندخل فيه شهر رمضان، الشارع العربي غاضب ولكن هل هو غاضب حقًا؟ مارتن انديك المساعد السابق لوزير الخارجية لشئون الشرق الأدنى قام بمتابعة عدد المظاهرات في العالم العربي منذ بداية الحرب وفي الرقعة الممتدة على اتساع ٢١ بلدًا من المغرب وتونس في شمال أفريقيا إلى اليمن ودبي في الخليج

الفارسي كان عدد المظاهرات كما يلـــي: الأســـبوع الأول ٩ والثاني ٣ والأسبوع الثالث ١ والأسبوع الرابع ٢ والأسبوع الرابع ٢ والأسبوع الخامس وهذا هو الأسبوع الذي ضربت فيه الطائرات الأمريكية إحدى المستشـــفيات وعبـــرت فيـــه الدبابات الإسرائيلية للضفة الغربية كان عـــدد المظـــاهرات صفر نعم صفر) انتهت الفقرة والواضح منها أن الأمريكـــان والإسرائيليين يتعاملون مع الشارع العربي كما يتعاملون مع شوارعهم أو شوارع سويســـرا ولا يـــدركون أن شـــارعنا العربي شارع سد ومسدود بعون الله وأننا لا نستطيع التظاهر ولا القيام بالاعتصامات والتجمعات الاحتجاجيـــة حيـــث إن الحكومة متفقة مع قلة منحرفة ومندسة وعاملة معها عقدًا من خمسين سنة أنها تنحرف وتندس بين الجماهير كـــي تلحـــق الحكومة وتمنع المظاهرات أحسن القلة المنحرفـــة المندســـة تنحرف وتندس فعلاً والعياذ بالله! وهكذا تمكنت الحكومة بعد طول بال وانشغال من القضاء علينا وعلـــى اللـــي خلفونـــا بمظاهراتنا بينما كانت تدعي أنها تقضي على القلة المنحرفة المندسة! وأصبحنا ندعو الله أن يرزقنا بمظاهرة ولو حتـــى للقلة المنحرفة أهو نشوف مظاهرة وخلاص! خصوصًا أنـــك

عندما تقرأ التحليلات التي ينشرها الخواجات في تفسير عدم احتجاج وغياب مظاهرات الشعوب العربية تدرك فعلاً أن الحكام العرب قد قتلوا شعوبهم بعدما ضيعوا أوطانهم سواء بالاحتلال أو التبعية، فالصمت العربي الشعبي أمام مجازر إسرائيل وأمريكا لا يتم تفسيره باعتباره قمعًا هائلاً واستبدادًا مطلقًا من حكام هذه الشعوب بل يتم تفسيره على الهوى الأمريكي والإسرائيلي بأنه رضا واستسلام وقناعة وانهزام أمام القوة والطغيان العسكري الإسرائيلي والأمريكي!! ومن ثم اضرب أكثر وأقتل أكثر ومفيش كلب في أي حارة عربية سوف ينبح حين يرى الشعوب تذبح! ثم تصادفك تعبيرات ينشرها بعض مفكرينا قنوطًا ويأسًا مثل أن الشارع العربي مات وكان المطلوب منا أن نصدق ذلك ونقرأ الفاتحة على روح المرحوم الرأي العام العربي أسكنه الله فسيح جناته؛ لكن الحقيقة أن الرأي العام والشارع العربي لم يموتا بل الحاصل أن القمع الذي تمارسه الحكومات العربية ضد حرية الرأي والتعبير والأجواء والأنواء البوليسية والأمنية التي تنشرها وتفرضها حكوماتنا العربية هي التي تجعل الناس أسرى أحزانهم وإحباطاتهم ومنازلهم!

فضلاً على النخبة من المفكرين والسياسيين أسرى الخـوف والمصالح والتعاون مع العدو (..).

لقد وقف كولن باول وزير الخارجيـة الأمريكيـة علـى منصة مؤتمر دولي الأسبوع الماضي يـدافع عـن مجـازر إسرائيل ويقول بالفم المليان أو شارون رئيس وزراء منتخب (خلي بالك وحياة والدك.. رئيس إيــه.. منتخــب..!) مـن مواطني بلده في دولة ديمقراطية من مين.. مـواطني بلـده مفيش تزوير يعني ولا أموات بلده بيصوتوا وبيصحوا يـوم التصويت مخصوص.. وفي دولة مالها.. ديمقراطية حقيقيـة عندهم اختراع فظيع يا جدعان تصوروا إن الواحـد يضـع بطاقة التصويت في انتخابات الرئيس "مفيش هناك استفتاءات وجلال الله" تقوم البطاقة شوف المعجزة تطلع كما وضـعها المواطن بالضبط آه والله العظيم) وأضاف كـولن بـول أن شارون الرئيس المنتخب بإرادة الجماهير يفعـل مـا يـراه مناسبًا لمصلحة شعبه!! ونخرس نحن العرب لما يطلـع لنـا رئيس وزراء منتخب نبقى نتكلم ونرد على شارون وبـاول! خصوصًا أن الحكام العرب لم يردوا علـى ضـرب حـاكم عربي زميل يجلس معهم في مؤتمرات القمة العربية وبيمشوا

سوا ســوا على السجادة الحمراء في المطارات وتفــتح لــه صالة كبار الزوار من غير ما يكون مدير مباحــث المطــار ابن خالته! هذا الحاكم السيد ياسر عرفات اندك مقر حكمــه بالصواريخ كما اندك من قبل مقر حكم القذافي ومــن بعــده صدام حسين ومع ذلك لم نسمع من زملائه ودفعته من حكام مؤتمرات القمة ولا كلمة توحد الله!! حيث لم يكــن ضــرب مقار ومطار عرفات رسالة له وحده بــل لجميــع الحكــام أن أمريكا وإسرائيل ليس عندها كبير وكما ضربت أفغانستان فسوف تضرب العراق واليمن والصومال وســوريا ولبنــان والراجل فيكم يتكلم!! وكما ضربت عرفات فسوف تضــرب أي حاكم وأي إمارة واضرب المربوط فــي غــزة يخــاف السايب في أي حتة! المطلوب أمريكيا الآن من الحكام لــيس التعاون الموجود والمتوفر فعلاً مع المخــابرات والحكومــة الأمريكية فقط بل إعلان هذا التعاون والفخر بــه والطاعــة المطلقة لأمريكا بل ولإسرائيل!

ولكن بعد ضرب حاكم زميل ماذا سيفعل الآخرون مــن حكام العرب الملهمين والحكماء؟ أبدًا سوف يفعلون مــا قــد تفعله أنت شخصيًا حين لا مؤاخــذة يهــزأ ك (يهــزأ بــك)

ويمرمطك رئيسك في العمل أمام زملائك أو يضربك ضابط أمن مركزي إذا طلبت منه أن يبعد سيارته عن مكان ركن سيارتك! ما تفعله ساعتها هو ما سيفعله الحكام؛ أنت قطعًا سوف تذهب إلى منزلك العامر وبمجرد ما تفتح زوجتك الباب سوف ترزعها قلمًا وتكيل لها الصفعات (وكمان بتقولي مساء الخير) وهات يا تعويض عن كرامتك المهدورة وكبريائك الضائع ومذلتك أمام الناس وهذا بالضبط ما سوف يحدث لنا وللشعوب العربية سوف يلتفت الحكام لنا ولا داعي أن أقول لك عما سيحدث فقط سنرى أيام طين وعجين!!

خايب الصيف.. خايب الشتا، خايب
السلام.. خايب الحرب!

وزير ضخم التواجد ضخم الجثة يثرثر كل يوم في مجلس الشعب عن الديمقراطية وأزهى عصور الحرية ونزاهة الانتخابات نجح في دائرته في وسط الدلتا في انتخابات مجلس الشعب الماضية بالحصول على ١٧ ألف صوت (سبعة عشر ألف صوت فقط لا غير) وكان نجاحه وأصواته محل شك.. ولا شك، المهمة دخل نجله انتخابات المحليات في نفس الدائرة ونجح بطبيعة الحال ولكن بعد حصوله على ١٣٩ ألف صوت (مائة وتسعة وثلاثون ألف صوت فقط لا غير)، أليس هذا رقمًا فاجرًا ووقاحة سياسية في تزور إرادة الأمة وانتخابات ممثلي المحليات!!

كأن هؤلاء المجانين الذين زوروا انتخابات (هذه الدائرة كما كل الدوائر الأخرى في الحقيقة) يريدون أن يقنعونا أن انتخابات المحليات (وهي أقرب إلى نكتة تافهة وسخيفة!!) شهدت إقبالاً في التصويت لم تشهده انتخابات مجلس الشعب، يريدون إقناعنا مثلاً أن جماهير الأمة تكالبت على الإدلاء بأصواتهم في الكوميديا الهزلية المسماة المحليات أكثر من البرلمان بكل سخونة انتخابه وصراع أحزابه وتدافع قبائله واحتدام مصالحه، فهل هناك أهبل واحد في هذا الوطن يقتنع

أن مائة وتسعة وثلاثين ألف مواطن خرجوا من بيوتهم يــوم الانتخابات في تلك الدائرة لينتخبوا ابن هذا الوزير؟؟ بينمــا والده مد الله في عمر وزارته وعضويته لم يحصل إلا علــى سبعة عشر ألف قط.. وجملة الأصوات كلها التــي ظهــرت في انتخابات دائرته في مجلس الشعب سواء له أو لغيره لــم تصل لربع عدد الأصوات التي حصل عليها ولده المعجــزة في المحليات ولوحده!!

إنها عملية تزوير فاضحة وغير عاقلة وارتكبها مسئولون متواضعون الذكاء الذين نسوا أصول اللعبة وفنون الســرقة فبدت مكشوفة ولا تخيل على الأطفال، والمفاجأة التي تعري غباء ونفاق أصحاب المصالح والفسدة والمستفيدين من هــذه المهازل أن هناك من نشر إعلانات بآلاف بل وربما بملايين الجنيهات لتهنئة الفائز ووالده مع نشر هذه الأرقام المفضوحة وذلك الإجماع المزور سوف يجعل الصغير والكبير يعــرف أنها انتخابات مزيفة ومزورة زورها معاتيه وزيفهــا بلهــاء واحتفى بها فسدة ونشر إعلانات تهنئتها منافقون!! (ثم تسألني لماذا تهزمنا وتهزأنــا إســرائيل ونطأطــأ رأسًــا وظهــرًا للأمريكان!!).

وعلى الرصيف الآخر من الشارع السياسي وتزوير إرادة الأمة وجدنا روثًا ملوثًا بالحبر نشره أحد كتبة ومسئولي الصحافة المصرية الحكومية هجومًا وتهجمًا على مظاهرات أبناء مصر وكذلك على كفاح الشعب الفلسطيني الذي لا يساوي منصبه ونفوذه ونتاج قلمه نعل شهيد فلسطيني في جنين!! وقد كشف هذا الصحفي (ويا سعده وهناه) عن ولاء لمنصبه أكثر من الولاء لضميره في تلك المرحلة التي يعاني فيها من شيخوخة السن والعقل وشيخوخة الضمير كذلك، والمثير للأسى والأسف أن شباب مصر الذين تظاهروا في شوارعها ومدنها وجامعاتها ولدتهم أمهاتهم وجدوا الصحفي هذا على عرشه ولم يروا على مقعده وفي منصبه أحدًا غيره منذ ولادتهم وحتى تظاهروا وليس هناك أي دليل أقوى من ذلك على عفونة الاستقرار والجمود الذي تعيشه الصحافة والسياسة المصرية!!

أشفق هذا الرجل على واجهة زجاجية لمحل أطعمة أمريكية ولم تتحرك خلجة من ضميره (هو وغيره من نباحي ونواحي هذا المحل في الصحافة المصرية) على الشباب البريء الذي قتله الفئة الباغية في الإسكندرية حين كان

يتظاهر تضامنا مع الشعب الفلسطيني، والذي لا يعرفه هذا الصحفي الذي لا يرى كل يوم سوى السادة الذين يسمع تعليماتهم أو المرؤوسين الذين تصطك ركبهم فزعًا منه أو تتدلى ألسنتهم نفاقًا له، لا يعرف أن المظاهرات حتى لو ضد سادته حق دستوري وأنه لا هو ولا من يشدد له أو يأتمر منهم يملكون تزوير إرادة الأمة ومشيئتها في التظاهر وسبق للاستعمار والخونة من عملائه أثناء مظاهرات الطلبة قبل جلاء الإنجليز من مصر أن تحدثوا عن شغب المظاهرات وعنفها والقلة المنحرفة المندسة والتي لا يملك هو ولا غيره أن يقول لنا من هم؟ ومن يقصدهم؟ فضلاً عن أن أعظم مظاهرات في أمريكا نفسها وفي عواصم أوروبا والعالم والتي كانت ضد العولمة شهدت تحطيمًا عفويًا لواجهات محلات الأطعمة الأمريكية وكل ما هو رمز لأمريكا وعولمتها ولم يخرج ضابط صحفي هناك متهمًا قلة منحرفة ولا عناصر مندسة!! فضلاً عن أن مظاهرات الاحتجاج ضد الصهاينة في العالم كله تشهد خروجًا من الشوارع والميادين وحرقًا لأعلام إسرائيل وأمريكا ولم يمنعها أحد من حكومات أو أجهزة أمن بينما عندنا في مصر

والوطن العربي فالخروج إلى الشارع جريمة وعلى الناس أن تتظاهر في بيوتها أو في مكاتبها فقط لأن الحكومة مــذعورة ومدحورة!! والأمن يدخل بدبدباته إلى محارم الحرم الجامعي ويطلق مئات القنابل المسيلة للــدموع فــي وجــه العجــائز والمثقفين والطلبة؛ ثم افرض أن أحدًا يا أخي حطم واجهــة زجاج محل فهل نقتله بالرصاص المطاطي جــزاء لزجــاج المحل، أو نحطم عظامه وندغدغ جسده لأنه أحرق علمًــا أو ضج بالغضب والصراخ ضد شارون أو حتى ضــد أكبــر رأس عربية أو مصرية، من قال في أي دين وأي شــرع أو سياسة أن مواجهة الهتاف تصــبح بالرصــاص ومواجهــة المظاهرات بالقنابل ومواجهة الخروج مــن بوابــة جامعــة إسكندرية يكون بالقتل؟؟

وهل يكون نصيب المتمســك بحقــه فــي الاعتــراض والاحتجاج هو الاعتداء الخســيس الســافل مــن البلطجيــة المدفوعين أو المدفوع لهم من سادة معروفين كــي يعتــدوا بالضرب والتنكيل على كل معترض أو معارض كما حــدث لواحد من أنبل رموز الحركة الوطنية وهو كمال أبو عطيــة رمز عظمة المظاهرات المصرية!!

أخيرًا من ضمن حملات تزوير وتزييف إرادة الناس ووعيهم يخرج علينا هذا الصحفي بكلام معاد ويصيب قارئه بالغثيان وصاحبه بالعار حين يرفض دخول مصر حربًا من أجل فلسطين بدعوى أن جيشنا لا يحارب إلا على أرضنا ونسأله ونسأل اللي مشغلينه ولماذا ذهبتهم لتحاربوا خارج أرضنا ضد العراق أيام غزو الكويت وشاركتم التحالف الصهيوني الأمريكي لتدمير العراق وليس لتحرير الكويت؛ لماذا ذهبتم يا خويا لحفر الباطن إذا كنتم رجال قوى ولا تحاربون إلا على أرض مصر؟ أم هي الأوامر والتعليمات!! وهل معنى ذلك أننا لو حاربنا خارج أرضنا لن ننتصر وسنهزم وهل كوبري ٦ أكتوبر أعز عندنا من المسجد الأقصى، وأننا نحارب من أجل مارينا ولا يجب أن نحارب من أجل القدس، ولو جاء غدًا محتل لمكة والكعبة سنرفض أن نحاربه وننتظره في سفاجة!! المصيبة أنه سيأتي ذلك العدو كما جرى قبلا وزمنًا بعدما يفرغ من الجيران!!

ثم يرى صحفي السعد والهنا وشكراه وأسياده أن حرب فلسطين ١٩٤٨ كانت مغامرة من ملك مضغوط بينما يعاير في الوقت نفسه الفلسطينيين أن مصر حاربت من أجلهم؟

وينسى أننا الذين ضيعنا ٢٨% منها في حرب النكبة و٢٢% في النكسة وأعدنا عشرين كيلو مترًا من سيناء في نصر أكتوبر ثم دخلنا في نفق المفاوضات، فأين التضحيات وأين البطولة دفاعًا عن فلسطين والفلسطينيين؟! ويدعي الأخ أن مصر تعلمت من درس نكسة ٦٧ وأنها لن تخوض حربًا وسوف تتفرغ لبناء اقتصادها.. ويا ضلالية بقالكم ثلاثين عامًا لم تطلقوا رصاصة على إسرائيلي واحد بل تأخذونهم بالحضن في شرم الشيخ وطابا وفي كل حتة وتقولون عن رؤسائهم بأنهم أصدقاؤكم (داهية فيكم وفي أصدقائكم!) ومع ذلك لم تبنوا اقتصادًا بل هو يتداعى أمامنا الآن في عصر السلام ولم نجد أنفسنا نعيش في رخاء ورفاهية بل في كساد وبطالة وفساد وواردات سفيهة ومتضخمة وانهيار تصنيع وتراجع صادرات وحرق قطارات وعملة محلية مضروبة بالصرمة أمام الدولار.. لا نافعين في حرب وكرامة.. ولا نافعين في سلام واقتصاد. وخايب الصيف خايب الشتا، ممكن أعرف بعد هذا كله حضرتك قاعد وراكب ليه على كرسيك.. ما تهوينا شوية!!

دعوا الوطن يصرخ، دعوا العلم الأمريكي يحترق علناً!

من هو الذكي ابن الذكي الذي منع مصورًا تليفزيونيًا من تصوير مظاهرات الطلبة في جامعة الإسكندرية التي اندلعت غضبًا ورفضًا لما يجري من مذابح ضد الشعب الفلسطيني، من هو الذي يمنع وصول صور الغضب والرفض والاحتجاج العربي والمصري ضد العدو الإسرائيلي وحرق العلم الأمريكي المتغطرس والمتآمر والمتواطئ والذي ترفرف تحته كل المجازر ضد العرب وفلسطين، من هو هذا المسئول الذي اتخذ هذا القرار بل واحتجز المصورين قيد الاعتقال لفترة، ثم من هو المسئول الذي حرم شعب مصر من مشاهدة أكبر وأشرف مظاهرات جامعة القاهرة ومظاهرات جامعات المنصورة والمنوفية والزقازيق بآلاف الطلبة من نواة وزهرة وعطر وضمير مصر الذين غضبوا لشرف العرب ومصر وفلسطين ولدماء النبلاء الشهداء أعظم عرب في الوجود مواطنوا فلسطين المحتلة (فلسطين كلها محتلة وليس الضفة والقطاع) من هو هذا الذكي ابن الذكية الذي منع التليفزيون من عرض تلك المشاهد المذهلة الرائعة التي تحررنا من عار الصمت والفرجة على العروبة والإسلام مذبوحين بيد الصهاينة النازيين والأمريكان

الصليبيين الجدد، ثم تخرج صحف مصر الحكومية (بإمارة إيه قومية وتعليماتها من أجهزة الحكومة ومسئولي استتباب الأمن السياسي واستقرار كراسي الحكم!!) تخرج بدون تغطية واسعة ولا صفحات أولى ولا صور عريضة تحمل أخبار تلك المظاهرات، ولا يعرض التلفزيون في صدر نشراته ولا تقاريره مظاهرات الكرامة والشرف في مصر، لماذا؟، هل هو الخوف الرعديد المحموم والجبان من المظاهرات وتعبير الناس عن آرائها وأفكارها ومشاعرها وغضبها ونقمتها وثورتها بالمظاهرات، هل هو الخوف الكاسر من تحول المظاهرات إلى مبدأ ومنهج للجماهير فاليوم ضد إسرائيل وغدًا ضد الحكومة!!

ليس مفاجأة أبدًا أن تخرج الأجهزة الغربية تعلن أن كل الخوف من اضطرابات في الشارع العربي إذا دمرت أمريكا العراق، وكل التخوف من المظاهرات والغضب الجماهيري العارم من أفعال شارون، كل هذه التخوفات والمخاوف لا أصل لها لأن الشارع العربي مات تحت أحذية حكامه، وقد كانت أمريكا تخشى ثورة هائلة من هذا الشارع وغضب تلك الجماهير قبل أن تضرب أفغانستان وتقتل آلافًا من أبرياء

هذا الشعب، لكنها بمجرد ما فعلت لم تشهد غضبًا ولــم تــر مظاهرات ولم تلاحظ إضرابات واضــطرابات فتأكــد أنهــا تحترم الشعب العربي المسلم أكثــر ممــا يحترمــه حكامــه وأدركت أن الشارع العربي والمسلم قد تفتت وتمزق تحــت سوط وكرباج ودبابة وقضبان حكامه ومــن هنــا اســتحلت ضرب العرب وقررت العدوان على العراق والسماح المطلق والكامل لشارون بضرب الشعب الفلسطيني بكل ما يملك من وحشية وبكل ما يقدر من نازية!! ومع ذلك لا يزال الحكــام يمنعون الشعوب من حق الاعتراض على مذابح إسرائيل أو الاحتجاج على خطط أمريكا في العراق، الحكــام يســجنون الوطن ويعتقلون شرفه ويقمعون غضبه ويجلدون كرامتــه، فإذا لم نكن نستطيع حماية كرامتنا من عدوان حكامنا فمــاذا ننتظر من عدوان الصهاينة والأمريكان.. وكيف نقاوم عدوان حكام إسرائيل ونحن مقهورون من حكام العــرب، إن هــذا الموقف المهين يؤكد ما أريد دائمًا أن أؤكده، فأنا أعرف حل القضية الفلسطينية وكيفية إنزال هزيمــة ســاحقة بإســرائيل والعدو الصهيوني، أعرف الحل الوحيد فاسمعوا كلامي فلــن تعود فلسطين بالدبلوماسية أبدًا وطول ما فيه مفاوض عربي

مربوط بكرسي عرش حاكم عربي فلا أمل، فلسطين لن تعود ونحن لن نهزم اليهود الصهاينة إلا بالديمقراطية، بحصـــول الشعب العربي على حريته من حكامه هو الحل الوحيد لإنقاذ فلسطين وهو الطريق الوحيد للقدس! تحرير فلســطين يبــدأ بتحرير الشعوب العربية من سجانيها، يبدأ عندما يكون لدينا رئيس منتخب ورئيس سابق.. ووطن بلا توريث ولا وراثة!

أمريكا تفهم جيدًا الحكام العرب، تعرف أن الحــاكم مــن هؤلاء لو شعر أن عرشه يهتز أو أنه لــن يســتطيع تــرك منصبه لولده من بعده فإنه يسارع بتقــديم تنــازلات فادحــة ويوقع على أي اتفاقية ويقوم بأي مبادرة ويوفق أي راســين في الحلال، الحاكم العربي لا يرى إلا عرشه أو وراثة أبنائه لعرشه ومن ثم فكل ما يفعله على كرسي الحكام هو للبقاء أبد الدهر على هذا الكرسي، لا شعبه يساوي عنده مثقال حبة من خردل، فقط مجموعة المنافقين وبطانة النعاج التي تحيط بــه هم كل ما يعرفه من شعبه، بلاط مملكتــه ووزراء عرشــه أقنعوه أنه إله أو على أقل تقدير نبي خسارة في شعبه، ولــو أن شعبه يعرف النعمة التي تركب على عرشه لسجد للحاكم وركع وصلى له وعليه كما يصلي للآلهة والأنبياء، فالحــاكم

العربي لا يخطئ أبدًا وإذا قرأت أي صـــحيفة فـــي العـــالم العربي من بغداد حتى الرباط تجدها تتحدث عن حكمة القائد وعظمة الحاكم وانبهار العالم برؤيته وانتظار أمريكا وأوروبا لكلمته وأن كل خطاب له خطاب تاريخي تتناقلـــه وكـــالات العالم وكل زيارة له زيارة تاريخية وكل تصـــريح صـــحفي نبوءة وكل حوار تليفزيوني وحي، وكلما حدث شـــيء فـــي العالم فقد كان الحاكم يعرف ويحذر ويا سلام لو كانوا سمعوا الكلام،!!

تحالف يا مؤمن ولو بمعلومة!

تصدر المخابرات المركزية الأمريكية صحيفة يومية تطبع وتوزع في تمام الساعة التاسعة بتوقيت واشنطن وطبقًا لرواية وليم كولبي مدير الوكالة الأسبق فتلك الصحيفة هي أكثر صحيفة في العالم من حيث عدد محرريها البالغ عددهم ستة آلاف محرر (يعملون لحساب الوكالة في مشارق الأرض ومغاربها) المدهش أن قراء تلك الصحيفة هي أقل قراء صحف العالم بل غير مسموح حتى لمحرريها بقراءتها ويبلغ عدد قرائها ستين قارئًا فقط من بينهم أهم قارئ في العالم رئيس الولايات المتحدة (حتى لو كان يعاني من صعوبات في القراءة والنطق والتعبير وربما التفكير مثلما الحال في الرئيس بوش) لكن يا ترى يا هل ترى ماذا كتبت صحيفة الـ "سي. آي. إيه" عقب ضرب أمريكا الإرهابي والمرعب والمتقن والمبهر يوم ١١ سبتمبر (الأسود في نظر البعض والأحمر أو البمبي في نظر آخرين) أغلب الظن أن كل ما يرمي عليه المتفائلون من أحمال ثقال أن الولايات المتحدة سوف تنتبه وتستيقظ وتدرك (وربما توقن) أن سياستها تجاه العالم العربي والإسلامي خاطئة (هي سياسة مجرمة وإرهابية في الحقيقة (أغلب الظن أنه سوف يشعر

قريبًا بإحباط شديد: المخابرات الأمريكية لم تعتــرف بأنهــا زرعت مع مسئولي وطنهم الشر والظلم والفساد فــي بقــاع كثيرة من العالم؛ إن أول ما طالــب بــه رجــال السياســة والمخابرات في أمريكا هو عودة استخدام ســلاح الاغتيــال لشخصيات وسياسيين في أي بقعة من العالم (تذكر محاولات اغتيال عبد الناصر وربما السادات وكاسترو والليندي ولومبا وغيرهم عشرات ومئات نجحوا في قتلهم أو فشلوا) اللجــوء للاغتيال بدون محاكمة والقتل لأسباب سياســية هــو الحــل الأول الذي طرحته الإدارة الأمريكية ثم تلا ذلك فــتح بــاب التنصت والتجسس على أي بني آم فــي أمريكــا بــدون لا قوانين ولا محاكم وكلام فاضي من هذا كله مــع ملاحظــة مهمة أن أمريكا من غير قوانين وببلطجة كاملة لا تنقصــها الوقاحة تتجسس على العالم كله (تتذكر معــي علــى ســبيل المثال لا الحصر أو الحسرة التجسس على مكالمات الرئيس المصري أثناء أزمة القبض على قيادي فلسطيني) وبعد حق الاغتيال وحرية التجسس: هناك ضــرب حريــة الصــحافة وإعلان إعلام حرب على طريقة "لا صوت يعلو فوق صوت المعركة" ومنع نشر مقالات أو موضوعات ضد الحــرب أو

ترفض اليقين الأمريكي السائد بالغ التوحش حول حق أمريكا في قتل العالم كله في سبيل الانتقام؛ حتى أن الإدارة الأمريكية منعت وسائل الإعلام من نشر رأي أو صوت عدوها بن لادن (يدهشني أن كُتابًا محترمين في مصر غاضبون أن محطة الجزيرة تذيع رأي بن لادن وتصريحات طالبان وواضح جدًا أن الإعلام عندهم هو ما يعرض الرأي الذي نوافقه ومن العيب المجرم أن نذيع أو ننشر شيئًا يحرك مشاعر الناس لأن الناس حمارة عندها مشاعر ولأن مشاعر الرأي العام ليست مهمة ما دمنا لا نرضى عنها ولازم نمنع عن الناس المعلومات والآراء التي تضر بصحتهم وتسوس أسنانهم!) إنها الحرب السافرة على الأبرياء بحجة الرد على قتل الأبرياء وخرق القانون بدعوى الدفاع عنه؛ إن ما يسود أمريكا الآن هي حالة الإنكار والمكابرة: الرئيس بوش يقول إن أسامة بن لادن ضرب أمريكا لأن أمريكا طيبة وأسامة شرير.. إنها قصة تصلح للأطفال في فيلم رسوم تحركه والمؤسف أنها تصلح للشعب الأمريكي مع الفشار والبطاطس أمام التليفزيون ولكن لا يمكن أن نشتري تلك البضاعة لدينا؛ الرئيس الأمريكي مذهول من أن العرب يكرهون أمريكا

ونحن العرب بدورنا مذهولون مــن أنــه مــذهول(..) أولاً العرب لا يكرهون أمريكا بل يكرهــون حكومــات أمريكــا وسياسات أمريكا؛ واستكمالاً لقصص الرسوم المتحركة التي يرددها بوش فإن سبب هذه الكراهية يا أولاد أن أمريكا تدعم وتؤيد وتقوي وتسلح إسرائيل (مفاجأة يا سيد بــوش ألــيس كذلك؟) وأن إسرائيل احتلت أرض العرب ومقدسات العرب؛ أمريكا تعرف تلك الحقيقة منذ زمن لكن الرئيس بوش بطيء شوية وكان غايب في حصة التاريخ في المدرســة؛ التفتــت أمريكا للأمر أكثر بعد حوادث ضرب البنتاجون ونيويــورك ليس فقط لأن عربًا مسلمين فعلوها ولكن لأن عربًا مســلمين (أو العرب المسلمين) فرحوا وشمتوا في أمريكا (السياسة لا الشعب)؛ طبعًا السؤال بصيغته الأمريكية (لماذا يكرهوننــا؟) معناه أن الإدارة والمجتمع الأمريكي وراءها أو معها لم يعير اهتمامها لكلام مسئولينا العرب ووزراء الخارجية وكتابــات الإخوة الأصدقاء العملاء (..) عن تطابق وجهــات النظــر وتفهم الدوافع الأمريكية والمشاركة باليد أو باللسان أو بالقلب في التحالف (كان شعار التحالف الأمريكي تحالف يا مــؤمن

ولو بمعلومة!) بل سمعوا نبض الشعوب (تك تك تك) وأدركوا الحقيقة:

الأولى: أن الشعوب؛ قلوبها وعقولها في مكان وحكامها في مكان آخر تمامًا؛

الثانية: أنه إذا أرادت أمريكا كسب الشعوب فلابد أن تخسر الحكام؛ المفاجأة للسادة الذين يعتزمون المراهنة على أن الإدارة الأمريكية سوف تفعل مع الأوطان العربية والمسلمة ما فعلته انجلترا في حادث ٤ فبراير ١٩٤٢ حين أجبرت الملك فاروق على تكليف حزب الوفد بزعامة مصطفى النحاس الحكم لأنه حزب الأغلبية والجماهيرية والشعب يريده ويلتف حوله ومن ثم تطمئن انجلترا لمصر وأحوال مصر في وقت تحارب الإمبراطورية فيه هتلر في حرب ضروس؛ هذا الحدث التاريخي الاستثنائي (رغم الخلاف على مشروعيته) لن يتكرر أبدًا في حال أمريكا الجديد السبب أو السر هو أن ضمان أمريكا في دول العالم الثالث هو الحكام الديكتاتوريون؛ وهم الذين يديرون السياسة حسب البوصلة الأمريكية؛ تخيل مثلاً لو حكومة نواز شريف الشرعية هي التي تحكم باكستان في مثل تلك الأحداث هل

حصول أمريكا على تلك العمالة السياسية السريعة والرخيصة كانت ستكون على هذا النحو الغارق في الولاء والتبعية (يضحكني جدًا كلام برويز مشرف أن تأييده أمريكا كان خوفًا على القنبلة النووية لباكستان ونحن كنا حميرًا نظن أن القنبلة النووية تجعل الناس أقوى وأمتن فإذا بها تذلنا وضعفنا؛ كنا فاكرينها تخيف الآخرين فإذا بها تفك ركبنا نحن: طيب وعلى إيه بقى ما نخلص منها إذا كانت سوف تذلنا ولا تقوينا) لن تتكرر أبدًا ٤ فبراير خصوصًا أن الملك فاروق وقتها كان هواه مع ألمانيا فضلاً على أن إنجلترا نفسها تخلت وباعت حزب الوفد والديمقراطية بمجرد ما انتهت الحرب وطأطأ الملك لها أكثر: الديمقراطية تصنعها الشعوب ولا تأتي نتيجة موازين دولية أو طلبات أو أوامر أمريكية بل إن التاريخ الأمريكي كله في العالم يؤكد أنه يركض وراء التنفيذ التابع السريع لأوامرها: (تأمل الرضا على النظام السوداني الآن واديني عقلك.. انتبه إلى المدح في عرفات بمجرد ما قتل مواطنيه ثم هناك بروزي مشرف وحتى القذافي وأكمل أنت بقية القائمة) المؤكد أن الدولة الوحيدة التي حصلت في الدائرة الإسلامية والعربية على

حرية مدهشة وديمقراطية واسعة نسبيًا هي الدولة ذات العداوة السياسية المباشرة والملتهبة مع السياسة الأمريكية وهي إيران؛ وهذا ما يؤكد على أن الديمقراطية تذهب لمستحقيها والمناضلين لأجلها ولا يمكن أن تصل تيك آواي من وشنطن! مع الوضوح الشديد على أي ديمقراطية ممكنة على تلك البقعة من العالم سوف تضع بإرادة الشعوب التيار الديني في مقاعد الحكم وهو أمر يفرغ حتى دعاة الليبرالية والتسول الديمقراطي من البيت الأبيض والإدارة الأمريكية وهو ما لا تريده أمريكا أيضًا؛ دعك من أوهام التحرك الأمريكي من أجل دولة فلسطينية فكلام بوش كله يصيب تمامًا في تسوية رديئة وعاجزة عن تحقيق أي شيء لفلسطين ومراهم الحريق التي يدهنها بوش الآن تريح الحكام ولكن لن تريح حائط البراق ولا جثث الشهداء! أما الديمقراطية المزعومة فهي لن تأتي في عبوات السياسية الأمريكية بل ستستمر تلك السياسة إمعانًا في التنصل والتراجع والإمعان في الخطيئة وفصل بعض القتلة غير المهرة في السياسة الأمريكية واستبدالهم بقناصة وقتلة أكثر مهارة؛ تأمل معي المقال الذي كتبه مدير المخابرات السعودية السابق والذي

استبعد من فترة قصيرة جدًا عن منصبه وهو الذي أوحى وأومأ البعض إلى علاقة وثيقة له مع بن لادن أدت إلى منحه جواز سفر للاستخدام مرة واحدة للخروج من السعودية بعد إقامة جبرية قصيرة في مقتبل التسعينيات ومن الواضح أن الرجل ومخابراته لعبا الدور الأكبر في تصنيع الجهاد الأفغاني ضد الروس وفي مصب ومجرى السياسة الأمريكية في السبعينيات؛ تركي الفيصل وهذا اسمه نشر مقالاً مليئًا بالتنكر والتنصل من مسئوليته أن تكنى باسم أبيك رحمه الله وكشف في تلقائية عجيبة عن مدى التورط المخابراتي في جبال السياسة من كابول إلى لانجلي مقر المخابرات المركزية الأمريكية كتب تركي الفيصل في جريدة الشرق الأوسط السعودية (كانت تغطية الجريدة ولا تزال لضرب أمريكا والحرب على كابول نموذجًا خالصًا في الولاء المطلق والدعاية المفرطة للسياسة الأمريكية فيما قد يكون إحساسًا بذنب أو تكفيرًا عن جرم أو مبالغة في التماس (والتمسح) من ملاك الصحيفة إلى ملاك القرار في واشنطن الرياض) كتب بتاريخ ٩ أكتوبر تحت عنوان (ادعاءات بن لادن).

"خسئت يا بن لادن.. فإنك لا تستطيع أن تقنع باسم أبيك رحمه الله... أذكر أنك عندما كنت تدعى أنك تحارب مع المجاهدين الأفغان ضد السوفيت فكنت ممن يعرفون بأصحاب الكهوف فقد كنت تختبئ مع من يختبئ في الكهوف كلما دارت رحى المعارك واليوم ما زلت تختبئ في كهفك!!! والآن بعد أن سفكت دماء الأبرياء في نيروبي ودار السلام وتبعت ذلك بسفك دماء الأبرياء في نيويورك وواشنطن ومنهم مئات المسلمين فكيف تسمح لنفسك بادعاء الإسلام، وأما عن تعهدك أمريكا بالويل والثبور حتى تأمن فلسطين فأين أنت من فلسطين؟؟ هل قتلت إسرائيليًا واحدًا؟ هل تبرعت بدولار واحد لتجهز مجاهدًا من الذين يستشهدون كل يوم في فلسطين لا والله لأن ذلك بعيد عنك وعن تفكيرك!! وأما عن العراق وأطفال العراق فأين أنت منهم وماذا فعلت لهم وبالله ماذا فعلت لشعب أفغانستان لقد جلبت له الدمار وكان أشرف لك بعد أن باركت الانتحار أن تنتحر وتضحي بنفسك في سبيل تخليص أفغانستان من نتائج أفعالك إنك تتمسح بمآسي المسلمين لتبرر إجرامك وتغرر بصغار العقول وكل ما أقوله لك هو: أعوذ بالله من الشيطان الرجيم وأنت

بذرة فاسدة مثل ابن سيدنا نوح عليه السلام وسيغمرك الطوفان كما غمره".

المدهش أن رئيس المخابرات السعودية وعلى الطريقة الأمريكية البحتة في هجومه الذي يتنفس بالعلاقة الشخصية القديمة وما أفرزته من إحن؛ ينكر أي مسئولية شخصية لمخابراته عن مأساة الشعب الأفغاني وعما يحيق من كوارث بالشعب العراقي؛ فجأة طلع المسئول هو بن لادن!! حين يستنكر على بن لادن تبنيه قضية فلسطين فأين أنت من فلسطين يجعلنا نسأل وأين الحكومات العربية كلها من فلسطين؟ الحاصل أن المثقفين العرب المحسوبين على الليبرالية يبدأون موسم التسول للديمقراطية من أمريكا والحكام العرب بدأوا التسول لحل وتسوية عاجلة (مش مهم عادلة المهم عاجلة!) لقضية فلسطين! وهو ما لن يحدث لأن الإخلاص والتحالف العميق المؤكد بين أمريكا وإسرائيل لن يتفتت أمام الاستجداءات العربية؛ كما أن التحالف العميق بين مصالح الديكتاتوريات في العالم الإسلامي ومستهدفات أمريكا لا فكاك منه! وها هو رئيس المخابرات السعودية السابق يطلب من أسامة بن لادن أن ينتحر ويخلصنا! وكأن غيابه

وموته (إذا لم يتحقق بالأمريكان فإن الفشل الكلوي المصاب به بن لادن كفيل بتحقيقه) هو الحل تمامًا مثل السعي الأمريكي إلى مطاردة الإرهاب في كل مكان وكأنه الحل!!

إن الأمر الأمريكي كله يذكرك بمشهد في فيلم سينمائي هوليودي حيث يسأل ضابط مكافحة الإرهاب زميله: ماذا نفعل لو تمكن إرهابي من الوصول إلى سلم الطائرة ومعه رهينة وقد يهرب بها؟ فرد عليه زميله: سوف نقتل الرهينة!

وها هم الأمريكان يقتلون الرهينة!

لماذا تصر الحكومات أننا شعب ما يتمرش فيه يأكل وينكر؟

ليست مشكلة إطلاقًا أن تكذب الحكومة، المشكلة الحقيقية أنها تغضب إذا لم تصدق أنت كذبها، القاعدة المعمول بها مصريًا منذ سنين أن الحكومة حرة تكذب زي ما هي عايزة والناس حرة ألا تصدق كذبها، لكنها هذه الأيام تأخذ على خاطرها قوي فقد أصبح الناس يعلنون عدم تصديقهم للحكومة هكذا بكل وقاحة أذهلت المسئولين الذين يرفعون شعارًا يوجهونه لنا ليل نهار "أنتم شعب ما يتمرش فيه. خسارة فيه الإنجازات. شعب يأكل وينكر. وأخيرًا تتهم الحكومة شعبها أنه يركب قطارات لكي يحرقها...!!".

كي تفهم ما حدث في أزمة قطار الصعيد الفاجعة اقرأ معي تلك القصة النكتة وأنت تضع أمام عينيك الطريق المعبد السريع والمختصر الذي شقته الحكومة لسكان ومريدي قرية مارينا على الساحل الشمالي حتى توفر عليهم وقت وكلفة الطريق الصحراوي فضلاً عن البنية الأساسية التي تكفلت بها الحكومة لمليونيرات مارينا وقارن تلك المليارات المارينية بحال خط الصعيد.. نرجع مرجعونا إلى القصة أو النكتة التي تحكي أن ولدًا سأل والده: بابا يعني إيه السياسة الحكيمة؟ فقال له والده: شوف أنا سأشرح لك

التعريفات بطريقة تفهمها.. افرض أني أنا الرأسمالية، معي الفلوس وثروة البيت والذي أريده يتنفذ، يبقى أمك هي الحكومة التي تنفذ ما أريده ويبقى أخوك الصغير هو المستقبل اللي إحنا عايزينه يكبر وبنشقى من أجله والبنت الشغالة اللي عندنا تبقى هي ساعتها الطبقة العاملة. ويبدو أن الولد اقتنع بالتعريفات لكنه قلق بالليل في نومه نتيجة صراخ أخيه الصغير الذي تبول أو تبرز على نفسه فانطلق يبحث عنه أمه فوجدها نائمة في سابع نومة وبحث عن والده فوجده في غرفة الشغالة بيغتصبها. فوقف مخاطبًا نفسه: أنا دلوقت فهمت السياسة هي أن الرأسمالية تغتصب الطبقة العاملة والحكومة نايمة والمستقبل غرقان في الخراء والوساخة!!

إذن يبدو أن حالة رغبة الحكومة في إجبار الناس على تصديق حالة طبيعية تلجأ لها كل الحكومات في كل أرجاء الدنيا، وكلهم يقولون كلامًا يرتع في الكذب حول الإنجازات أو العمل من أجل الجماهير الكادحة لكن مشكلتنا هنا في بلادنا هي تحالف الحكومات مع السياسيين والكتبة المنافقين الذين يجلسون تحت قواعد كراسي الحكومات والحكام فيجعلون ما ينطق به هؤلاء دررًا من الحكمة وما تفعله تلك

الحكومات ضربًا من الإنجازات ومن مصـــلحتهم أن يكـــون الإهمال بل والمواطن نفسه هو المسئول وليست الحكومـــات عن أي كارثة أو مأساة تلحق بنا فإذا سقط أوتوبيس في النيل فهذه ليست مشكلة الحكومة بل مشكلة الراكب فمن قال له ألا يتعلم العوم والسباحة وهكذا يكون المواطن لكونـــه مواطنًـــا غلبانًا فقيرًا هو الضحية وهو الجاني!..

وقديمًا قالوا إن مرافق (أو منافق) السلطان رأى فيلســـوفًا يجمع عشبًا ليأكله بدلاً من الطعام فقـــال مرافـــق الســـلطان للفيلسوف: لو وضعت نفسك في خدمة الملوك لما اضطررت إلى أكل الأعشاب. فأجابه الفيلســـوف: ولـــو أكلـــت أنـــت الأعشاب لاستغنيت عن خدمة الملوك، وفي رواية أخرى أن فلاحًا تقدم إلى فقيه رآه على باب السلطان فطرح على الفقيه سؤالاً فقال له الفقيه هل هذا المكان المناسب لطرح الأســـئلة وهنا إجابة الفلاح وهل هذا المكان المناسب لوجود الفقيـــه!! ومن ثم نفهم أن منافق ومرافق السلطان والفقيه علـــى بـــاب الوالي أشد فتكًا بالناس من السلطان والوالي الذي وجد مـــن يمجده ولم يجد من يرده!!

ويحكى أن وليًا من أولياء الله الصالحين قام بزيارة خاطفة إلى الجنة فاندهش من رؤية ذئب يرتع فيها فهتف متعجبًا: ذئب في الجنة، إنني لا أصدق عيني، فأجابه الذئب نعم فقد افترست ابن الأمير، فقال له الولي إذن لو افترست الأمير نفسه لدخلت إلى السماء السابعة!!

ويحكى أن وفدًا من الكوفة ذهب إلى الخليفة يلتمس منه عزل وإلى مدينتهم وقالوا له في السنة الأولى لولايته اضطررنا إلى بيع مقتنياتنا وأراضينا وتخلينا في السنة الثانية عن أملاكنا وأموالنا وفي الثالثة هجرنا مدينتنا وجئنا إليك يا أمير المؤمنين راجين رحمتك بأن تضع حدًا لشقائنا بعزل هذا الوالي، لكن أمير المؤمنين رفض احتجاجهم وأكد لهم استقامة الوالي وتقواه وإخلاصه وعدله وأنه يعمل وفقًا لتوجيهاته وطبقًا لإرشاداته وتحت رعايته، فأجابه الناطق باسم الوفد: صدقت يا أمير المؤمنين وكذبنا نحن بحق الوالي فما دام هذا الوالي على ما ذكرت من الاستقامة والتقوى والإخلاص والعدل لماذا كافأتنا به كل هذه السنين الطوال دون سوانا وقد ولاك الله بلدانًا أخرى لترعاها كما رعيتنا

فأرسله إليها أيضًا لينعم أهلها باستقامته وتقــواه وإخلاصــه وعدله كما نعمنا بذلك قبلهم.

وعن الحاشية الذين يؤلهون مليكهم إلى حــد أن يصــدق الملك إلهامه من السماء وينظر إلى ظله كأنما يشعر أنه حقًا ظل الله على الأرض.. يحكى أن أمير المؤمنين افترق عــن صحبه وحاشيته أثناء الصيد في الصحراء وتاه من صــحبته حتى التقى ببدوي واقف عند ظل شجرة فسأله الأمير: هــل تعلم من أنا؟ فرد عليه البدوي: نعم أنا طاغية وابن طاغيــة سلبت مال الله واعتديت على حرمته. فرد عليه الأمير: مــا هذه الجرأة أنا أستطيع أن أنفعك وأن أضرك، أجاب البدوي: اسأل الله أن لا ينعم عليّ بنفعك ولا يــرد عنــي ضــررك، ساعتها ظهر رجال الحاشية قادمين من بعيد فخاف البــدوي المسكين على نفسه فاقترب من الأمير وهمس في أذنــه "يــا مولاي ربنا يديلك طولة العمر والنبي خلي كلامنا سر بينــا إحنا الاثنين".

وتروي عن الحجاج في السياق نفســه حادثــة خروجــه للصيد كذلك فصادف أن مشى وحيدًا فالتقى رجلاً عجــوزًا فسأله الحجاج عن حكام هذه البلاد فقال: العجوز كلهم رجال

شر يظلمون الناس ويسلبونهم ممتلكاتهم، فرد الحجاج: وما رأيك بالحجاج؟ فأجابه العجوز: هو أخبثهم قبح الله وجهه ووجوه الذين جعلوه واليًا علينا، فرد الحجاج: هل تعلم من أنا؟ فأجابه: كلا.. ومن أين لي أن أعلم! فرد الحجاج: أنا الحجاج بن يوسف، فصعق العجوز وارتبك ثم قال للحجاج: وهل تعلم من أنا، فأجاب الحجاج: لا، فرد الرجل: أنا مجنون هارب من المستشفى وراجع فورًا.

عندما يتأمل المرء هذه الحكايات من عجائب القهر العربي يكتشف أن الحال على ما هي عليه منذ مئات السنين إلى الدرجة التي جعلت الشعوب مغموسة ومنقوعة في النفاق والرياء ومن ثم التخلف ولا عجب أن يتقدم الجميع ونتأخر نحن.. ونتراجع ونتدهور وننهار..

ويبقى الحديث كله في التاريخ (لمصلحتك ومصلحتي) تلك الواقعة التي يرويها البعض عن تيمور لنك الحاكم المغولي عندما سيطر على الشرق فوجد كل حاكم عربي يسمي نفسه بلقب مثل المعتصم بالله، المتوكل على الله، المستنصر بالله، فطلب من الناس أن يقترحوا عليه لقبًا مثل هذه الألقاب فقال له أحدهم: سمي نفسك "تعوذ بالله"!

الحكومة مسئولة عن حرارة الجو!!

ما هذا الإصرار الغريب على الفشل، حكومتنا التفيدة (أخت رشيدة) خبيرة وأستاذة قسم الفشل في حياتنا، دعك من الناحية السياسية فقد عرفنا فشلها وخيبتها، المشكلة الآن هي الخيبة بالويبة في الأمور المتعلقة بالحياة اليومية للمصريين، وليكن واضحًا تمامًا أنني أتهم الحكومة بمسئوليتها عن موجات الحرارة (موجات إيه، هذه بحور محيطات!!) التي اجتاحت مصر في هذا الصيف، وقد يتعجب متعجب أو يستغرب مستغرب ويقول كيف تكون حكومة مسئولة عن ظاهرة طبيعية وحالة جغرافية مثل الحر؟

أقولك أنا:

هل تتذكر الأمطار حين تهطل يومًا أو ليلة في مصر المحروسة فإذا بالحياة تصاب بالشلل في البلد وتتحول الشوارع إلى بحور وتتعطل المصالح والمدارس؟ فهل فكرت الحكومة منذ الآن في كيفية مواجهة الشتاء القادم، أبدًا، ولا على بالها!! الحال نفسه يتكرر في الصيف فإذا كانت الحكومة لا تتذكر إصلاح البلاعات والشوارع من أجل الشتاء فهي لا تتصور أن عليها أي مهمة تجاه حرارة الجو وتملك من الوقاحة السياسية أن تقول إن الحرارة ليست

مسئوليتنا، والحقيقة أن موجات الحـــرارة جـــاءت لتكشـــف وتعري وتفضح العجز الحكومي وفقدان الخيال وعدم القدرة على إبداع الحلول أمام المشاكل المتفاقمـــة، زمـــان كانـــت الحكومة تطلق أثناء الصيف والذي لم يكن على هذه الدرجة من الحرارة الفظيعة سيارات رش ترش الشـــوارع بالميـــاه لتساهم في تلطيف الجوف وكسر الحر (لماذا لا يعـــود هـــذا الحل الآن وبكثافة وبحماسة؟) وهي العربات التي كنا أطفالاً نجري وراءها فرحًا وبللا، وكان هذا الحل علـــى تواضـــعه جزءًا من احترام الدولة للمواطن وتضامنا معه فـــي أجـــواء حرارة محبطة ومعطلة، الآن هنـــاك تناحـــة فـــي مواجهـــة المواطن بمعنى أن الكهرباء تنقطع فيكاد الناس تتســـلق مـــن الحرارة فيكون الرد البجح أن نسبة تشغيل التكييف والمراوح تزيد الحمولة على مولدات الطاقة الكهربائيـــة، دعـــك مـــن اختفاء اللياقة في الكلام لكن انظـــر إلـــى عـــوار السياســـة الحكومية التي تذلنا كل شوية بحكاية البنية الأساسية، طيـــب وأين ذهبت بنية الكهرباء الأساسية في الوقت الذي نحتاجهـــا فيه، بل ولماذا لا تزيد فورًا طاقة المولدات ويجري إبداع في حل زيادة سعة الطاقة لمواجهة الحر والحرارة، لكن الكســـل

الحكومي والفشل السياسي وعجز الخيال وعدم احترام المواطن تؤدي بهم إلى الحل السهل وهو انقطاع الكهرباء، خذ عندك أيضًا عدم تفكير الحكومة في استيراد حلول تكنولوجية للحر (في الوقت الذي تستورد فيه التفاهات والهيافات بأموال البلد المنهوبة والضائعة) فهناك تكنولوجيا روسية (وبالمناسبة قديمة وليست حديثة) تقوم على عمل سحب صناعية (آه سحب!) ومن ثم تمطر من السماء (زملاؤنا الذين زاروا موسكو عام ١٩٨٥ شهدوا هذه التكنولوجيا وهي تعمل بنجاح ساحق!)، ومن المؤكد أن هناك في الدول المتقدمة حلولاً واختراعات في هذا الصدد فقط نفكر فيها أو نسال أو نبحث عنها، ثم هناك فتح الخيال لشباب المصريين من المخترعين والعلميين في التحايل والتعامل مع هذه الحرارة الغليظة التي تقل غلظة عن فظاظة حكومة فاشلة!

ثم مع كل ما يحدث من تحول الصيف المصري إلى جحيم، فلا زالت الحكومة على كل عاداتها السقيمة فالمرور هو نفسه المكدس المعذب دون أي إجراءات مبدعة (كم مرة ذكرت كلمة إبداع في هذا المقال؟) تساهم في حل الاختناقات

المرورية الليلية (تذكر فشل المرور فـــي شـــهر رمضـــان سنويًا!).

لكن المشكلة الجذرية هنا أن المواطن (في الحقيقـــة!) لا يشعر بتضامن ودعم الحكومة له في مواجهة الحر بل يشعر أن الوزراء والمسئولين (وهذا مذهل فـــي صـــحته!) قـــد لا يعرفون أن البلد حر فعلاً إلا من خلال السمع وقراءة درجات الحرارة بأرقامها المخففة والكاذبة، فالمسئولون لا يجلســـون إلا في الغرف والقصور المكيفة التي لا تنقطع عنها الكهرباء أبدًا، ويركبون سيارات مكيفة لا تقف في إشارات المـــرور أبدًا! فمن أين لهم أن يعرفوا ويفهموا!!

إن الحكومة التي تنسى عمل وصيانة بلاعات للشـــوارع في الشتاء وتقطع الكهرباء والماء في الصيف (خايب الصيف خايب الشتا) يجب أن تخشى وتحس على دمها ولا تفتح فمها بحكاية البنية الأساسية مرة أخرى.. وسلم لي على الكبـــاري والمجاري!!

إنه طغى!

الصحفي الأمريكي اليهودي "توماس فريدمان" محرر الشئون الخارجية في صحيفة نيويورك تايمز (معقول يا راجل مش عارف توماس فريدمان!) عندما زار مصر منذ فترة استقبلته جهات وهيئات رسمية بالزغاريد السياسية "ووسع يا جدع يا سعدنا توماس عندنا"، نظموا له الاستقبالات والاحتفالات ودعوا لأجله الكبراء واستقبله الوزراء واحتفوا به فشر ولي عهد إنجلترا، كل هذا الترحيب كان لهدف واحد أن يرضى توماس أفندي كعب الغزال عن سياسة حكومتنا ويكف عن نقدها ويعترف بحكمة حكام سياستنا الرشيدة!!

المفاجأة أن لا هذا التكريم ولا تلك السرادقات الحكومية ولا الكرم الرسمي الحاتمي أقنع توماس بمدح حكومة وحكام مصر بل العكس تمامًا.

نفس الأمر ويا سبحان الله تكرر مؤخرًا مع السعودية التي دعت الأخ توماس إلى الرياض وفتحت له القصور وأجلسته مع الأمراء وتعشى وتغدى مع الكبراء ودخل مؤسساتهم الصحفية وطاح فيهم تعليمًا وإصلاحًا وتهذيبًا ثم عاد إلى نيويورك وعينك ما تشوف إلا النور، نقد وتقييم للسياسة والساسة السعوديين، والغريب العجيب المريب أن الحكام

العرب يترقبون كلمات الصحفي الأمريكي ويخشونه ويتوددون إليه بل ويحدد سياستهم ويملي خططهم ويعظ كبراءهم ويتمتع هو بحرية كاملة وتامة ومتممة معهم بينما الصحفي العربي الغلبان إما يكون منافقًا أو صامتًا أو ممنوعًا أو مسجونًا، وأحلم أنا شخصيًا بأن أملك ربع بل سدس بل ثمن بل تسع وموافق على عُشر (بضم العين) الحرية التي يتمتع بها توماس فريدمان في مواجهة ومغالبة ونقد وتقييم وتقويم الحكام العرب!

كلما قرأت حوارًا بين صحفي أمريكي وزعيم عربي تذكرت الحوار الذي أجراه ذات مرة صحفي كبير مع رئيس دولته وقال له قبل سؤال ظن أنه محرج "سيادة الرئيس اغفر لي إساءة الأدب" كأنما مواجهة الرئيس بسؤال حار أو حتى حاد، قلة أدب تستلزم الاعتذار، بينما عندما تقرأ أو تشاهد حوارًا أجراه صحفي أمريكي أو تليفزيون أجنبي مع أي زعيم عربي فإن صدر الزعيم ساعتها يكون مفتوحًا وصبره واسعًا أمام أسئلة تصل إلى حد الاستفسار عن حقيقة وراثة الأبناء أحيانًا واتهامات الفساد أحيانًا أخرى وهذا يعني ضمن ما يعنيه إلى جانب خوف وضعف رجالنا ومثقفينا عن

مواجهة حكامنا بالصراحة الواجبة والشجاعة الكافية فإن حكامنا لا يجدون أي فرصة للفرار من مواجهة الإعلام الغربي والجهات والهيئات الغربية والأمريكية تحديدًا، فيشعر الواحد وهو يتابع ذلك كله إلى جانب أن الوطن العربي خلا من الرجال، أن الحاكم العربي بات يحصل على مصداقية وجوده على عرشه وصك صلاحية بقائه في منصبه من المجتمع والإدارات الأمريكية والغربية وليست مجتمعاته المحلية العربية ومن ثم هو مطالب بكشف حساب أمام الأجانب وليس أمام شعبه بل أحيانًا كثيرة فإن الحوارات التي يجريها في الخارج تشهد رقابة وحذفًا من بطانة الحاكم في بلده لأن هناك ما لا يصبح أن يعرفه شعبه عنه أو عما يفعله أو عما يحرجه من أسئلة وما يتم مواجهته به من انتقادات!!

وقد عرف مواطنو جمهورية عربية متحدة خطط حاكمهم بخصوص ابنه من سؤال لصحيفة أسبانية وعرفوا كذلك أنه يفكر في أسماء خمسة لاختيار خليفة له من حوار مع صحيفة أمريكية وعرفوا مشاركة أجهزة بلادهم مع واشنطن في الحرب ضد أفغانستان من حوار مع مجلة أمريكية!!

من ناحية أخرى وبينما يعلن البعض إعجابهم بالحوار الذي أجراه زعيم عربي مع تليفزيون إسرائيلي حيث انتقد وهاجم سياسة قادتهم فإن الأمر الذي يثير الاهتمام حقًا هو سماح حكومة إسرائيل لمن ينتقدها ويهاجم سياستها بالظهور والكلام في تليفزيون حكومتها بينما في الوطن العربي طولاً وعرضًا لا يمكن أن تجد تليفزيون دولة يستطيع إذاعة حوار مع زعيم معارض ينتقد ويهاجم سياسة حكومته ودولته!! بل إن العرب جميعًا يركبهم ستون عفريتًا لو أذاعت قناة الجزيرة كلمة كده ولا كده عن رئيس أو زعيم دولة عربية!! إنه ازدواج شخصية مطلق وكامل أن الصحفي الأجنبي يناقش أفكار حكامنا ونحن لا نملك إلا الانبهار بها، إن التليفزيون الأجنبي يعارض وينتقد حكمة حاكمنا بينما نحن لا نملك إلا الشغف بها، كما أنه من حق حكامنا أن يعارض سياسة وساسة الزعماء الأجانب في تليفزيونات بلادهم بينما لا نملك نحن نقد سياسة حكامنا في تليفزيونات بلدنا! ولو نطق كاتب أو صحفي معارض في محطة عربية أو جريدة أو ندوة أجنبية فانتقد أو هاجم أو عارض سياسة حاكمه لجرسوه وحبسوه وأهانوه ومنعوه! كان الرئيس

السادات رحمه الله يغضب ويزعق إذا ما وصل إلى مسامعه ذلك الكلام الخشن الذي كانت المعارضة تردده ضده، وأيامها كان هناك معارضة حقيقية وكان هناك معارضون شـــجعان يقولون حقًا حتى لو كان خشنًا ويتحملـــون خشـــونة الـــثمن الواجب دفعه، عمومًا قال الرئيس السادات للمفكـــر الكبيـــر دكتور سعد الـــدين إبـــراهيم (كمـــا حكـــى لـــي د. ســـعد) إن المعارضة دي قليلة الأدب ولا تعرف تخاطـــب رئـــيس الجمهورية حيث يجب أن يلزموا حـــدودهم.. ثـــم ضـــرب السادات مثلاً بالقرآن الكريم في سورة طه، حـــين خاطـــب المولى عز وجل النبي موسى وأخاه آمـــرا ﴿ **اذْهَبَـــا إِلَـــى فِرْعَوْنَ إِنَّـهُ طَغَى * فَقُولا لَـهُ قَوْلاً لَيِّنًا لَعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَى** ﴾ (آية ٤٣ و٤٤) شايف يا سعد حتى ربنا قال لهـــم كلمـــوا فرعون بلين وبأدب.. ده فرعـــون برضـــه!! والغريـــب أن الرئيس السادات بينما كان يطلب الرفق واللين في مخاطبتـــه طبقًا للآية القرآنية فإنه اعترف طبقًا للآية نفسها أنه فرعون وأنه طغى.. ولعل الرئيس السادات كما روي عنه الراحـــل العظيم أحمد بهاء الدين (في كتابه محاوراتي مع الســـادات)، كان واضحًا مع نفسه تمامًا حين قال له: أنا (أي الســـادات)

وجمال (عبد الناصر) آخر الفراعنة، وأغلب الظـن عنـدي أن السادات هو آخر فرعون لا يـرى بأسًـا مـن إعـلان فرعنته.. لكن شجرة عائلة الفراعنة لا تتوقف عـن النمـو والولادة!!

هذه الأفكار ذهبت بي إلى تفسير القرآن الكريم ولسـورة طه حيث الآية الكريمة التي استشهد بها السادات لنفهم فعـلاً هل يأمر الله موسى ومن ثم عباده أجمعـين بـالقول اللـين للفرعون الطاغي!! خصوصًا أن الأرض المصـرية تعلـم أبناءها معاملة الحكام وخاصة الطغاة منهم على أنهـم آلهـة وفراعنة يجب أن نكون مهذبين مؤدبين أمامهم نركـع لهـم بالكلمات إن لم يكن الرأس والقامة، نسجد لهم نفاقًا بالمـدح والتقديس إن لم يكن بانحناء الرأس وغمسها فـي التـراب، نتلمس عند حكامنا وخاصة الطغاة الحكمة والوحي!

يقول الإمام القرطبي في تفسيره أن القول اللين يوجه "لمن معه القوة وضمنت له العصمة" أو "إذا كان الكـافر وجيهًـا ذا شرف وطمع بإسلامه وقد يجوز ذلـك وإن لـم يطمـع بإسلامه" وقيل "إن القول اللين قول موسى يا فرعـون أنـا رسول ربك فأسماه بهذا الاسم (فرعون) لأنه أحب إليه ممـا

سواه) وفي ظني (أنا) أن القول اللين لفرعون مرده أن وراء فرعون شعبًا هم المصريون ينقادون إليه ويطيعون أمره ويعبدون اسمه فإن أسلم فرعون أسلموا جميعًا ومن ثم كسب موسى بقوله اللين شعبًا وأمة (وهو ما لم يحدث) ومع ذلك فإن موسى وهارون أجابا أمر الله تعالى بقولهما: ﴿ **قَالا رَبَّنَا إِنَّنَا نَخَافُ أَن يَفْرُطَ عَلَيْنَا أَوْ أَن يَطْغَى** ﴾ معنى هذا الرد أنهما كانا يعلمان أن فرعون لا ينفع معه قول لين ولا خشن بل ربما يفرط أن يعجل ويعتدي ويبادر بعقوبتهم وقد ثبت بآيات الله المعجزات أنه لا ينفع مع فرعون إلا الغرق!!

هل نكره أمريكا وإسرائيل!

انتشر هذه الأيام بين المثقفين فن احتقار الجماهير وأغلب الظن أنها ظاهرة ممتدة في جذور السادة الكُتاب (بمن فيهم وربما أولهم اليساريون الذين يحتكرون من زمن طويل التعبير عن الجماهير) فكلما فتحت جريدة تقرأ لواحد من عتاة إجرام الكتابة في الوطن كلامًا من نوع أن المظاهرات التي تخرج احتجاجًا على ضرب أفغانستان متخلفة أو تصدر عن جماهير مضحوك عليها؛ وفي كتابات أخرى ترى بعضهم يؤكدون على بيانات بن لادن تلعب على عواطف الجماهير أو أنها تستهوي البسطاء؛ ولا يتورع آخرون عن وصف مظاهرات التعاطف أو الاحتجاج أنها مظاهرات دهماء؛ وتأمل معي تلك المنظومة التي تخرج لتعلن أن الناس مضحوك عليها وأن الرأي العام أهبل والمتظاهرون والمحتجون تحركهم العواطف! إن السائد هو التعالي على مشاعر (لا أقول حتى أنها أفكار الناس) والبرود الخالص حين يصف كل من له وجهة نظر مغايرة لكلام سعادة البيه أنه دهماء وكذلك ملاصقة تعبير عواطف لكلمة بسطاء؛ أي أن البسطاء لا يملكون أفكارًا لأن الأفكار عند البكوات المثقفين قوى الذين يجلسون على المكاتب: أما البسطاء

فيملكون عواطف فقط توديهم وتجيبهم؛ ثم أن الذي لا يمشي على هوى البكوات المعقدين (عكس بسطاء معقد أو مركب) فهو دهماء طبعًا وأنت تروح فين يا صعلوك جنب الملــوك (رغم أن كثيرًا من الكتاب الممتعضين من الجمــاهير هــم أساسًا صــعاليك ولاد بــوابين ودهمــاء) وعنــدما تمعــن في منطوق وكتابات هؤلاء تدرك تمامًا لمــاذا تراجــع دور المثقف في بلادنا؛ لماذا لم يعد قادرًا على التأثير في النـــاس في السياسة أو الصحافة أو الجامعة أو الأحزاب أو المصانع وتهمش وانكمش وترك مســاحة التــأثير للوعــاظ ودعــاة التطرف؟ لماذا صارت قصيدة النثــر هــي الســائدة فهــي مفصولة ومنقطعة تمامًا عن القارئ حيث شعار كتاب قصيدة النثر طظ في القــارئ؛ لمــاذا انهــار وتضــاءل اليســار والليبراليون الذين يدافعون عن حرية إهانة مشــاعر النــاس في الروايات أو القصائد، وكيف انحدر توزيع الكتب وفرغت الندوات والأمسيات من جمهورها؛ وتقوقعــت المــؤتمرات في عدد حضور محدود تافه؛ وهجر الناس المثقفين وكلامهم وأفكارهم؛ وانسحب أي تأثير على الشارع وانعدم أي تنــوير واغتراب المثقف وزهد القارئ وألقــت الجمــاهير نفســها

في حضن الحكومة أو التيار الديني أو حتى الجماعات المتطرفة.

لم يقل أحد أن الجماهير أو الأغلبية على حق دائمًا ولا يتصور أحد أن الناس متساوون في الثقافة السياسية كأسنان المشط؛ لكن ذلك لا يعني أبدًا الترفع والتعالي والانفصال عن الناس إذا اختلفت وجهة نظر مثقف ما مع الجماهير، ولا يمكن أن تكون مشاعر ورؤية المثقف تجاه شعبه ووطنه على هذا النحو الغارق نفي السفالة النفسية وإذا كان المثقف رأيه أن هؤلاء أغبياء أو معتوهون لمجرد اختلافهم مع هواه ورأيه ومصلحته فلمن يتوجه إذن هذا المثقف أغلب الظن أنه يتوجه لحكومته (قرأنا وسمعنا البعض يحرض الحكومة على الناس بمبدأ "وكمان ساكته ليهم" ثم هناك عشرات ممن يأخذون على الدولة سكوتها على بعض التيارات السياسية) أو أن ذلك المثقف يتوجه إلى خارج محيطه النفسي والجماهيري مثلاً في أزمة أفغانستان الأخيرة الكلام منصب على أن يسمعه أو يقرأه الملحق الثقافي أو الإعلامي للسفارة الأمريكية؛ وربما لا أجد بأسًا من نفور البعض من الرأي العام أو الجماهير (وهو امتداد واضح

للنفور من الدين والعروبة معًا) إلا أن أنفاس الاحتقار التي تفوح من كتاباتهم هي التي تؤرق المرء وتجعله حزينًا على طلاب كلية الطلب أو الهندسة والحقوق مثلاً حين يتظاهرون في الجماعات فيقولون عنهم غوغاء ودهماء ومضحوك عليهم؛ طبعًا إذا تظاهرا هؤلاء دفاعًا عن أمريكا أو رواية مسيئة للإسلام كانوا سيصبحون ضمير الوطن عند هؤلاء المتثاقفين (على وزن المتأسلمين)!

ولم تتوقف المهازل الفكرية عند احتقار الرأي العام فقط بل زاد الطين وحلاً أن فئة من المثقفين إياهم أعطت لنفسها الحق في الغضب من محطة تليفزيونية (الجزيرة) لأنها (شوف السبب!) تعرض وجهة نظر عدو أمريكا بن لادن! ويرون أن الجزيرة تسلم الشارع لأسامة بن لادن (شارع إيه ده اللي تسلمه قناة تليفزيونية لشخص أو فكرة) ويطالبون ببجاحة مذهلة منع الرأي الآخر المناقض لرأيهم وأفكارهم وحلفائهم من الظهور ومن إطلاع الناس عليه؛ ها هم يحددون للناس ما يجب أن يقرأوه ويعرفوه ويشاهدوه؛ هؤلاء الذين كذبوا علينا بكلامهم عن حرية الرأي والتعبير طلعوا في الآخر يدافعون عن حرية رأيهم لا الرأي وعن تعبيرهم

لا التعبير، الديمقراطية مقبولة لو أتاحت لهم التعبير ومرفوضة لو أباحت لغيرهم نفس الحق لذلك هم لا يريدون لجريدة تعبر عن التيار الديني أن تظهر وتصدر (أو بالأحرى تعود) ولا يقبلون أن يظهر مفكر إخواني في تليفزيون ولا يتحملون أن يسمع الناس واعظًا في خيمة رمضانية ولا يريدون أن تفتح قناة الجزيرة بابا الإذاعة لآراء وبيان بن لادن! ولا يطيقون أن ينجح تيار سلفي في البرلمان: وهو نفس الأمر الذي جرى في الجزائر بمجرد ما اختار الناس التيار الديني في انتخابات حرة نزيهة دمروا الديمقراطية لأن الناس اختارت ما لا يريده هؤلاء وأصبح شرط الديمقراطية أن تأتي بتيار على هوانا؛ ويتكرر الفعل ذاته في تركيا إذا صعد للحكم عبر اقتراع حر نزيه التيار الإسلامي هناك يتم إلغاء الأحزاب المتشحة بالإسلام لأن اللي أوله شرط آخر نور؛ ديمقراطية لينا إنما للأعادي لأ؛ ونفس الأحكام المقيتة تظهر عندما يختار أعضاء نقابة مهنية ممثلين لهم من تيار يخالف جموع المثقفين (على وزن المتأسلمين!) نتكلم فورًا عن الغوغاء الذين اختاروا هؤلاء ونشجع الحكومة على قفل النقابة من بابها أحسن من أن يستولي

عليها أناس ليسوا على هوانا الفكري والنفسي؛ ويرحب المتثاقفون للغاية بحرية إبداع ونشر رواية فيها ما فيها مما قد يسيء ويهين مشاعر الناس لكنهم يرفضون بإباء وشمم نشر الكتب التي تدعو لأفكار متطرفة من وجهة نظرهم ولقد سمعنا كثيرًا تعبير أين الأزهر من الفريقين البعض يطلب من الأزهر التدخل لمنع تلك الأفكار والكتب المتطرفة من النزول إلى الأسواق والبعض يصرخ الصرخة نفسها على الأزهر كي يتصدى لكتب المجون والكارهة للإسلام!

بطبيعة الحال لا يجب أن يدعي أحدنا أنه يمثل الجماهير لكن أيضًا من المستحيل منع الجماهير من التعبير عن نفسها أو الاستهانة والاستهتار بأفكار وآراء ومشاعر الناس كما لا يمكن الوقوف أمام حق الناس في المعرفة والإطلاع على كل الأفكار بعلانية كاملة:

لقد كنا نعلن دائمًا تخوفنا من أن التيار الديني ينظر إلى الديمقراطية بروح الشك والريبة وأن رأيه أن الشريعة هي (لا الأمة) مصدر السلطات وأنه بمجرد ما يصلوا إلى الحكم فإنهم سوف يحرمون الجميع من حق التعبير والرأي وأن الديمقراطية عندهم دار ممر إلى دار مقر حيث لن يدعوا

الديمقراطية تستمر وإنما سيقطعون شجرة الديمقراطية بمجرد قطفهم ثمارها لكن ما يجري الآن من الإخوة مدعي يسار على ليبرالية (فخفخينا!) من احتقارهم للأغلبية وللناس وللجماهير ورغبتهم في حرمانهم من حق المعرفة والتعددية والاختلاف يجعلني أتصور أنه أنيل وأمر سبيل من التيار الديني فعلى الأقل كنا نأخذ حذرنا من المتأسلمين فإذا بالمتثاقفين غير مؤمنين حقًا بالديمقراطية بل هم غير مؤمنين بمجتمعهم وبجمهورهم.

المسألة أسهل من أن نعقدها، إما أن يكون هؤلاء المثقفون على قدر من الاحترام للرأي العام وجماهير وطنهم برغبة عميقة في تنوير الناس أو تغيير أفكار المجتمع من خلال تقدير واحترام مشاعر الناس وآرائهم؛ الأنبياء أنفسهم وليس بضعة كُتاب نصفهم معقدون أو مخمورون خاطبوا شعوبهم دون اتهام بالتخلف أو القصور ودون تريقة عليهم أو استهزاء بعواطفهم؛ لا أفهم كيف لمثقف يحترم نفسه يكره أمته وشعبه وهويته بهذا الشكل المقيت وما هذا التعالي المريض (والإحساس الذي يستوجب جلسات علاج نفسي فورًا) بأنهم مرسلون من لدن خبير عليم كي يهدوا المتخلفين

والغوغاء من أبناء شعوبهم؛ ورغم أن هؤلاء من أساتذة كراهية التطرف الديني إلا أنهم يمارسون نفس المرض الذي يتلبس المتطرفين بالادعاء أن المجتمع كافر (وفي حالتهم جاهل ومتخلف ورضيع) ورغم أن بعضهم يكرهون الكاتب علي سالم داعية التطبيع مع العدو الإسرائيلي في مصر إلا أنهم يتشابهون تمامًا معه حين يعتقد أنه داعية ومرسل وأنه يلقى من المتخلفين ما لقيه السابقون الأولون من الحواريين والصحابة! من حق أي كاتب في الدنيا أن يختلف مع شعبه وجمهوره ويرفض ما يعتقده مجتمعه جملة وتفصيلاً (وربما يكون ذلك من واجبه أحيانًا) لكن الجريمة الأكيدة التي يرتكبها الكاتب والمثقف هي كراهية مجتمعه وناسه والتعالي عليهم واتهامهم بالتخلف وإهانتهم بالقول تجريحهم بالفعل وهي تلك الجريمة التي أقرأها وأسمعها من كُتاب الآن بعضهم يستحق الاحترام والمناقشة والبعض الآخر يستحق المستنقع الذي نراه منغمسًا فيه تمامًا!

حين خرج آلاف التلاميذ من مدارس في قرى ومدن مصر رفضًا لإسرائيل وتضامنًا مع الشعب الفلسطيني العظيم؛ لم يكن هؤلاء الأطفال يقرأون مقالات ناس في

الجرائد ولا حتى يشاهدون نشرات القناة الأولى بتاعة السيد محمد الوكيل (وكيله ربنا يمشي ويريحنا!) وبطبيعة الحال لم يكن أحد من هؤلاء الأطفال يشاهد قناة الجزيرة (من المؤكد أن المذيع جميل عازر ديناصور من وجهة نظر الأطفال!) يعني ذلك بوضوح أن فطرة الناس وبراءتهم وصدقهم أكبر مما نقول ونكتب؛ الناس ضد الظلم والاستعمار والاستبداد؛ كراهية السياسة الأمريكية والتعاطف مع بن لادن في كهفه ليست في حاجة لقراءة صحف إسلامية أو مشاهدة قناة الجزيرة؛ مما يجعلني أتمنى كثيرًا أن يحتفظ الناس بصدقهم وبفطرتهم ويتوقفون عن قراءة الصحف ومشاهدة نشرة تسعة!

جواز عتريس من فؤادة باطل!

لو كان كل الطغاة في الحياة العربية مثل عتريس لكانت الحياة أجمل كثيرًا مما نعتقد؟ وعتريس هو أشهر طغاة السينما العربية إنه بطل فيلم "شيء من الخوف" الذي عاث في الأرض فسادًا ساعتين إلا ربعًا كرهه فيها الناس وفرحوا شمتوا به قطعًا حين رأوا أبناء وطنه (قريته الدهاشنة) يثورون عليه ويحرقونه بالنار تحت شعار يرج الفيلم رجًا "جواز عتريس من فؤاده باطل" وقد غفر شعب الدهاشنة لعتريس القتل وسفك الدماء والفساد والسرقة ونهب الثروات ولم يغفروا له "جوازه"!! لكن الطاغية عتريس كان من وجهة نظري طول الأحداث ضعيفًا هشًا وعلى رغم كل ما بذله حسين كمال مخرج الفيلم وعبد الرحمن الأبنودي وبليغ حمدي من مجازر موسيقية ومذابح غنائية فالرجل لا يمثل عشرة في المائة من الطغيان الحق الذين نراه في واقعنا العربي فبالله عليك هل هناك طاغية (إلا إذا كان طاغية عرة خائبًا يتنصل منه زملاؤه الطغاة) لا يستطيع أن يلمس امرأة يحبها ويعشقها ويهيم بها حبًا لمجرد أنها قالت له أنا رفضت أن أتزوجك ولا أريد ولن تنالني بخاطري؟ يا سلام من هو ذلك الطاغية الرقيق القلب حتى الهشاشة الذي لا يريد امرأة

إلا برغبتها وحبها (هناك شك أن عتريس كان عنيفًا) فلا يوجد طاغية أبدًا تهز شعرة من رأسه مشاعر حريمه (الرجال العرب الطبيعيون لا يهزهم هذا أساسًا فما بالك بالطغاة) بل عتريس الطاغية في فيلم "شيء من الخوف" تسبل عيونه وترتعش ساقاه حين تزغر له شادية إذا فكر أن يقبلها وهي رقة ورفعة نفس وشفافية روح من المستحيل أن تتوفر في قاتل وسفاح إلا إذا كان طاغية سينمائيًا يتحرك بأمر المؤلف وليس بمقتضى الواقع الحقيقي! وإذا تأملنا تاريخ الطغيان العربي السياسي فمن المعجزة أن تحصل على طاغية عمولة كما نراه في "شيء من الخوف" فمن هو الطاغية الذي يعكر صفو حياته مجرد شيخ صمت زمنًا أمام طغيانه وجرائمه ثم أخذ يردد أن زواج عتريس من فؤاده باطل وإيه يعني! لو كان عتريس (محمود مرسي العملاق) طاغية حقيقيًا لا طاغية سينمائية لقال ببساطة إيه يعني باطل.. باطل يا سلام وهل كل ما يفعله حلال وجاءت على الزيجة لتصبح يا حرام باطلاً! ثم هذا الشيخ المعارض البليغ الذي عاش عمره تحت حكم وطغيان عتريس لكنه لم يتمرد أو يرفض أو يلقي الخطب والمقالات ضد سياسة عتريس

التي تقتل وتنهب وتسفك وتذل وعاش رأسه في الطين مثــل غيره ولم يفق يا أخواتي عليه إلا على حكاية الجوازة كــأن كل الطغيان السابق شرعي وحلال، كأن ما يمس قوت وروح وكرامة المواطن ليس حرامًا! لكن عتــريس كــان طاغيــة سينمائية تهزه مثل هذه الخطب التي يلقيها خطيب أو يرددها مواطنون على مصاطب!

فتوجس وتربص وابتز في قريته الدهاشــنة؛ كمــا تــراه طاغية بلا حبيب أو صاحب أو حليف واحد في البلد وهذا ينم تمامًا عن أنه طاغية جاهل بالطغيــان ويســتحق أن يكــون طاغية سينمائيًا فقط؛ فالطاغية كما نراه ونعرفه في أوطاننــا يحرص على الأصدقاء والحلفاء فمثلاً كان على عتــريس أن يدفع أموالاً يشارك بها تجار القرية قروضًا علــى البحــري حتى يكسب ودهم ومصلحتهم وكانوا ساعتها يعلقون صوره في المحال والدكاكين يدافعون عنه ضد الفقراء التافهين وكان يمكن أن يغرق عتريس شيخين أو ثلاثة من أســاتذة القريــة وشيوخها بالمال أو الهدايا أو الحمايــة أو المناصــب حتــى يهتفوا بحياته في المدارس ويلهجوا بالدعاء له في المســاجد، ولو كان يفهم في الطغيان حقًا لمنح عمالاً زراعيين أجــورًا

عالية في مقابل حرث حقوله حتى يشكروا نعمتــه ويســكتوا على طغيانه بل ويدعوا الله أن يزيدهم طغيانًا من خيره قادر يا كريم؛ لو كان طاغية حقًا لاتفق مع زعماء البندر المجاور على معاهدة صداقة أو تحالف مشترك أوترك لهم كذا قاعدة في حدود البلد يضعون فيها جنود المركز وعساكره ووفــر لهم من قوت الغلابة المال والطعام فيضمن لو ارتفعت ضده المشاعل أن يجري أصدقاؤه وحلفاؤه لحمايته والــدفاع عــن عرشه وحكمه!! لكن الطاغية السينمائي يتبرأ (ويستبرئ) منه الطغاة حقًا، وإذا كان المؤلفون (ثروت أباظة ومحفوظ عبــد الرحمن وعبد الرحمن الأبنودي) حرصوا على تقــديم قلــب عتريس الرهيف من أول الأحداث حيث لا يســتجيب لجــده الطاغية الكبير حين يأمره بقتل حمامة ويبكي ألمًــا وفراقًــا على ذبحها لم يقولوا لنا ماذا يفعل قلب عتريس الرهيف حين كان يذبح أمامه عجل بالنبل والحجر صاروا طغاة وقتلة؟ إن هذا يشبه تمامًا محاولة إظهار الطاغية شخصًا طيبًا وطاهرًا في داخله وطفولته وأن المشكلة فقــط فــي المحيطــين بــه والملتفين حوله! لا علاقة للحمــام ولا للحمامــة بالطغيــان والاستعداد له، الطغيان ظروف موضوعية وذاتية، شــخص

الحاكم زائد كوب شعب نائم مع معلقتين من المثقفين الجبناء والتافهين تنتهي هذه المقادير بطاغية.

عتريس وشعبه التعيس! أما أنه كان يحب فؤاده. فمن الصعب طبعًا ألا يحب أحد شادية إذا وجدها مصادفة فماذا لو كانت بطلة أمامه لكن الحب لم يكن أبدًا دليلاً على طيبة الولد أو رهافة الرجال بل إن طغاة العالم كلهم كانت لهم معشوقات وعشيقات هاموا حبًا وغرامًا بهن ولم يهز هذا حجرًا في طغيانهم؛ فمن هو المجنون الذي أوهم المشاهدين في مشارق الأرض ومغاربها أن الحب نقيض الطغيان؛ إن صور الطغاة يداعبون الأطفال أو مع أحفادهم أو تلاميذ المدارس لا تنجح في إقناع أحد بحب الطاغية أو التعاطف معه؛ وأغلب الظن أن عتريس لو كان أقنع فؤاده بأنها ستكون جلالة الملكة أو سيدة القصر لكانت قد اقتنعت أو وأراحت واستراحت! عمومًا يتمنى الجميع في كل قرية أن تخرج فؤاده لتفتح الهاويس بينما نتفرج نحن الشعب عليها دون أن نفكر أن فؤاده تظهر في الأفلام فقط وأن الواقع اليومي الذي نعيشه في العالم العربي يؤكد أن فؤاده لو فكرت وحدها في فتح الهاويس فلن تجد عتريس الذي يريد أن

يتزوجها بل سيتزوجها بعون الله عزرائيل بنفسه! لكن الغريب أن يجلس شعب الدهاشنة في انتظار فؤاده ويجلس الشيخ المثقف إبراهيم في انتظار زواج عتريس الباطل دون أن يفعلوا شيئًا أو يحسوا على دمهم.. طيب افرض مثلاً يعني أن فؤاده كان جاء لها دور برد ونزلة شعبية حادة أو أن عتريس لم يفكر في الزواج من فؤاده وربنا أكرمه بناهد شريف كان الفيلم استمر حتى الآن... يا بلد "الدهاشنة" تخاف متختشيش!!

لو كنت مكان عتريس في فيلم شيء من الخوف لكنت طاغية أقوى كثيرًا وأخلد أيامًا وأسعد حالاً خصوصًا أن الله رزقني بقرية مدهوشة متفرجة ساكتة صامتة فهؤلاء وحدهم الذين يصنعون الطغاة؛ ويا ليت عتريس كان يحكم الوطن العربي فهو يوم المنى الذي يحكمنا فيه طاغية سينمائي لا يهتم بخلوده على العرش بقدر ما هو مهموم بالتصعيد الدرامي ونهاية الفيلم السعيدة.

وطن في قطار

لم يكن آلاف الصعايدة وحدهم هم الذين يركبــون قطــار النار رقم ٣٨٢ المتجه إلى الصعيد قبيل عيد الأضحى ولــم يكن ٤٠٠ من الموتى حرقًا هم فقط موتى هذا القطار بل كنا جميعًا فيه مواطني الصعيد الصــامت والبحــري الســاكت، مواطني الجنوب الخانع والشمال الخاضع، كنا نحن جميعًــا نجلس في هذا القطار وننتظر الحرق..

نجلس مزدحمين تمامًا نلتصق ببعض مثل قطــط مبلولــة ومذعورة، نتكدس على المقاعد والبرد يأكلنا والفقر يحشــرنا في بعض، نتصارع على جزء من الكرسي على مسافة مــن الهواء نقف فيها أو نتنفس منها، الأحذية تتدلى من الجالسين فوق رقابنا والنوافذ تحتشد بقضبان كأننا في سجن ولا مكان للدفء والكمساري يضربنا والبلطجيــة يبتزوننــا والزحــام يخنقنا والروائح الكريهة تمتص رئتنا والظلام حالك والأبواب مغلقة ومبرشمة وبلا مقابض فلا مكان للهرب أو الفــرار أو النزول والطلوع، ونحن مستسلمون تمامًــا، أهانتنــا الدولــة وأذلتنا الحكمة وأخافتنا الشرطة وخرقت القطارات الفــاخرة للأغنياء والسياح آذاننا تعبــر قطارنــا وتتجاهــل وقوفنــا وانتظارنا للأغنياء كي يعبروا قبلنا أو فوقنا.

نحن كلنا مواطنو الدرجة الثالثة، نحن الشعب المصري في قطار، نجلس ونقف وننام ونتكدس ونتزاحم في منتهى الإهانة والمهانة ويأكل الآخرون خيرنا، نجلس مستسلمين ومسالمين وكل من يعبر يضربنا على قفانا ويغتصب ثروتنا وحقوقنا وحريتنا ويمضي حاكمًا متحكمًا وقائدًا وقامعًا، ننام في غفوة أو غفلة والحكومة تتحول إلى أداة في يد الأغنياء يبنون لهم الشاليهات والفيلات في الساحل الشمالي بالمليارات ويشقون لهم الطرق المختصرة السريعة ويفتحون لهم البنية الأساسية من فيلات وقرى سياحية في شرم الشيخ والغردقة ويبنون لهم المحاور والجسور والمطارات وعربات النوم في القطارات ويبخلون علينا بقطارات لها نوافذ وأبواب ومقاعد، يقترضون لنسدد نحن الديون، يسرقون لندفع نحن ثمن نهبهم لمصر، يفسدون الاقتصاد لنسمع نحن دروسهم في الإصلاح الاقتصادي، يشهرون في وجوهنا أسلحة الأمن المركزي وقانون الطوارئ والأحكام العسكرية ومنع الأحزاب والمظاهرات والصحف ويقولون لنا إنه لم تغلق جريدة ولم يقصف قلم ولم يتعطل قطار! ونحن نجلس على مقاعد القطار نتخانق على خازوق لنجلس عليه ننتظر خرقة بطانية

لنستدفئ بها نرتجف من قسوة المخبرين ومن ترويع البلطجية ونحتضن أولادنا حتى تمر الساعات والأيام ونروح ونعود إلى قرانا وبيوتنا في أمان لا لنا ولا علينا نتسلم المرتب أو الرشوة الصغيرة ونتخاطف الرزق أو نتصارع عليه وننظر في استسلام وانكسار لقطارات الأغنياء وقوانين الأغنياء وبرلمان الأغنياء وسطوة الحكومة وبطش الشرطة ونهب اللصوص وأحذية الساسة التي تدوس على رؤوسنا وتحني ظهرنا ونقول لأنفسنا يا سيدي أيام وتعدي وهو أحنا قدهم ولا دي بلدنا أساسًا، خلينا كافيين خيرنا شرنا ماشيين جنب الحيط واللي يركب البلد يركبنا زي ما هو عايز، بس نلاقي نصف متر نجلس أو نقف عليه في هذه الحياة ونعرف نخطف لقمة ولا نرص كرسي دخان ولا نشرب كوبانية شاي أو نلحق نربي العيال ونرجع بلدنا وننام في بيتنا نحمد ربنا على السلامة، كله قطر وإحنا ح نعمل إيه قاعدين أو واقفين لغاية ما القطر يصل المحطة بس نوصل.. نحن لا نقدر نغير القطار ولا نستطيع طرد سائق القطار ولا رفض وتغيير الكمسارية ولا نقوى على تجديد القطار ولا نملك المطالبة بتغيير النوافذ ولم نتعلم أن نحتج أو أن نصرخ من الاختناق

ومن الزحمة ولا نقدر على فتح الأبواب المغلقة أو الإصرار على حقنا في فتح ما هو مغلق في وجوهنا سواء نوافذ مكاتب السادة المسئولين أو نوافذ سيارات السادة الكبراء ذات الزجاج البني ولا نوافذ عربات السجن التي تحمل شباب المظاهرات والسياسة، ولا نعرف ولا نفهم أننا مواطنون لنا أصلاً حقوق ولنا أن نطالب بها ولنا أن نلعن ونزيح ونركل ونضرب بالشلوت الذي يمنعنا أن نفتح النوافذ أو من يغلقها أمام عيوننا أو وجوهنا ووجوه أولادنا ولا نقوى على ضرب من يصنع حذاءه على رؤوسنا ولم نتمكن في يوم من الأيام أبدًا من تعديل مسار القطار ولا تحديد محطاته، ولا ندرك أن من حقنا أن تكون عربات القطار مضاءة، نحن نجلس مطرح ما قالوا لنا وننتظر في صبر وطيبة واستسلام ورضا وخنوع وخضوع أن نذهب إلى بيتنا وأن يصل القطار إلى محطته.. ولكن القطار لن يصل إلى محطته أبدًا.. ونحن في جلستنا مشلولين ومهزومين لن يصل لنا إلا الحريق.. ننتظر أو نستحق الحرق.. النار سوف تشتعل في القطار وستحترق أجسادنا ونتفحم ونذوي ونتبخر ولن يعرف أحد معالم جثثنا ولا يوجد ما يدل على أسمائنا وهويتنا وسنموت أسوأ وأشنع

موته وسنرى نار جهنم أحياء وسنتلظى بشواء من نار الحريق لأننا لم نفعل شيئًا أبدًا إلا الاستسلام والخنوع الخضوع للسارقين لنا والنهابين لثروة وطننا والخاطفين الرزق من أفواهنا.

ولم نفعل سوى الانغماس في الضعة والمهانة والفرجة على المستغلين لشعبنا والفاسدين المفسدين في أرضنا والعملاء الذين يبيعون مقدرات شعوبهم ومقادير أمتهم بالبخس الرخيص، لم نفعل سوى الإمعان في الذل أمام المستبدين والطغاة ومماليك كل زمن، نبول على أنفسنا أمام سلطة مخبر ونموت في جلدنا فزعًا أمام سلطة حاكم أو ضابط وننافق جلادينا ونركع لهم ونبوس أحذية لصوص قوتنا. وكل هؤلاء يركبون قطارات الثروة والسلطة والنفوذ والحكم والملك ويعبرون أمامنا وفوقنا بأحذية الرفاهية والترف وحقائب المال وزكائب الدراهم وسبائك الذهب ونحن نتفرج ونستسلم ونسكت ونجلس في قطار الفقر والمهانة والذل ننتظر فقط حلم النزول من القطار.. لكننا ولهذا كله لا ننزل أبدًا بل نجلس دومًا. ولفرط تجاهل واحتقار رجالات السلطة والساسة والمال والحكم لنا ينسون أننا نركب معهم

في هذا الطريق.. ينسون أننا نمشي وراء قطــاراهم الغنـــي الفاخر الحاكم السريع بقطار آخر صحيح أنه فقير مدقع فـــي الفقر، صحيح أنه بطيء ومعذب، صحيح أنه مهين ومـــذل، صحيح أنه بارد ومعتم، صحيح جـــدًا أنـــه مجـــرد قفـــص حيوانات، صحيح للغاية أنه سجن، صحيح ومؤكد أنـــه قبـــر ومقبرة.. لكننا فيه وراءهم على نفس القضبان ومـــع ذلـــك نسونا تمامًا لدرجة أن القطار ولع وإلى حـــد أننـــا احترقنـــا ولدرجة أننا تفحمنا ثم لا أحد تعرَّف على جثة هذا الوطن في القطار!

قطاع الأعمال... بالنيات!

سين سؤال: ليه وزير التعليم أصله طبيب أطفال؟

جيم جواب: علشان بيستعيلوا الشعب.

وخذ عندك:

ليه وزير البحث العلمي أستاذ قانون؟

علشان رده بحث جنائي مش بحث علمي.

- ليه اختاروا رئيس الوزراء لما كان وزير قطاع الأعمال؟

علشان كان وزير قطاع الأعمال.. بالنيات.

- ليه دكتور سرور رئيس مجلس الشعب مصمم على أن المجلس سيد قراره؟

غريبة مع أنه نائب السيدة.

- ليه اختاروا مدير البنك المركزي اسمه محمود أبو العيون؟

علشان يبقى عنده نظر.

- ليه بندور على إمام عادل.

علشان منعندناش غير عادل إمام.

- ليه عملوا في الحكومة وزارة للبيئة؟

علشان ريحة الحكومة وحشة.

- إيه الفرق بين المجلس الأعلى للشرطة والمجلس الأعلى للثقافة؟

إنه مجلس الشرطة فيه لواءات منهم كتير مش مثقفين، ومجلس الثقافة فيه مثقفين منهم كتير لواءات.

- إيه أحسن حكومة حكمتنا حكومة عاطف صدقي ولا كمال الجنزوري ولا عاطف عبيد؟

حكومة عاطف الجنزوري.

- طيب إيه الفرق بين لعب الطاولة ولعب الشطرنج في عالم السياسة؟

لا.. هذا سؤال كبير أحب أجيب عنه براحتي، فخذ عندك يا سيدي..

الشطرنج يعني دقة وخطة وهدوء وتفكير وتروي وعمق ووعي وإدراك ودراسة وخطوات مدروسة ومحسوبة، الطاولة فهلوة وشطارة وقرص زهر وتصييح وزعيق وخدوهم بالصوت واللعب على المشاريب واللي بيعلي صوته يكسب وأي حد معدي يفتي ويلعب، تفتكروا نحن الساسة في السياسة المصرية والعربية بنلعب طاولة ولا شطرنج، الإجابة ليست في حاجة إلى نبيه مثلك فاتركها لغيرك وتعال

نفتح شباكًا على رؤساء وزراء مصر المحروسة (أمال لو لم تكن محروسة كان حصل فيها إيه؟)!

عمومًا كان رئيس الوزراء الأسبق دكتور عاطف صدقي لعيب طاولة جامد جدًا وكان نقاده ومعارضوه دائمًا يقولون أنه اختار وزراءه من زملائه في لعب الطاولة، ومن ثم بعضهم كان شيش بيش..

أنا عن نفسي لا أعرف دكتور عاطف عبيد بيحب يلعب إيه لكن احتمال حكومته كلها بتلعب كوتشينة لأنهم قاعدين يقشوا، لكن من المؤكد أنه بيلعب دومينو علشان بيقفلها أهوه!! (أظنك شايف بنفسك)!

عمومًا هذا يفكرني بوزير أمريكي قابل وزيرًا عربيًا فقال له الوزير الأمريكي: إن ابنتي الكبيرة تلعب تنس أما ابني الصغير فيلعب جولف.. غار منه المسئول العربي فرد عليه بفخر واعتزاز وكبرياء العربي (بالموسكي!):

وأنا أيضًا ابنتي الكبيرة بتلعب في كذا مليار وابني الصغير بيلعب في السياسة..

أخيرًا أنا متصور أن رئيس الوزراء المصري القادم (هذا لو فيه رئيس وزراء قادم أو كنا لا زلنا نحيا في هذا الموات

السياسي الرابض النابض!) لازم يكون رئيس الوزراء لاعب تجديف، عارفين طبعًا رياضة التجديف، وعارفين ليه رئيس الوزراء لازم يلعب تجديف.. طبعًا عشان البلد بيغرق!

البلد يغرق لأنه كلما زاد الفساد كما نرى زاد النفاق تمامًا كما نشهد، عندما تقرأ لكاتب حكومي وهو يرفع بعض القائمين على الأمر في البلد لدرجة الأنبياء والملائكة يكتب فيه كلامًا لم يكتبه حسان بن ثابت شاعر الرسول في النبي نفسه صلوات الله عليه وسلامه تعرف فورًا أن هذا الكائن الكاتب يداري فساده ويحمي سرقته وبلاويه، لعلك تتذكر المحافظ الذي يمضي الآن سنوات سجنه وكيف كان يتكلم ويتنفس بكمية النفاق المريع اللي كان بيدلدقه قصاد كبار القوم، كان فسادًا وفاسدًا يداري الفساد بالنفاق وأول ما الوزير يهرينا طبقًا لتوجيهات وتعليمات تعرف أنه عامل سبوبة وصفقة بيداري عليها بالنفاق والمداهنة والتذلل.

والآن تلاقي الهجوم كثيفًا على مديري البنوك الذين قدموا قروضًا من غير ضمانات... طيب وأين كنتم لما المديرون كانوا يتلقون تليفونات علشان فلان وعلان وكنتوا فين في المائة مليون الأولى والثانية والتالتة سكتوا ليه للعاشرة

والخمستاشر أم أنه من حضر القسمة فليقتسم، البعض يدعي الآن أنه يحارب الفساد وهم أول من عملوه ودعموه وأنه نما وترعرع وزعزع وبعبع في خيرهم وعزهم.

إنها نكتة تشبه النكتة بتاعة تلاتة مجانين سرقوا وقعدوا يعدوا الفلوس اللي سرقوها وكل شوية يتلخبطوا فقال أعقلهم طيب يا جماعة إحنا نستنى للصبح ونقرا الجرايد عشان نعرف سرقنا كام!

حتى اللي سرقوا مش عارفين سرقوا كام!

قداسة الأميرة

هذه عادتنا ولنعرف أننا لم نشتريها من أحد بل ورثنا عن جدودنا آبائنا، أن نلعن الحجاج وننسى عبد الملك بن مروان، أن نكره الحجاج ونهاجمه وندعو عليه، ونغفل ونتجاهل ونصهين على عبد الملك بن مروان، ولم لا فهي عادتنا ولا نشتريها من أحد أن نترك الحمار ونمسك في البردعة!!

لا أظن أن أحدًا نال تشهيرًا وتعريضًا وسبًا ولعنًا أكثر منه في التاريخ العربي والإسلامي، كلنا نعرفه ونتعارف على ضرره وشره وشرهه في الظلم وشراهته للعدوان وشهوته في الطغيان وشهرته في القتل والتنكيل.

ومن هو ومن يكون إلا الحجاج بن يوسف الثقفي الذي نحتفظ بصورته فظة وغليظة في صفحات التاريخ ولم لا، أليس هو الذي جرؤ (عفوًا تجرأ) وقذف الكعبة المشرفة بالمنجنيق وهدم بعضًا من أحجارها وشيئًا من أسوارها (ما لم يقدر أبرهة ذو الجبروت والملكوت والطاغوت على فعله).. وهو ما يدفعنا على الماشي للتساؤل: لماذا أنقذ الله تعالى الكعبة من غزو أبرهة وفيله وأنعم الله على مكة بطير من أبابيل ترميهم بحجارة من سجيل فحمى الكعبة وخذل

العدوان والأعداء، بينما ترك الحجاج الثقفي لإنقاذ الكعبة بالمعجزات؟. ربما تكون الإجابة كامنة في أن عصر المعجزات انتهى ببعثة النبي العظيم محمد ﷺ فضلاً عن أبرهة الذي كان ينوي هدم الكعبة ونسفها كرهًا وكفرًا وبناء كعبة ومعبدًا آخر للناس، لكن الحجاج سرعان ما انتصر على الزبير بن العوام بقتله بعد هدم أسوار الكعبة ثم عاد هو نفسه ليصلح ما أفسده ويعيد بناءها فهو صراع بين مؤمنين.. لكن تظل جرأته في ضرب الكعبة المقدسة دون حرمة ولا خجل مضرب الأمثال في الطغيان.

ثم أليس الحجاج هو الذي عصف برؤوس معارضي الدولة الأموية ورمى بالكثيرين في غياهب الغيب وسراديب الموت والقهر. ومن ثم تركزت كل حمم الكراهية على الرجل..

رغم أن الحجاج لم يكن يفعل سوى تنفيذ التعليمات إلا أن أحدًا لم يرحمه من نيل حجم العقوبة وجرم الأمر كله، رغم أنه كان مجرد وزير أو محافظ أو قائد تحت إمارة أو قيادة أمير مؤمنين هو الذي يأمر وهو أيضًا الذي يعرف ما فعله – ويفعله – الحجاج.

ولكنها الرغبة الحارقة لدينا في عدم الوصول في كراهيتنا ونقدنا ورفضنا ومعارضتنا حتى الباب العـالي أو الأعتـاب السنية أو الرغبة العربية القديمة الذميمة في إضفاء القداسـة على الأمير والوالي والسلطان والحاكم والتحجج الساذج بأنه لا يعرف سوءات ومظالم وزرائه وأنـه لا يـدري بمـدى جرمهم في حق الرعية والجنان الأزلي باللجوء إلى السلطان كي يخلصنا من وزرائه كأنه لا يعرف أو كأنه لـم يعيـنهم بنفسه وبمعرفته أو كأنه (وهو الأمر الأغلب) مـن يـأمرهم بذلك، هذه الرغبة وتلك الطباع الرعديدة هي المسئولة جملة وتفصيلاً عن لعن الحجاج يوسف الثقفي وعدم ذكـر سـيده وسلطانه عبد الملك بن مروان بسوء أو بكراهة أو بغضب!!

لكن الحجاج بكل ما يحمله من ظلم وعتو وافتراء كأسـوأ وزير عربي في الطغيان في خدمة سلاطين القمـع والقهـر يكشف عن جانب آخر من شخصيته عن مأساة المثقف حين يضع نفسه بعلمه وذكائه وثقافته في خدمة الحاكم والأميـر، فيكون أسوأ وألعن كرباج وأَحَدّ سيف في يد هـذا الحـاكم، فالمؤكد أن الجانب الآخر من حياة الحجاج وهو جانب – يـا للغرابة – مشرق ومنير، يلقى في الوقت ذاته غمـام الشـك

(أو التشكيك) على أبعاد تصرفات الحجاج ولعله يجعلنا نعيد النظر إلى هذا الشخص المثقف العالم وتصرفاته الكريهة والكريمة باعتبارها انعكاسًا لفصام شخصية أو صراع فكري أو جنون ذاتي لعله موجود في كل مثقف يصل أو وصل إلى السلطة!

لكن ما الجانب المشرق في حياة الحجاج بن يوسف الثقفي؟

لقد كان الحجاج ابنًا لعالم لغة ومن معلمي القرآن الكريم ومحفظيه وصار الحجاج طالب علم يتردد على حلقات الصحابة والتابعين وكان تلميذًا مبهرًا ثم مدرسًا للغة العربية، أو بالدقة الواجبة عالمًا لغويًا وأستاذًا وخبيرًا باللغة العربية ودروبها وضروبها كذلك، بل وحمل لقب أفصح العرب بل والثابت أن الحجاج بعلمه ورغبته الحارقة في خدمة دين الإسلام ساهم بدور فاعل وفعال في كتابة وتدوين وخط وتنقيط (وضع نقط) المصحف الشريف وهو عمل جلل وجليل، بل هو العمل الذي يتسع فضله حتى يوم الدين يوم نلقى الله جميعًا – ومعنا وفينا الحجاج – وأي قارئ لكتب التفسير للقرآن الكريم له أن يمعن قراءة المقدمات التمهيدية

لهذه الكتب التي عادة ما تقدم تعريفًا ملخصًا وخالصًا لتفسير القرآن الكريم من حيث نزوله علـــى النبـــي المصـــطفى ﷺ وجمعه وحفظه وقراءاته وغير ذلك من علـــوم المصـــحف الشريف، وسوف نجد اسم الحجاج بن يوسف الثقفي لامعًـــا وحاضرًا بقوة في هذا الجهد الديني والعلمي الرائـــع، اقـــرأ معي في مقدمة تفسير القرآن "الجامع لأحكام القرآن" للإمـــام أبو عبد الله محمد بن أحمد الأنصاري القرطبي لتجد مـــثلاً: وأما شكل المصحف ونقطه فروي أن عبد الملك بن مـــروان أمر به وعمله فتجرد لذلك الحجاج (تصدى له واشتغل بـــه) وجد فيه (اجتهد فيه) وزاد تحزيبه (اهتمامه وانشغاله وولاؤه لهذا الموضوع) وأمر وهو والي العراق الحسن ويحيى بـــن يعمر بذلك، وألف (نشر) أثر ذلك بواسط (مدينـــة عراقيـــة) كتابًا في القراءات جمع فيه ما روي من اختلاف الناس على ذلك زمانًا طويلاً.

ثم في كتاب "المصاحف" لابن الأشعث السجستاني تجـــد اهتمام الحجاج الواسع بعلوم المصحف وتفاصيلها في الكتابة والقراءة والتلاوة والإعراب والحروف، بـــل وتجـــد اسـم

الحجاج أكثر من مرة في فهرس الكتاب نفسه عنوانًا لبـــاب أو لفصل.

بل إن الحجاج جمع – حينًا – القراء والحفــاظ والكتــاب للوقوف على عدد حروف القرآن (٣٤٠٧٤٠ حرفًا) وتحديد عدد أجزاء القرآن وأرباعها وأنصافها واستغرق العمل أربعة شهور تحت مشاركة واهتمام ورعاية ودعم وطبقًا لتوجيهات الحجاج بن يوسف الثقفي وسبحان الله.. هذا نفــس الرجــل الذي سفك الدماء وهدم الكعبة وقمع باسم ســلطانه الرعيــة والمواطنين هو نفسه المثقف العالم بالقرآن والذي باع علمــه وذكاءه للسلطة وللغنى والنفوذ ليصبح أشر صـــور المثقــف وعالم الدين حين يستبدل الذي هو أدنى (النفــوذ والفلــوس) بالذي هو خير (العلم والضمير)، ويشتري الضلالة بالهــدى والدنيا بالآخرة وهو الطاغية الذي يرفع شعاره "إني أنذر ثم لا أنظر – ما باشفش قدامي ساعتها –، وأحذر ثم لا أعــذر، – ما برحمش بعدها يا حلو – وأتوعد ثم لا أعفــو – أفــرم وأدوس بالجزمة".. فهل تخيل (ويتخيل) الناس – الرعيــة – أنه يهدد ويتوعد ويعذب وينكل والسلطان لا يعــرف أو لــم يصل إليه خبر، ليه سلطان أعمى أو أطرش أو البعيد بيعملها

على روحه، قطعًا هو يعرف وهو راض وهو يوافق وهـو يأمر وهو يطاع.. والوزير الحجاج أو غيره هو الذي ينفـذ أوامر السلطان بكل إخلاص في القمع وبكل ولاء في القهـر وبكل حقد على المواطنين الذين يبلغ بهم الجبن أنهم يعلنـون الحجاج ويبلغ بهم الغباء أنهم يشـكونه للسـلطان.. يـا دي الخيبة!!

الله أكبر خربت خيبر

طلع النهار، نورت المدينة بهذا الضوء الصباحي البازغ، لم تظهر الشمس بحرارتها وفحيح قيظها، لكن النهار جاء مصحوبًا بأنفاس الريح تحرك فروع الشجر وجريد النخل وثمرات البلح والتمرد وأعواد القمح النابتة في أرض وحقول خيبر المحيطة بقلاعها وحصونها، خرج عدد مبكر من اليهود جمع من أسرة حزقيل، كان الابن الصغير متذمرًا وهو يجر بقرة وراءه، لمح أخوه ظلال التمرد.

فقال له: بدأنا قصة كل يوم من الغضب والعتب.. كف عن هذا فاليوم أبوك وسائر أهلنا في حيرة وتوتر.

رد عليه الصغير: أنا لا أفهم ما الذي جعلنا وحدنا في خيبر نعمل في الزراعة وجر البهائم في فجر النهار لماذا لم نكن مثل قريظة وقينقاع وفدك وغيرهم من أهلنا اليهود في المدينة نتاجر في الخمور والذهب والصاغة والمعدن والسيوف والدروع أو حتى نسج الأقمشة لنكن سادة المدينة والجزيرة؟

كان الأخ الكبير قد أشار إلى أوسطهم أن يمسك معه المحراث الخشبي بينما كان والدهم يجر المجرفة الحديدية

معه، التفت إلى أخوته وهو يسابق عددًا من أسر اليهود مرت بجوارهم مسرعة للوصول إلى البوابة الحديدية الهائلة، قال:

- اسمعوا من لا يريد العمل منكم ليبتعد عنا ويذهب إلى أحد الأحبار في المدرسة فإذا كنت تريد التجارة فالأحبار تجار دين وباعة جنة!

- كأنك تقول ما يقوله محمد يا أخي لقد كنت في بيت المدارس حين سمعنا صوته.

- صوت من؟

- محمد.. نظرنا من النوافذ.. فإذا به واقفًا على فرس وسط أصحابه وأنصاره ينادي: يا معشر يهود أسلموا تسلموا.. فانتفض أحبار المدرسة وقد تيقظوا فتملظوا وقال: قد بلغت يا أبا القاسم. كأنهم يدعونه للرحيل لكنه كررها وأكدها وأخذوا يردون عليه القول نفسه قد بلغت يا أبا القاسم، فرد صائحًا طليق الصوت حزمًا وحسمًا: اعلموا أن الأرض لله ورسوله؛ فصمت الطلاب وبهت الأحبار.

شعر الأخ الكبير وجعًا وقال هامسًا: لا أعرف كيف يفلت محمد من سم اليهود أو سيف رجال التوراة البتار، إن كل يهودي كأنه يصنع في كل سيف يصنعه سيفًا لقتل محمد.

- لكنه نجا.

- نحن الذين خبنا.

تجمعوا عند البوابة، لوحوا للحراس في أبراج المراقبة وقد أيقظهم صخب الزحام، فتحوا الأقفال ورفعوا الألواح الخشبية وفكوا جنازير الحديد وخرج العشرات من اليهود في هذا الصباح بأدواتهم وبهائمهم وأولادهم مبكرين للزراعة تستقبلهم الأرض الواسعة والربوات العالية وغابات النخيل ولون القمح الأصفر الزاهي وحين توغلوا في مزارعهم سمع الولد الصغير حوافر أحصنة كأنها قادمة من رجع بعيد التفت إلى أخيه فزعًا جزعًا همس له: أتسمع كأنها الخيل، أمعن أخوه النظر واسترق السمع وأجاب مهزوزًا ومرتبكًا: كأن صهيل خيول العالم كله وحوافر الدنيا بأسرها تمرق نحو أرض خيبر.

بأن الغبار والتراب منثورًا وصدعت الأرض بحوافر الخيل زلزالاً يرج جذوع النخيل وانطلق صهيل عات آت من ثقوب الأرض وأركان السماء، انزاح الغبار والضباب عن راية ترفرف، لوهلة لم يستبن أحد من الذعر والرعب لونها ولا رسمها لكن صيحة كأنها علامة القيامة أفصحت عن

الهدير القادم كانت كأنها تخرج من قماش الراية نفسها، كأن نقش الحروف المخيف ينطق ويصرخ: لا إله إلا الله.

صاح أحدهم رعبًا: جيش محمد، جيش محمد.

انطلقت الأقدام والسيقان تجاه بوابة القلعة، تتعثر الأقــدام وتتهاوى الأجساد وتتساقط خلف وفوق ووراء بعضهم بعضًا يتركون الأرض ويتخلون عن الأدوات والحيوانات.

- افتحوا البوابة، احمونا أنقذونا لقد جاء محمد.

في وهلة أو لحظة من الرعب والخوف والضعف دخلــوا إلى الحصون ومرقوا من بوابات القــلاع وانتصــب حملــة الأسهم وظهرت السيف والرماح والدروع.

واندفع أحدهم ممسكًا بقوس سهامه يصرخ من برج عالٍ.

- لن تنال منا يا محمد، لسنا مثل قومك، لو كنت نبيًا حقًا اصعد أبراجنا لو استطعت، حطم بواباتنا لو تمكنــت، اهــدم حصوننا لو قدرت.

وقف النبي محمد ﷺ على فرسه، تبسم ودار بفرسه ورفع رأسه ورمى نظره علــى القــلاع والحصــون والأســوار والبوابات والأبراج والسيوف والرماح ثم قــال: اللهــم رب السماوات وما أظللن، ورب الأراضين ومــا أقللــن، ورب

الشياطين وما أضللن، ورب الرياح وما أذرين، نسألك خير هذه القرية وخير أهلها وخير ما فيها، ونعوذ بك من شرها وشر أهلها وشر ما فيها.. ثم نظر إلى أصحابه وأنصاره وجنوده وأمرهم: أقدموا باسم الله وردت السماوات والأراضين جلل صوت النبي ﷺ وجلاله وهو يعلن:

– الله أكبر خربت خيبر..

السؤال الجوهري هنا هل يهود خيبر يهود قريظة يهود المدينة والجزيرة العربية الذي حاربهم النبي وواجهتهم جيوشه وأنصاره وأصحابه هم أنفسهم يهود الكيان الصهيوني الاستعماري يهود إسرائيل؟

الإجابة تستدعي الآن التوقف والتبين لندرك ما يمكن أن نتداركه!

نحن نعرف جميعًا أن اليهود تحاول طول الزمان أن تصبح هوية وجنسية وليست ديانة ومن ثم فهم يبذلون مجهودًا حقيقيًا لحفظ النقاء والبقاء العرقي لليهود وأن التناسل والتكاثر اليهودي محصور في أغلب الأمر داخل دائرة وحلقة خانقة من العنصرية والتعالي ورغم أن اليهود يتهمون الآخرين باضطهادهم فإن اليهود هم الذين يختارون من

اللحظة الأولى لوجودهم في أي مكان طابع الاعتزال والانفراد وهو ما يجعل وجودهم في المدينة المنورة داخل قرى وحصون وقلاع هي بمثابة البعد والابتعاد وقرار الاعتزال والعزلة الكاملة عمن حولهم ورفض الاندماج والانصهار داخل المجتمع الذي ينظر له اليهود على أنه مكون من الأغيار، الآخرين، الأقل والأدنى، الأدنى بجهلهم أو فقرهم أو حقدهم.. إذن من الواضح أن يهود المدينة الذين رحلوا مطرودين إلى الشام وحواف العراق وغيرهما ربما بالضرورة أجداد وجذور اليهود العرب الذين هاجروا إلى إسرائيل في أكبر عملية خيانة منظمة للدول والأوطان التي عاشوا فيها وحملوا جنسيتها حيث نكتشف أن رحيلهم إلى الدولة الإسرائيلية لم يكن سوى حالة خيانة واضحة فاضحة للمجتمعات التي غشوها سنين وأيامًا وادعوا انتماءهم لها والثابت أنهم بلا وطنية (وليسوا كما ادعوا بلا وطن) هم الخونة الذين تركوا أوطانهم (حيث كانت أيضًا حالة الاعتزال والفصل النفسي والنسلي موجودة لديهم في كل مكان) ليحاربوا شراكة المواطنة وأبناء الشوارع والأحياء الذين تربوا فيها.

إذا كانت فلسطين أرض اليهود الموعـودة فهـي أيضًـا أرض خيانة اليهود من بولندا ووارسـو وبـاريس وحتـى البصرة وطنجة للانتماء الوطني وهو علامة تشكيك منطقيـة وجائزة (مع حسابات الاستثناء بطبيعة الحـال) فـي أن أي يهودي في أرجاء الأرض والكون الآن مهما بالغ في الادعاء فإن دينه وهويته ومهما قال لنا جواز سفره فإن انتماءه إلـى إسرائيل وهويته هناك؛ حيث يلتصق الدين بالهوية ويصـير الدين جواز سفر وبطاقة ووطنًا وليس فقط إيمانًـا وشـعائر وعلاقة تعاطف وتماسك وتعاون بر وتقوى كما بـين أبنـاء الأديان الأخرى الإسلام والمسيحية، التاريخ الإنساني يحفـل بالمعارك والحروب بين المسيحيين دولاً وأممًا فيمـا بيـنهم وكذلك بين المسلمين بين بعضهم الـبعض حيـث تتقـاطع الأجناس والهويات والأوطان مع الدين.. أما اليهود فالـدين جنس وجنسية واليهودي مختار من ربه ومرفوع وموضوع فوق الآخرين، وبينما ترحب الدول والأوطان بانتماء اليهودي إليها يرفض اليهودي و يظل دينه هواه وهويته وإذا أمعنـت النظر وقرأت الخبر تدرك دونما تعب أن الدين هو في ذاتـه يحمل عناصر عنصريته التي هي حق مكفـول لليهـودي لا

دخل لنا به (ولا يجب أن يكون لنا دخل فهو حر حرية كاملة ومطلقة وآمنة في عقيدته) لكن المشكلة عندما يدفعه دينه إلى احتلال الأرض وإلى الظلم وإلى طرد وقتل وتشريد واضطهاد وتصفية الآخرين الذين هم للمصادفة نحن العرب مسلمين ونصارى.

فماذا نعمل ساعتها إلا أن نحارب خبير!

يهود إسرائيل الآن من حيث النسل والدم فيهم من خيبر..

من حيث الرضاعة الشبهة والشبه قائم..

ومن حيث القناعة والعقائد العرقية والعنصرية والعدوان واستحمار (ليس في الأمر خطأ مطبعي) واستعمار البشر لصالحهم ولعنصرهم اليهودي المنقى والمصفى فيهم الكثير والكثير بل هم هم أنفسهم!!

من مئات السنين يسعى يهود في العالم لدى الفاتيكان (الكنيسة الكاثوليكية الأكبر والأهم والأم) لإصدار وثيقة دينية وشهادة مسيحية من الفاتيكان تبرئ اليهود من دم المسيح، إنهم لم يخونوا النبي عيسى عليه السلام وقدموه في خيانة هي الأشهر والأفدح في تاريخ الإنسانية إلى أعداء المسيح كي يصلبوه ويقتلوه (الإسلام والمسيحية يتفقان على أن السيد

المسيح صعد إلى السماء ورفعت روحه إليها لكـن الفـارق أن الإسلام يرى أن الرفع تم قبل الصلب وأنه مـا صـلبوه ولكن شبه لهم أما المسيحية فترى الرفـع قـد جـرى بعـد الصلب) على مدى التاريخ يلاحق اليهود هذا الاتهام المهـم، أن اليهود (يهوذا) خان المسيح وسلمه للصلب ومعنى تلكـم السعي اليهودي اللاهث للبراءة اعتـراف لا لـبس فيـه أن المسئولية التاريخية والدينية تلاحق اليهود أجيالاً وراء أجيال عبر آلاف السنين وأن كل يهودي يحمل خلف ظهره عـبء وعناء تلك الجريمة هل من الممكن أن يتحمل يهودي مولود سنة ١٩٤٢ مسئولية ما فعله جده من ١٩٤٢ سنة؟

السؤال يتكفل به اليهود أنفسهم حين يطلبون ويحصـلون على تعويضات مالية بمليارات الدولارات من ألمانيـا مـثلا وحتى الآن ثمنًا للمحرقة التي قام بها هتلر ونـازيو ألمانيـا في الحرب العالمية الثانية، المعنى مفهـوم تمامًـا اليهـود يحملون مسيحيي ألمانيا المولودين بعد وفاة ونهاية هتلر ثمن ما فعله جدهم الألماني!!

حتى على صعيد آخر فـإن ضـحايا الـرق والعبوديـة من مئات السنين تيقظوا وتيقنوا من حقيقة واضـحة وهـي

مسئولية حالية لأحفاد تجار ومستثمري وملاك العبيد عن استعباد واستغلال هؤلاء البشر (ما جرى في مؤتمر مكافحة العنصرية – دربن – جنوب أفريقيا سبتمبر ٢٠٠١ دليل على اطمئنان الإنسانية لمسئولية الأحفاد عما فعله الأجداد).

من وحي ذلك كله بان واستبان لدينا أن اليهود من خيبر وقريظة ليس فقط خانوا النبي محمد ﷺ حين أخلوا بالاتفاقية المبرمة بينهم في المدينة المنورة والتي نصت بعض بنودها بعد التأكيد على حرية وحق الإقامة لليهود وحرية دينهم وشعائرهم، أقرت معاهدة مواطنة مدنية من طراز رفيع تقول مادة فيها (وأن على اليهود نفقتهم وعلى المسلمين نفقتهم وأن بينهم النصر على من حارب هذه الصيغة – المعاهدة – وأن بينهم النصح والنصيحة والبر دون الإثم، وأنه لا يأثم امرؤ بحليفه وأن النصر للمظلوم وأن اليهود ينفقون مع المؤمنين ما داموا محاربين) لم ينقضوا معاهدة ودستور المواطنة فقط بل تجسسوا على النبي وجيوشه وجنوده وتحالفوا مع أعدائه وحاولوا اغتياله فما كان ممكناً إلا الحرب الضروس ضد خونة، ربما لا يكون هناك أي دخل لليهودي من أحفاد خيبر وقريظة في تلك الجريمة (رغم أنهم لا يرونها خيانة ولا

جرمًا) ومن ثم فإن مسلمًا واحدًا لم يحمل يهوديًا واحدًا ذنب تلك الجريمة بدليل أنه منذ وقت الخليفة الفاروق عمر بن الخطاب (آخر مواجهة إسلامية مع اليهود) وإلى بعد تلك السنين بأكثر من ١٢٥٠ سنة أي على مدى أكثر من ١٢ قرنًا لم تحارب أي دولة مسلمة أي قبيلة أو عائلة أو مدينة أو حيًا يهوديًا بل عاشوا مواطنين (أغلب الوقت) أو رعايا حتى جرى ما لم يكن سوى الخيانة العظمى من اليهود للإسلام والعروبة وللإنسانية وهو احتلال اليهود فلسطين العربية المسلمة.

كان الليل قد حل ولم يظهر القمر، ليالي سبعة مرت على حصار المسلمين لحصون خيبر الذي بدا ضخمًا وهائلاً مع صمت الظلمة وقبضة الإنهاك التي غلفت الخيام والرايات والإبل والخيل، عند الربوة العالية جلس النبي في ذلك المسجد الذي بنوه بجذوع النخل وجلود الإبل وخيوط الصوف وفرشوا على الأرض حصيرًا من عيدان الشجر وجريد التمر ليقيموا الصلاة ويسبحوا الله بكرة وأصيلا، وضعوا إلى جانب القبلة مشكاة يبزغ نور وجه النبي على

ضوئها يبدد الظلام والظلم، تباحث الصحابة والأنصار حول العمل وقد أوشك اليوم السابع على حصار خيبر أن يمضي.

– ما العمل إن اليهود يخرجون من بوابة قفزًا سراعًا بالخيول ومعدات حرب الحديد التي يملكونها، نعدو نحن لنصارعهم ونصرعهم وحين يحسون أن سيوفنا أراقت دماءهم تصارحوا بالخسارة وتصايحوا للعودة إلى الحصن فينفتح تحت ضرب السهام وشوك النبال خشب بوابتهم فيفرون كأنهم أشباح أرواح.

– أطالوا المعركة حتى نتعب وتفرغ قوانا وقواتنا وأقواتنا.

– نفدت المؤنة واليهودي ملأى خزائنهم بالطعام والذخائر ينامون على فراشهم ووراء أسوارهم ونحن في البرد والحر، الريح والتراب.

– لديَّ حيلة يا رسول الله.

قالها أحد الأنصار وبعد هدأة ليل كانت أسوار اليهود تشهق من الرعب وتفرغ من تمام عزم المسلمين وتحدى الحصون والقلاع، أمسك عشرات المسلمين بالسيوف والفؤوس والأسلحة وطعنوا بها قطعًا وتكسيرًا وتحطيمًا

أشجار النخيل التي تملأ أرض وزراعات اليهود. انطلق أحد المسلمين بشعلة نار لهيبة ورمي نخلة بها؛ تتابع وراء آخرون ومع صياح الصباح كانت نيران الليل لا زالت مشتعلة والدخان والفروع المحترقة وجذوع نخل خاوية وعصف ريح عاتية ولهاث إبل وصهيل خيل ولمعان سيوف وبرق رماح ودوي سهام.

كان اليهود يرقبون خلف الأسوار ووراء الأبراج ثورة المسلمين وحشد الجنود.

وقف النبي على فرسه ممسكًا برايته رافعًا بيرقه مرفرفًا شعاره ورسمه وسمته ولألأة حروف لا إله إلا الله على قماشها.

وخاطب النبي الجميع فبلغ الصمت حد سكوت الريح وسكون الشجر.

قال النبي ﷺ: "لأعطين هذه الراية رجلاً يفتح الله على يديه، يحب الله ورسوله، ويحبه الله ورسوله".

صمت مطبق مطلق كاسر آسر ران على الجميع مسلمين ويهودًا الكل يسأل نفسه أو صحبه: من الرجل الذي سيسلم له الرسول رايته فيفتح الله على يديه خيبر ويقف على أطلال

اليهود ويهتف الله أكبر خربت خيبر، من الرجل قاهر الخونة محرر المدينة من حلفاء الأعداء، من الرجل مبيد اليهود بعد أيام من الإعياء والمعاناة والممانعة والمقاومة الشرسة، من هو؟، وقفت الكائنات كلها الطيور والخيل والإبل والنخل والشجر والصحابة والأنصار والصبح والريح والضوء والظل ترقب وتترقب شفاه الرسول الكريم وهو ينطق باسم الرجل، قال:

- أين علي بن أبي طالب؟

**

وبعد أكثر من ألف سنة نسأل نحن نفس السؤال:

- أين علي بن أبي طالب؟

صحيح أين علي؟

النخبة الرخوة والمعارضة البضة!

هل عندك فكرة لماذا توقف المعارضون الأشاوس لسياسات ومنهج وأفكار الرئيس السادات عن لعب دور المعارضة الآن بل ونرى الكثيرين منهم (بمن فيهم أعضاء في أحزاب المعارضة) قد تحولوا إلى مؤيدين للسياسة الحالية رغم أنها لا تختلف تمامًا ومطلقًا عن سياسة الرئيس السادات (الذي يرى أن تلك السياسة تغيرت واختلفت ربما يحتاج إلى تغيير عدسات النظارة وقراءة تصريحات وحوارات قيادات الحزب الوطني التي لم تتغير بالمناسبة؛ وعليه إذا كان عنده وقت مراجعة أسماء رؤساء تحرير الصحف القومية قبل ١٩٨١ وحتى الآن ويبقى يكلمنا في التليفون وسعر الدقيقة خمسون قرشًا فقط!!

إذن بالذمة لماذا توقف معارضو السادات (الله يرحمه ويحسن إليه) عن المعارضة؛ نسلم أولاً أن بعضهم كبر وشاخ وخلاص بقى جبن (وليس حسن) الختام؛ لكن ما الذي يجعل كتلة هائلة من السياسيين اليساريين والكتاب والصحفيين وأساتذة الجامعة الذين عملوا فيها رجالة وعارضوا السادات يأتي وقتنا هذا مع نفس السياسات التي عارضوها بشحمها ولحمها فإذا بهم من المؤيدين بل

والراكبين على مقاعد في وزارة أو مجالس وصحف ومؤسسات حكومية إلخ؛ ليست هناك أي إجابة عندي سوى أنهم للأسف (أو كثيرًا منهم) كانوا معارضة مأجورة!! نعم الكلمة صحيحة ولكن فيها خطأ في المعنى أو اللفظ؛ مأجورة طبعًا وقطعًا!

وقتها كانت معارضة السادات أمرًا مربحًا للغاية وهو ما يبرر امتلاك هؤلاء ساعتها شجاعة المعارضة فالحاصل أن صدام حسين كان يدفع ويمول الصحف والمطبوعات والكتب ودور النشر بل وحتى يمول ترجمة كتب هؤلاء إلى اللغات الأجنبية؛ وكان القذافي يمول بالملايين البلهاء أحزابًا سرية وعلنية وتنظيمات قشرية أو وهمية ومؤتمرات وندوات ومراكز أبحاث وشخصيات نصابة!! وكان الخليج يتبرز ملايين من أمواله على صحف في الخارج تفتح أبوابها للمعارضين وجامعات تتلقف مناهضي السادات! وكانت لبنان مرتعًا خصبًا يروج لهؤلاء ويرفع بالشطارة اللبنانية الشهيرة من أسعارهم عند الدول والحكومات!

وكانت منظمة التحرير بقيادة الأخ عرفات، الله يسامحه، يمارس هوايته في إنفاق مال الثورة على معارضي السادات

ومناهضي كامب ديفيد قبل أن يصبح هو ومعارضو السادات في نفس المركب والموكب من التطبيع مع إسرائيل وأمريكا من أجل القضية الفلسطينية التي لو كانت رجلاً لضربهم وضربنا جميعًا بالبلغة القديمة! ومن ثم كانت معارضة السادات ربحًا لتجار وليست أبدًا نضالاً لسياسيين مولتهم ودفعت لهم دول فاشية استبدادية في عواصم العالم التي ذهبوا إليها لبيع النفس والحصول على النفيس!

ليس مستغربًا إذن أن يمكث شاعر مثل أمل دنقل هنا في وطنه على مقاهي قاهرته يقاوم ويناضل بالشعر وبالثرثرة فيصاب بالسرطان ويموت بينما الشخص الذي هاجر وسافر وتعامل وتعاون مع ممولي وتجار المعارضة مدفوعة الأجر يعود بعد موت السادات ونهاية الممولين محملاً بالمال ومرميًا في حضن نفس السياسات (التي ادعى أنه سافر فرارًا منها هو وغيره) من حيث الصلح (والنوم) مع العدو الإسرائيلي والعلاقات الخاصة شديدة الخصوصية مع أمريكا (لها أوصاف أخرى لا شجاعتي ولا حماقتي تسمح بذكرها ووصفها الوصف الحقيقي) كذلك السياسة هي نفسها ولعلها أشد في الانحياز للأغنياء من المليونيرات ورجال الأعمال

على حساب الفقراء ومحرومي (وليس محدودي) الدخل!! وأيضًا في ظل القوانين الاستثنائية وقانون الطوارئ الممتد حتى يرث الله الأرض ومن عليها! وسياسة الاستبداد بالقانون والديمقراطية لها أنياب ومخالب على اعتبار أنها ديمقراطية في غابة من حيوانات وليست ديمقراطية في بلد ومع شعب!

من الطبيعي للغاية أن يظل الموظف المصري العظيم كمال أبو عيطة في مصر معارضًا للسادات دون أن يستثمر المعارضة ولا يتنازل عنها فيستمر بعد السادات معارضًا لذات السياسة ويظل هو نفسه الموظف والمناضل لا زاد (إلا احترامًا) ولا نقص (إلا صحة ومالاً!) بينما الذي فتح حزبًا وأسس مؤسسة وصادق أنظمة واشتغل في إذاعات موجهة لمصر العروبة إذا به أغنى وأشهر ويملك الصحف أو يكتب فيها ويظهر في البرامج يمتدح مواقف مصر العروبة حاليًا بنجاح ساحق!

الذي يكشف أنها معارضة من يومها مأجورة فعلاً أنه كانت تتحدث نفاقًا ورياء وتوسلاً وتسولاً عن أمجاد وفضائل ومواقف ديكتاتورية يمولهم من بغداد أو طرابلس أو دمشق أو غيرها بينما تهاجم استبداد السادات فأين هي الديمقراطية

والحرية التي كان يدافع عنها هؤلاء المعارضون؟ بينما يبدو السادات بالمقارنة بهؤلاء الحكام أشبه بعمر بن عبد العزيز!

وكان بعض من هؤلاء المعارضين يكتب قصائد سرية في سب الرئيس السادات بل كان بعضهم يقف في المؤتمرات الخارجية والداخلية يلعن ويسب في شخص السادات ويتهمه بالخيانة وهم الآن الذي يكتبون استعراضات عيد الشرطة وفي مجلات الشرطة ويمتدحون العهد بالشعر والبرامج والخطب ويبجلون الحكم والحكومة كأنهم سيضيفون بلهفة ورجفة صيغة "رضي الله عنه" أو ﷺ حين يذكرون اسم هذا أو ذلك من رموز الحكم!

المؤكد أنه لا يوجد شعب يستطيع أن يتغير ويغير بدون طليعة أو نخبة تعمل على تنوير أو تحريك أو تثوير الناس؛ يقودونهم من الظلمات إلى النور يطورون في مفاهيمهم ويبدلون في سلوكهم ويرشدونهم ويحركونهم وينظمون صفوفهم؛ وقبل هذا وبعده وأثناءه تقوم هذه النخبة أو الطليعة بالتعبير عن مشاعر وأفكار وأحاسيس ومطالب المواطنين؛ من هنا تأتي مهمة المثقفين والسياسيين والكُتاب وأساتذة الجامعة والصحفيين؛ لكن الحقيقة أن النخبة المصرية

عن عجز أو عمد؛ باعت المواطن المصري بثمن ثمين تقاضت دولاراته ودراهمه وديناراته من دول وأنظمة في فترة السبعينيات ثم لما ندر المال النفطي وتصالحت الأنظمة والحكومات فقدت المعارضة دورها وأجرها فلحقت فورًا بصفوف الدولة وأعضاء الحكومة وباعت مرة أخرى المواطن المصري بكرسي أو بمنصب أو بموقع أو بعضوية أو برئاسة تحرير أو بمعقد في شورى أو شعب أو حتى بدعوة لحضور معرض الكتاب أو بكتاب في مهرجان مكتبة الأسرة!!

وهكذا تلتقت فترى نخبة لا تقوم بمعارضة إلا لو تقاضت ثمنها كما أن نضالها لابد أن يكون مدفوع الأجر!! (لاحظ معي ورغم أن منظمات حقوق الإنسان ومناصرة المرأة وما إلى ذلك لها أهداف نبيلة ومنيرة إلا أن ما يجمعها كلها إلى جانب الإقبال الهائل من اليسار المصري عليها هو تمويلها المغدق من الغرب ومؤسساته كذلك) ونعود إلى حقيقة أن عددًا هائلاً من مثقفينا يعانون من الرخاوة وانعدام الشجاعة يقودون كتائب من النفاق والرياء للسلطة والدولة في الوقت الذي يسيطر فيه على الأحزاب السياسية في مصر زعامات

مثل جدك خالد محيي الدين وجد والدك إبراهيم شكري ودفعة جدك ضياء الدين داود وعم والدك نعمان جمعة؛ وتمتلك مقاليد دوائر الإعلام والصحافة شخصيات دخل أحفادها الجامعة أو يعانون من خرف الشيخوخة!! لتبدو الساحة السياسية في مصر ليست في حاجة إلى كاتب أو باحث بل في حاجة إلى عالم حفريات أو على أحسن تقدير تحتاج إلى خبير تحف وأنتيكات!! هذا التصلب في الشرايين وهذا التفكك في أوساط النخبة الرخوة وتلك المعارضة البضة (..) أدت إلى ما نحن فيه الآن.. لكن أين نحن بالصلاة على النبي؟

الإجابة على هذا السؤال تستدعي فقط أن نخرج أولاً من بلاعة المجاري السياسية التي سقطنا فيها ثم سنعرف بعدها أين قذفت بنا تلك الماسورة!!

شرف الحكومة مثل عود الكبريت!

لا يتصور أي مثقف أو كاتب في مصر أنه بعيد عن الزنزانة التي يقضي فيها دكتور سعد الدين إبراهيم لياليه الطويلة في مسيرة التنكيل به والرغبة التي تبدو رسمية وحريصة على تكسير عظامه أو شوي لحمه.. فهناك كنز من القوانين المتربصة بأي واحد فينا من الذل لا يزالون يحتفظون بما تبقى من مخ وضمير في هذا البلد (كلما هبطت ووصلت إلى مطار القاهرة تجد جزءًا من الآية الكريمة: **﴿ادْخُلُوهَا بِسَلَامٍ آمِنِينَ﴾** قاصدين من وراء هذه الآية الدلالة على رحابة مصر وأمانها.. والمفارقة المدهشة أن الآية في القرآن الكريم موجهة لليهود أن ادخلوا مصر آمنين.. بل وبحثًا عن الفول والبصل والثوم.. لذا لزم التنويه!!) المهم أننا كل يومين ثلاثة نسمع حكاية سمعة مصر حجة حكومية للتنكيل بأي كاتب أو معارض أو باحث، ليس الأمر قاصرًا على دكتور سعد بل يطول الجميع كأنه سيف من التهديد أو الابتزاز!! وسمعة مصر كلمة تخض، كلمة محترمة قطعًا.. ومهيبة وفخيمة وتكاد تقف وأنت تكتبها لكن المتأمل في تعبير سمعة مصر يجده يعاني من البهدلة على يد الذي يسوي والذي لا يسوي في هذا البلد وبطبيعة الحال فإن

الدستور في مصر لا يزال ينص على أن النظام اشـــتراكي ويلاحق من يجرؤ على نقده وهدم الاشتراكية بالويل والثبور (نعرف الويل لكن ما معنى الثبور) ولا يوجد اثنان في البلـــد لم يشتما وينقدا ويهدما الاشتراكية ومن ثـــم فأشـــياء كثيـــرة في مصر تفقد معناها بل لم يصبح لها معنى أصلاً!! كـــذلك فإن هناك تعبيرات أصبحت مثل الشراب تلبسه أي قدم (..) فتجده على مقاسها، لا تفهم مـــا المقصـــود منهـــا بالضـــبط خصوصًا أن هناك حشدًا من المواد القانونية التي تعرف مثلاً الأمن القومي وتفنده وتحدده بحيث إن أي ســـائق حنطـــور في مصر يلقي نكتة لحصانه يمكن أن يكون معرضًا للاتهام بأنه يمس الأمن القومي.. فما بالك بكتاب صحفيين أو باحثين أو مفكرين أو أدباء مهمتهم هي مهنتهم فـــي نفـــس الوقـــت أن ينبهوا وينقدوا ويهاجموا ويصرخوا ويعلنوا، وتحت يـــدي وثائق نوة عقدتها جمعية منتدى الديمقراطية – والتي حلـــت نفسها منذ فترة وهـــو دليـــل آخـــر علـــى أن الديمقراطيـــة لا تستأهل في مصر منتدى! والوثائق دراسات قانونية حول مفهوم الأمن القومي في عصر المعلومات أو بالأدق حريـــة التعبير ومفهوم الأمن القومي في مصر.

وبمجرد القراءة المتأنية الفاحصة لهذه الوثـائق المـلأى بأحكام ومواد قانونية فإن بطن أي كاتب يمكن أن تكركـب ويقع قلبه في رجليه فلا يوجد أي شيء يكتبـه لا يمكـن ألا يمس مصالح البلاد وأمن البلاد لأن أمن البلاد في القانون لا يتحمل الهواء الطائر ولا النسيم العليل خذ عندك نقـلاً عـن دراسة عبد الحميد الزناتي ما يلي "يرى القانون المصري أن أي إذاعة أخبار أو بيانات أو إشاعات كاذبة (هل معنى ذلـك أن هناك إشاعات صادقة غير كاذبة.. هذه الملاحظـة مـن عندي وليس من الزناتي وكل ما بين الأقواس تبعي من الآن وصاعدًا) أو مغرضة (مرة أخرى تأتي التعبيرات الغريبـة الفضفاضة مغرضة حد فاهم يعني إيه مغرضة إنهـا كلمـة "شراب" أيضًا أي حد ممكن يلبسها وتمشي معه كما يهـوى) وتضيف المادة أن إذاعة أي دعاية مثيرة (.. ولا تفهم يعني إيه دعاية مثيرة، على طريقة دعاية طارق نور مثلاً.. دعاية كلمة واسعة أما مثيرة فليست كلمة إنها قـاموس يشـمل أي شيء!). وكان من شأن ذلك أن يلحق الضرر بالاسـتعدادات الحربية أو بالعمليات العسكرية أو يثير الفزع بين الناس (أه.. يا.. ماما!! فزع بقى) أو يضعف من جلد الأمة (حلـوه دي

وجديدة على الواحد.. وجلد الأمة من هو الذي يحدده؟.. وهل لهذا علاقة بأن الأمة مجلودة مثلاً.. ثم أعرف منين أن جلد الأمة ضعف..) المهم.. أو يضعف جلد الأمة جريمة تتراوح عقوبتها بين الأشغال الشاقة المؤقتة إذا ارتكبت مع دولة أجنبية (يعني مثلاً ظهرت في قناة الجزيرة التابعة لدولة قطر!! أو قناة أبو ظبي التابعة للإمارات) أما إذا كانت تلك الدولة معادية (بالمناسبة طبقًا للمعاهدات لا توجد دولة معادية قانونًا لمصر الآن!!) فإن العقوبة ترتفع إلى الأشغال الشاقة المؤبدة وهذه الجريمة منصوص عليها في مادة ٨٠ ج من قانون العقوبات".

ويشرح د. زناتي "أي أنه ليس من الضروري التحقيق مما إذا كانت تلك الأخبار قد حققت الغرض المقصود منها أم لا فبمجرد إذاعتها يتحقق الهدف الإجرامي حتى وإن لم يترتب على أي أثر سلبي (اتفضل يا سيدي) يقول د. عبد الحكيم فوده "أن كتابة مقال أو بيان يظهر فيه أو السخط أو الانتقاد لحالة الشعب من حيث مستوى المعيشة والدخل القومي أو تفشي فساد أو الانحراف تعتبر وفق هذه المادة من قبيل الدعاية المثيرة التي يمكن أن تضعف روح الأمة

(روح الأمة مش ناقصة) جاب د. عبد الحكيم فودة آخرها أي يمكن تطبيق أي مادة من إياهم ضد أي واحد من "إيانا" في أي لحظة من إياها وهذا المقصود بالضبط أن تكون هناك مواد تجري وراء قفاك وتجرجرك إلى أقرب سجن وليس المطلوب من حشد هذه المواد أن تسكت وتخرس أي كاتب لا سمح الله.. أبدًا.. المطلوب منها أن تتكلم (تكلم فأنت في القلب) لكن تكلم منافقًا لنا وداعيًا لحكمتنا وفضلنا كحكومة وكمسئولين أو فضفض وعارضنا لكن معارضة حلوة أو عارضنا بحماس وبقوة لكن تكون فاهمًا أننا نمن عليك بهذا الحق ومن حقنا في أي وقت أن نضربك ونسجنك ونعدمك بالقانون يا حبيبي. إن وجود عشرات المواد في القانون كفيلة بأن تجعل أي كاتب في مصر في أي لحظة جاسوسًا في ربع ساعة، يضر بالأمن القومي ويهدم السلام الاجتماعي ويضعف من جلد الأمة (المجلودة) خذ مثلاً ما يقوله د. الزناتي في دراسته الكئيبة إذا كانت مجرد إذاعة أو نشر أخبار في الداخل يمكن اعتبارها دعاية مثيرة أو بيانات مغرضة تؤدي إلى عقوبة الأشغال الشاقة وفق المادة ٨٠ ج عقوبات فإن المادة ٨٠ دال تمنع أي مصري من أن

ينشر أو يذيع في الخارج أي أخبار أو بيانات أو إشاعات كاذبة (مرة أخرى هل فيه إشاعات صحيحة؟) أو مغرضة حول الأوضاع الداخلية بالبلد ما دام من شأن ذلك إضعاف الثقة المالية بالدولة (لو تكلمنا عن القروض) أو هيبتها (لو قلنا إن الانتخابات مزورة) أو يضعف اعتبارها (مش عارف إيه اللي ممكن يضعف اعتبارها) أو باشر بأي طريق نشاطًا من شأنه الإضرار بالمصالح القومية للبلاد، ولا يتركني د. زناتي أشرح أو أفند بل يكمل هو مثاله بوضوح فإذا نشر شخص مقالاً عن استشراء التعذيب في مصر دون أن يتم تعقب مرتكبيه أو تفشي الفساد دون ملاحقته قضائيًا فإن ذلك كله يقع تحت طائلة التجريم وحتى وإن كان ما نشر صحيحًا (واخد بالك) ما دام ذلك يمس هيبة الدولة أو شرفها (وشرف الدولة طبعًا مثل عود الكبريت)..

كان يمكن أن نعتبر هذه المواد وتلك الدراسات التي تكشف وتفضح مجرد توهمات وتوجسات لا يمكن أن تلجأ إليها الحكومة حتى لا تنسف ديمقراطيتها (المنسوفة) أو تشوه صورتها لكننا نفاجأ كل يوم بأن المطاردات قائمة خلف الكتابة والكُتاب والمفكرين والباحثين (دكتور سعد الدين

إبراهيم نموذج واضح) ثم أن الدولة تستدعي من ركام موادها القانونية ما يجعل أي مفكر شارك في ندوة في الخارج عن الديمقراطية وذكر حكومة بسوء أو شخصًا أدلى بحوار لمحطة أجنبية أو عربية أو أي باحث نشر بحثًا في مجلة أجنبية لا يعجب حكومتنا فإنها يمكن أن تجعله في غمضة عين وطرفة جفن جاسوسًا!! ومسجونًا، إن أسلحة الحكومة كثيرة ومسنونة رغم أنها حكومة مسنة وأسلحة مسنة كذلك، لكن قرصتها والقبر وغضبها والسجن، وقانونها والتجسس يا حلو.

هل هانت مصر حتى يكون شعارها:
ادفعوا لنا نحارب لكم

لا أثق في د. عاطف عبيد ولا في حكومته ومن الطبيعي إذن ألا أتمنى أن تتحول هذه الحكومة إلى حكومة حرب فهي غير قادرة على التحكم في سعر الدولار ولا تفعل غير التهته أمام الفساد ومحترفة في الكذب على المواطن بأحلام تحتشد بأوهام وخرافات تكتظ بخزعبلات فكيف ستتحكم في الحرب إذن!

وأنا أعتقد أن من نكد الدنيا علينا وجـود أمثـال بعـض من في حكومتنا (وهم لا يتغيرون) في وقت السـلم وأظـن أنه سيكون بلاء من الله لو صارت هذه الحكومـة ورجالهـا حكومة مسئولة عنا في حالة الحرب!!

لكن المذهل والذي لا أستطيع أن أتصور أن مصر يمكن أن تغفره لرئيس وزرائها هو هـذه التصـريحات المفزعـة التي صرح بها لجريدتي الاتحاد والـوطن (فـي الإمـارات وقطر وأنا أنقل عن النص المنشور في الاتحاد يوم ٢٤ – ٤ – ٢٠٠٢)، ولا أستغرب من هول ما قال فالرجل لـم يكـن يومًا بالزعيم السياسي (ولن يكون) ولم يكن معروفًا في ساعة من ليل أو نهار بحسه السياسي ورؤيته (فهو خبير اقتصادي رغم أن للبعض في هذا نظرًا) ولكنني أشعر بالـذهول مـن

حفاوة عرض وتقديم هذه التصريحات في الصحافة المصرية والصمت والخرس السياسي عليها وهو الكلام الذي يهين مصر وشعبها بل وجنودها ويجعل منا مرتزقة وقتلة ولسنا عربًا أحرارًا وأبطالاً بواسل نخوض الحروب بالمبادئ والسلاح وليس من أجل المال!

تخيلوا أن صحفيًا يسأله بالنص (لا يمكن لأي منصف أن يتجاهل التضحيات التي قدمها الشعب المصري، ولكن ما يجري الآن على الساحة الفلسطينية يطالب مصر باعتبارها أكبر دولة عربية أن تتحرك؟).

فيجيب عليه إجابة يقشعر لها أي وطني مصري يشعر بالعزة والكرامة والكبرياء (هل بجوار دكتور عبيد من له هذه المواصفات كي يقول له ما نريد أن نقول!) قال د. عبيد بالنص:

- إذا أردت أن تتحرك وأن تكون جاهزًا لمواجهة التحديات لابد أن تكون لديك مائة مليار دولار.

يتحدث ويرد دكتور عبيد كأنها مقاولة وصفقة وليس كأنها معارك ضد عدو غاشم ومحتل غاصب، هذا كلام لا نفهم

منه سوى أن مصر مستعدة، بس حد يدفع، اطبخي يا جارية كلف يا سيدي؛ لا يمني المعلوم وأنا أقوم بالواجب!!!، وقد يتصور البعض أنه كلام عملي وواقعي وأنا أسأل: هل تحويلنا لمرتزقة فضلاً عن شحاتين كلامًا عمليًا!! وهل معنى ذلك أساسًا أن مصر تريد وتعتزم الحرب بس هيه مزنوقة يا دوب في مائة مليار!! وهذا ما أشك فيه تمامًا فالحكومة والقادة لا يريدون الحروب ولا يعتزمون القيام بها دفاعية أو هجومية فلماذا الإهانة لكل مصري حين يطلب رئيس وزرائنا مائة مليون دولار كي نحارب؛ نحن محاربون لا مرتزقة؛ مقاتلون لا بلطجية، وهل هذه هي سمعة مصر المطلوبة عربيًا ودوليًا الآن "ادفع لنا فنحارب لك"!! وهل يعني ذلك أن مصر ذهبت خارج حدودها لتحارب العراق في حفر الباطن ليس دفاعًا عن تحرير الكويت ولا ردعًا عربيًا بل لأنها أخذت الثمن!! وتلقت المقابل، فمن حقه إذن أي مواطن كوتي أن يقول لنا إذا ما أوضحنا له أننا حاربنا من أجل تحرير أرضه أن يرد ويفحمنا بأننا تقاضينا الثمن!!

ويبدو أن الصحفي القطري الذي أجرى الحوار لم يصدق نفسه حين سمع كلام عبيد فحاول أن يتماسك وسأله مؤكدًا،

ولكن معالي الرئيس الرأي العام العربي يطالب مصر باعتبارها أقوى دولة عربية بأن تقوم على الأقل ليس برد فعل عسكري إنما بطرد السفير الإسرائيلي فلماذا لا تطردونه؟ هل اتفاقيات السلام تمنعكم من ذلك؟

وتعال شوف دكتور عبيد كيف جاوب (واتعلم يا وزير الخارجية يا دكتور ماهر!!) رد فتح الله عليه قائلاً:

– قلت لك عايزين مائة مليار دولار، اجعل العالم العربي يضع مائة مليار دولار من الأموال العربية الموجودة في العالم ويقولون هذه موازنة مواجهة تفضلي يا مصر يا زعيمة هذه الموازن تحت أمرك تفضلي ابتدئي المواجهة!

فيرد عليه الصحفي: ربما لإتمام الصفقة:

(يعني لو توافر هذا المبلغ؟ هل ستحاربون إسرائيل؟)

فيجيب دكتور عبيد في ثقة المقاولين:

– مائة مليار تبدأ حساباتك تتغير.

لم نخرج نحن من هذا الحوار يا مصريين مجرد مرتزقة نتقاضى من الأتعاب والتكاليف والمصاريف تحت الترابيزة ولزوم ما يلزم من أجل أن نحارب (ودكتور عبيد يعرف قبل أي واحد فينا أنه لا يمكن أن يحارب حتى لو بقت المائة

مائتين لكن أهي بهدلة ومرمطة والسلام!!) بل خرجنا كمصريين من هذا الحوار بأننا مكشوفون تمامًا أمام إسرائيل وصارت تعرف من أكبر رأس فينا أننا لا نستطيع محاربتها حتى لو أردنا وأننا نسأل الله حق النشوق وعشانا عليك يا رب!! وهي دعوة لإسرائيل بما تمتلك الآن من قوة فاجرة وزعيم طائش وطايح أن يهاجمنا ويغزونا منتهزًا عدم قدرتنا الاقتصادية على دفع كلفة الحرب!

لكن قريحة دكتور عبيد لا تنضب وقد وجد التصريحات في شئون الحرب والسلام مسيلة جدًا وبسيطة خالص (وكنا نظنها صعبة) حين يسأله الصحفي بالتالي:

(في قمة بيروت تم الاتفاق على أن أي اعتداء على سوريا ولبنان هو اعتداء على كافة الدول العربية فهل ستتدخلون عسكريًا لو أقدمت إسرائيل على حماقة الاعتداء على سوريا ولبنان؟) فيجيب دكتور عبيد (واسمع إجابته وشنف آذانك منك له!).

– انس موضوع التدخل العسكري التدخل العسكري انسه تمامًا.

يرجع الصحفي يسأله:

- يعني مصر تسقط الخيار العسكري من حساباتها العربية والقومية؟.

فيرد بوضوح واضح أنه متأكد منه.

- كل الدول لا مصر ولا أي بلد يقدر على التدخل العسكري.

- وهكذا يعلن دكتور عبيد لإسرائيل وأمريكا وأثيوبيا لو لها شوق أن الوطن العربي لا يقدر على الحرب ويمكن أن نعتبره بيان هزيمة عربية كاملة، ومن حق إسرائيل إذن أن تسوي فلسطين بالأرض إذا كان ساستنا يستملحون ويسعدون وينتعشون حين يكررون هذا الكلام في كل مكان صحرا كان أو بستان!!

لكن دكتور عبيد لا يكتفي بذلك بل يسكعنا الإجابة الشافية التي تذهب بعدها لتدلق على نفسك جاز لو عندك ما ليس عند مسئولينا الآن (أقصد الدم وليس العقل!) حين يسأله الصحفي:

- وإذا كانت إسرائيل هي المعتدية كعادتها دائمًا مع العرب؟

فيجيب عبيد (وأرجوك جهز دواء الضغط بتاعك أو حقنة الأنسولين!) قال د. عبيد:

- نطالب العالم أن يرد على العدوان وإلا ستكون حساباتنا خطأ.

الله، شفت أحلى من كده، إذا اعتدت إسرائيل كعادتها مع العرب، نعمل إيه بقى يا سيدي، نقوم إيه، نطالب العالم أن يرد، الله يفتح عليك يا دكتور عبيد كنت فين يا أخي ونحن نبحث عن حل، نعمل إيه بقى، نطالب العالم أن يرد على العدوان!

الله.. أعد يا سيدي!!

فين الوخيمة؟

دخل شارون إلى غرفة مكتبه مهزوزًا مرتبكًا مرتعشًا بعيون زائغة وشفاه مرتجفة.

جرى خلفه مدير مكتبه وقد هاله المشهد وأذهله هذا الوجه المكدود المرتبك: فيه إيه يا أفندم خير يا سيد شارون، كان شارون قد جلس على مقعده وقد انتفضت كل ملامحه غضبًا.

صارخًا: كده يا حمار كيف تخفون عني هذا الخبر الفظيع الرهيب؟

اهتز مدير مكتبه وزاغ نظره وهو يسأل مستفهمًا: خبر إيه يا أفندم؟

رمى شارون في وجهه جريدة الأهرام قائلاً: ألم تقرأ هذا الخبر الذي جعلني على هذه الحالة من الرجفة والرعشة.

أمسك مدير مكتبه بالجريدة: أي خبر؟

رد عليه شارون: وكمان مش عارفه لوحدك!!

أخذ منه الجريدة وبدأ يقرأ من الصفحة الأولى (عدد الأهرام ٢/٤/٢٠٠٢) الحزب الوطني يحذر شارون من تصرفاته غير المسئولة ومن الآثار التي يمكن أن تنجم عنها.

انحنت قامة مدير مكتب شارون وهو خزيان: أنا آسف فعلاً.. لقد أهملت خبرًا على هذه الدرجة من الأهمية والخطورة!

أجابه شارون: وبإيه يفيد الندم، دلوقت أنا أعمل إيه، دا أنا من ساعة ما قريت الخبر عملتها على روحي، تخيل أنت الحزب بيحذرني، اطلب لي حالاً مدير الموساد ومدير الشاباك ورئيس الأركان وكبير الحاخامات وبعدين ادعي ربنا يعديها على خير!!

طبعًا هذه مسخرة المقصود منها أن تضحك على الحزب الوطني الهش القش الذي لا يملك ذرة من قوة ولا يكاد شارون يسمع عنه أساسًا ويجد هذا الحزب الساذج في نفسه القدرة على الاستهبال ويحذر شارون الذي لم يعر مجلس الأمن ولا القوى الدولية ولا مذلة الحكام العرب ولا الخيانة السريعة على الماشي الذي ارتكبها كذا حاكم وملك عربي اتصلوا به ليوصوه على عرفات ولم يهتم بالمنظمات الدولية لحقوق الإنسان ولا نشطاء أوروبا العظام الذين اخترقوا الحصار حول رام الله وعرفات، لم تهتز له شعرة من هؤلاء

جميعًا لكنه سينهار أمام هذا البيان الطري الذي أصدره اسم الله عليه الحزب الوطني!!

ليس هناك أي تفسير لبيان الحزب الوطني وليس هناك أي هدف له أهو بيان وخلاص، أصدرته ناس فاضية رغم مشاغلها الفظيعة الشنيعة في انتخابات المحليات النزيهة، لكن الذي يلفت النظر فيه أن أصحاب هذا البيان وحزبهم هم دون شك السبب في كل البلاوي التي نحياها، هؤلاء المصابون بالشيخوخة والذين أكلتهم العتة السياسية والذين ركبوا على أنفاس الأمة كل هذه السنوات بتزويرهم للانتخابات وتزييف إرادة الشعب ونفاق وعبادة الحاكم والتصفيق والموافقة المتوهة في البرلمان لكل القوانين المكبلة للحرية والمقيدة الديمقراطية أصحاب جنينة الحيوانات السياسية التي ترفع شعار أن للديمقراطية أنياب ومخالب، فاكرينا أرانب أو فراخ بيضا!! هؤلاء أصحاب قوانين رفع الدعم عن المواطن ومنح الدعم للحرامية وأنصار حماية الفساد الذي عطن الوطن ونشر في الحياة السياسية والاقتصادية العفن، هؤلاء الذين يبايعون ويتملقون ويمجدون ويزحفون أمام كل حاكم وسلطان وسلطة وسلطان هم الذين أصابوا الوطن بالضعف أمام

الأعداء وجعلوا إسرائيل تستخف بنا وتستهتر بقوتنا وتتعامل معنا كشعوب من القطعان والحمير نمشي بالكرباج ونجــري وراء العشب ونخاف من ظلنا، هذا الحزب وأمثالــه الــذين جعلوا إسرائيل تبدو أمام العالم كله واحة الديمقراطيــة فــي الشرق الأوسط من تداول سلطة وحريــة تكــوين أحــزاب وسحب ثقة من حكومات وإسقاط رؤساء، بينما نبــدو نحــن (وهذا أصح من الصحة) ماشية للحاكم وغلمانًــا للسـلطان، وجعل هذا الحزب وأصحابه المصابون بالزهايمر وتصــلب الشرايين جورج بوش يقول إن شارون حاكم منتخب يستجيب لمواطنيه، وهكذا يقول لنا بوضوح أن حكامكم ليسوا منتخبين وأنتم ولا حاجة يا بقر (نحن يعني)؛ كل هذا بفضــل أكــوام المبايعات وبرقيات التأييد وانتخابات التزوير وأزهى العصور وهامش الديمقراطية وهاموش الحرية الذي نعيشه!

وبعد هذا كله يأتي الحزب الوطني ويحذر شــارون فــي بيان قد نجده في تواليت مكتب شــارون ولــيس فــي درج مكتبه!!

يشبه هذا الهذيان الذين يخرج به بعض المســئولين مــن نوع سلام البطيخ أو الخيار الاستراتيجي حيث يضربنا العدو

بالمدافع ويهين كرامتنا ويهددنا جميعًا عربًا وعربانًا ثم نخرج عليه ونقول له ردًا على عدوانه وإهانة كرامة اللي خلفونا وحكمونا "سلامنا خيار استراتيجي" والحقيقة أنه سلام مخلل كالخيار الاستراتيجي المخلل، إن هؤلاء قد فقدوا العقل قبل أن يفقدوا الإحساس، لا أحد عاقل يردد هذا الكلام، ربما أحد خائف، وربما أحد تابع، ربما أحد خانع، لكن ليس عاقلاً أبدًا!

كما يخرجون علينا فيما يشبه الملهاة أو المأساة محذرين شارون من عواقب وخيمة؟، وأنا كمواطن مصري عربي أهبل أريد أن أعرف وخيمة واحدة من تلك العواقب؟ ماذا ستفعلون يا بتوع الوخيمة غير أن تضربوا بالعصى وبالقنابل المسيلة للدموع أبناء بلدكم المتظاهرين ضد إسرائيل، ماذا ستفعلون إلا نشر مدرعات الأمن المركزي لمواجهة الطلبة والشباب المتظاهر غضبًا وقرفًا (منكم قبل أن يكون من إسرائيل)، بتتشطروا علينا أم عليهم، بتضربونا إحنا ولا همه، عواقب وخيمة عليهم ولا عليكم!!

يا حكومتنا السنية: بنية حضرتك
لا مؤاخذة أساسية!

كل ما نرجوه حين ترخ المطرة على شوارعنا وبيوتنا ومدننا أن تتوقف الحكومة فورًا عن اللغو والرغي الذي عودتنا عليه منذ سنوات وهو الحديث عن البنية الأساسية التي أفنت الحكومة الغالي والرخيص من أجل عيونها تلك الشقراء اللعوب البنية الأساسية فضلاً عن أنها تذل وتعاير المواطن في الرايحة والجاية بحكاية البنية الأساسية، كل مرة يطلع واحد من مسئولينا الكبار ويسكع الشعب كلمتين عن البنية الأساسية كأنها فاجورة واختراع فظيع ليس موجودًا في أي بلد في العالم غير مصر، وكأن رصف الشوارع وإنشاء الكباري وحفر المجاري محتاجة معجزات إلهية أو إلهامًا سماويًا أو عباقرة ذرة وتكنولوجيا، ثم تأتي المطرة فإذا بالشوارع غرقانة والمواصلات واقفة ومدن وقرى بالكامل مغلقة والبلاعات مسدودة والبلد فعلاً غرقانة (بالمعنى الفعلي والمجازي)، هل سمعت أبدًا عن بلد في العالم يتم تعطيل الدراسة في معظم مدارسه ولا يذهب الموظفون إلى أعمالهم والطلبة إلى جامعاتهم لأن الدنيا مطرة!! هل هناك دولة في العالم تتعطل وتصاب بالشلل لو المطرة مطرت ساعتين ثلاثة بغزارة.. وبعدين يجي يقولك

بنية أساسية!! أين هذه البنية بسلامتها حين تمطر سماء مصر.. إنها مجرد مطرة فماذا تفعل الدول حين يكون هناك فيضانًا وماذا كنا نفعل نحن إذن قبل السد العالي وقبل بنية حضراتكم الأساسية حين كان فيضان النيل يعلو ويجرف!!

لو البنية الأساسية لا تعمل في المطرة فهذا معناه أنها بنية أساسية على ما تفرج، فاشلة ومزيفة أو غير كاملة ومن ثم لا مبرر لمعايرة الشعب بها تمامًا مثل الثرثرة السمجة حول بناء مئات الكباري بينما في مصر أصبح في كل مدينة وربما في كل حي كوبري يطلق عليه كوبري الموت من فرط الحوادث التي تجري فوقه، وكل يوم نقرأ حادثًا عن كوبري موت آخر، بل هناك كذلك طرق موت، لقد صار تعبير كوبري الموت وطريق الموت تعبيرًا ذائعًا ومشهورًا ودخل في المجموعة نفسها نفق الموت ومزلقان الموت ولم لا فمصر تشهد سنويًا حوالي ٢٢ ألف حادثة طرق وكباري حصيلتها طبقًا لأرقام مجلس الشعب نفسه قرابة الخمسة آلاف قتيل سنويًا وهو رقم يتجاوز شهداء مصر في كافة حروبها ضد إسرائيل بمراحل!! وهناك قرابة ١٨ ألف مصاب وجريح كل سنة من جراء هذه البنية الأساسية، وهي

البنية نفسها التي أخرجت علينا مسئولاً منذ أسـابيع يتبـاهى بزيادة عدد المدارس المبنية في السنوات الأخيرة وتضـاعف عدد التلاميذ في مختلف المراحل وكأن هـذا إنجـاز فعـلاً والمستغرب أن المسئول كان يتحدث كأنما جاب الديب مـن ديله (بس على الله يكون له ديل) وكأن هذا إنجاز لم يأت به الأوائل (بالمناسبة وللمفارقة لم يكن وزير التعليم هـو مـن يقول هذا الكلام)، إن زيادة عدد المدارس وتضـاعف عـدد التلاميذ تطور طبيعي وعادي للغاية نتيجة تزايد عدد السكان والأطفال في سن التعليم وأي حكومة في الوجود كانت لتفعل ذلك ودون قرف من الشعب ومعايرة له على تختة الفصـل، الإنجاز الحقيقي يبقى في نوعية هذه المدارس وآدميتها (وقد غلبنا شرح أن هناك فصولاً تضم مائة تلميذ.. آه والله العظيم وأن هناك تلاميذ يأخذون معهم الكراسي للمدرسة كي يتمكنوا من الجلوس في الفصل) والإنجاز كذلك في تطـور ونضـج مناهج التعليم فضلاً عن ارتفاع مستوى وكفاءة المـدرس.. وأظن أن أمريكا أو فرنسا أو ألمانيا أو حتى قبرص ومالطة ليس فيها دروس خصوصية مجاميع بعد الظهـر وربمـا لا يجود مثل ذلك في دول عربية كثيرة وحتى إفريقيـة وهـذا

يعني فيما يعني أننا دولة تعليمها بعافية وعلى قـدها شـكلاً وموضوعًا ومن المفاجئ فعلاً أن يتخرج في نظام هذا شكله وذلك سمته طلبة متفوقون ومتعلمون نابغون، إنهـا معجـزة إلهية مثلما أن الله يخلق من ضهر الفاسد عالم فهو يخلق من ضهر النظام الجاهل متفوق..!! أما ترديد المسئولين لزيـادة عدد المدارس كأنه إنجاز من إنجازات البنية الأساسية فـإن ذلك يشبه تمامًا ترديد إدارة المرور لزيادة عـدد المخلفـات على سائقي السيارات كأنها إنجاز يعني أن الإدارة زي الفل وشغالة الله ينور والحقيقة أن زيادة عدد المخالفات معنـاه أن عدد مخالفي قواعد المرور يزداد، معناه أن الناس لا تحتـرم قانون وقواعد المرور، معناه أن المرور فاشل وليس ناجحًـا بالمرة فعندما تقول أنني كشفت هذا العـام عشـرين طالبًـا غشاشًا في لجنة الامتحان بزيادة قدرها عشر طـلاب علـى العام الماضي فهذا معناه أنك إما كنت نائمًا في اللجنة العـام الماضي أو أن الطلبة اكتشفوا أن الغش أبرك وأسـهل أو أن الامتحان صعب ورذل ولا يراعـي ظـروف الطالـب ولا التعليم!! ربما تكون زيادة عدد المخالفات نجاحًا في التحصيل

لكنها من المؤكد أيضًا فشل في القانون والنظام الذي لا يحترمه أحد!!

الخيبة القوية أن الحكومة تقدم مثلاً مؤتمر الدول المانحة (تأمل اللقب.. الدول المانحة دون أن نخجل من أننا نحتاج المنحة، دون أن نحس على دمنا أننا في حاجة إلى التوسل والتسول ومنحة الدول!!) المهم تسوق الحكومة دون خجل ولا حياء هذا المؤتمر الذي انعقد في شرم الشيخ منذ أيام على أنه إنجاز لها، تخيلوا!! لأ وشهادة على الثقة في الاقتصاد المصري، يا نهار أرزق ما لو لم تكن سلفة وقروضًا وشحاذة!! حتى والحكومة تشحت عايزة تقولنا إن الشحاتة إنجاز...!! وبعد سنوات من إذلال الشعب بأن اقتصادنا قوي ويتقوى وأننا لن نحتاج القروض مثل أيام زمان الجربانة الفقرانة وفي الوقت نفسه كنا نقترض ثم فتحنا على البحري ودخلنا في الجامد ونقترض بشدة وبشروط وبلهفة وبتقبيل العتب ونستضيف في شرم الشيخ مرابي الاقتصادي العالمي ثم يتم ترويج أن هذه الأموال القادمة من الدول المانحة هي منح وقروض!! وهذا يشبه تمامًا أن أقول أنني وعدنان خاشوقجي نملك مليار دولار و٢٢٠ جنيهًا

مصريًا، وحقيقة الأمر أن خاشوقجي مثلاً هو الــذي يملــك المليار أما أنا فأملك الــ ٢٢٠ جنيها، فالحكومة تدمج المــنح مع القروض حتى يتوه الأمر لكن الحقيقة أن المــنح (وهــي مشروطة ولها أوجه إنفاق محددة) تبلغ حوالي ٩٠٠ مليــون دولار فقط بينما الباقي وهو أكثر من تســعة مليــار دولار هي قروض مطلوب أن نسددها بفائدة قد تضاعف إجمــالي الديون في وقت سدادها، لكن هذا كله كوم والزن على دماغنا بأن اقتصادنا قوي ومتين وأنها شــوية أنفلــونزا اقتصــادية أو دور برد ويعدي، كوم آخر!! هل هذه معقولة وهل تخيــل على شعب إلا لو كان لا مؤاخذة شعب أهبــل أن الحكومــة تقول إن اقتصادها قوي لدرجة أنها تستلف وتقترض!! طيب نفهمها إزاي هذه الحكاية، عمرك سمعت واحدًا من زملائــك يقولك الحد لله قوي يا أخي الواحد كان فين وبقى فين تعرف إن رصيدي في البنك دلوقتي بقى بالآلاف، تهنئه وتســتأذن منه كي تمشي فيمسك في ذراعك ويقولك: والنبي ما ألاقيش معاك ميتين جنيه سلف أحسن مزنوق قوي ومــش عــارف أدفع مصاريف العيال، ساعتها سوف تدرك أن زميلك لــيس كذابًا بل مريض فعلاً وسوف تسلفه الميتين جنيــه وتــزود

خمسين أخرى من أجل الذهاب به لمستشفى دكتـــور يحيـــى الرخاوي للأمراض النفسية!!

كم بهلوان في حياتنا إذن؟

هل حصل ورأيت بهلوانًا.. أغلب الظن إن لم تكـن قـد رأيته في السيرك فقد رأيته.. آه رأيته فين..؟ يجلـس علـى مكتب أمامك.. يحاضر على منصة.. يدرس في كلية يقـود في حزب.. يخطب في مؤتمر.. يصرخ في تليفزيون.. يكتب في جريدة.. أم يا ترى يا هل ترى رأيته في المرآة.. انتبه قد تكون أنت هذا البهلوان.. وقد أكون أنا.. وربما نكون جميعًا في سيرك.. (حاسب ذراعك أحسن يأكلها أسـد أو نمـر.. حاول أن تخرج من القفص الآن.. خد بالك لا تخرج بظهرك فلا أحد يعلم ما الذي يمكن أن تفعله فينا الوحوش التي نضع أيدينا في فكها وبين أنيابها من أجل أكل العيش!!)..

صحيح كم مرة ضبطت نفسك وأنت بهلوان فـي شـغلك وأمام رئيسك وتحت يد مديرك وأمام الضابط في القسـم أو المرور.. وبين يدي مدرسك أو أستاذك في الجامعة.. أو مع زبون في محل أو كزبون مع صاحب محل..؟

كم مرة تضحك على نفسك وعلى الناس.. كم مرة نطيت الحبل أو مشيت على الحبل.. كم مرة ارتديت قناعًا.. وكـم مرة خشيت أن تخلعه.. أو نسيت أن ترفعه.. أو نسيت أنـك ترتديه؟

إذا كانت الحياة قد دفعتك إلى ارتداء القناع فعلــى الأقــل حاول أحياناً أن تخلعه لا لتحرقه لا سمح الله وتمشي من غير قناع بل فقط لتغسله وتنظفه فالملاحظ هــذه الأيــام انتشــار ظاهرة الأقنعة الوسخة، لا بأس من الأقنعة بس على الأقــل تبقى نظيفة أو تظل قناعًا بوجه واحد إنما لــيس معقــولاً أن معظم الناس ترتدي في اليوم أكثر من قناع وربما تلبس كــل ساعة قناعًا.. كفاية حرام!

يذكرني حديث البهلوانات والأقنعة برواية مسرحية مريرة وموجهة كتبها سيد الكتابة العربية يوسف إدريس في زمــن طين وعجين تعرض فيه لحصار مــن الســلطة ورجالهــا وصحفييها ومسئوليها، فإذا به يقدم نصًــا مســرحيًا رائعًــا في شجاعته وعميقًا على فرط وضوحه، الــنص المســرحي حمل عنوان "البهلوان"س وهو منشور ومتاح للجميــع لكــن مؤامرة من الصمت تحيط به حيث يخشى عــالم الصــحافة والسياسة والسلطة من مواجهة نفسه في مرآة صافية صادقة قد تنتهي به إلى الفضيحة.. كتب يوسف إدريس فــي نوبــة من الشجاعة والوجع تصديرًا للمسرحية قال فيه (أي تشــابه بين شخصيات هذه المسرحية وأحداثها وبــين الواقــع هــو

من قبيل الصدف المحضة إذ أن واقعنا الحالي يفوق أي خيال)، تبدأ أحداث المسرحية التي كتبها يوسف إدريس عام ١٩٨٣ بسيرك يستقبل بهلوانًا جديدًا لاختباره وهو زعرب الذي يثبت نجاحًا فائقًا في الامتحان ونفهم من شروط الاتفاق أنه لن يخلع قناعه طول ما هو في السيرك كما نعرف أن نظيم بك صاحب السيرك يرفض أن يراه أحد وسوف يتلقى الأوامر منه دون أن يتعرف عليه، أما مدير السيرك فيفاجئنا بسؤال زعرب البلهوان: إزاي واحد محترم زيك يا حسن بك رئيس تحرير قد الدنيا ومشهور جدًا وإشي إذاعة وتلفزيون وتعليقات وأحاديث.. راجل زي ده.. إيه يخليه يوطي نفسه ويشتغل بهلوان بالليل في السيرك بتاعنا ده؟ فيرد عليه رئيس التحرير حسن المهيلمي: عشان أتوازن..

ننتقل بعد ذلك إلى مكتبه في جريدة الزمن لنراه في حالة عبث مع سكرتيرته كذلك يمليها مقالاً افتتاحية في مهاجمة روسيا ثم يتلقى تعليمات جديدة بمهاجمة أمريكا فيبدل كلمة روسيا بأمريكا ويظل المقال هو نفسه، في منزله نجد زوجته قلقة من حكاية خروجه كل ليلة غير عادته فيقنعها أنه ذاهب إلى الجريدة للطبعة الثالثة وهو يشكو لها من متاعب منصبه

فترد عليه قائلة (مش دي الشغلانة اللي حفيت عشانها؟ مش الشغلانة اللي خلتك تمسح جوخ وبلاط لكل حكومة تيجي؟ مش دي اللي خلتك تنافق طوب الأرض علشان توصل لها؟) يتذمر حسن رئيس التحرير من كلامها ويمضي إلى السيرك مواصلاً عمله الناجح والمبهر كبهلوان، لكن بعد فترة نكتشف أن منصبه إلى السيرك مواصلاً عمله الناجح والمبهر كبهلوان، لكن بعد فترة نكتشف أن منصبه كرئيس تحرير مهدد بالضياع حيث تبدل رئيس مجلس الإدارة من المحلاوي بك إلى الغرباوي بك وكان حسن قد هاجم الغرباوي بعنف وبخسة لصالح المحلاوي، يظهر علاء أحد الصحفيين الدوغري الشرفاء في مكتب حسن ليعلمه بتولي الغرباوي رئاسة المؤسسة فيبدي حسن على الفور استعداده لخدمة الغرباوي وأمام دهشة علاء يخبره رئيس التحرير: بقى شوف يا علاء إحنا هنا بنخدم مصر، كده ولا مش كده.. وأي واحد تختاره مصر نحطه فوق رأسنا، يرد عليه علاء مشككًا أنه يخدم مصر.. فيرد رئيس التحرير حسن زعرب البهلوان: معاذ الله.. دا أنا باموت في الكرسي اللي أنا قاعد عليه ده والله باموت في الكرسي!! ده دمي بيتحرق وعندي

سكر وجاني ضغط دم وكله ده ليه؟... عشان مصر...، يرد عليه علاء بمرارة وكأنه يقول ما نريد جميعًا أن نتنيل نقوله: مصر مصر تحيا مصر.. كل حاجة مصر مصـــر.. اللـــي عملت مصر واللي سوت مصر.. حد شاف مصر دي؟ مين مصر دي؟ كل واحد يقول مصر عايزة، مصر عايزة وكأن مصر مش موجودة قدام عينينا، وشايفنها عايزة حاجات تانية خالص!!

وبينما يعيش حسن رئيس التحرير أزمة استبعاده المؤقت من منصبه فهو يواصل البهلوانية من أجل إرضاء الـــرئيس الجديد والفوز بمنصبه من جديد في الوقت نفســه يمـــارس عمله كبهلوان في السيرك على أفضل ما يكون ونسمعه يقول في لعبة المشي على الحبل أمام الجماهير: "ماتخفش يا واد.. ده إحنا أساتذة في المشي على الجبل، ده الواحد مننا يتولـــد ماشي على الحبل ويفضل ماشي عليه لغاية ما يموت وفـــي الآخرة برده بيمشي على الصراط المستقيم والجدع يا واد هو اللي ما يوقعش وأنت جدع، اللي بيسوق ماشي على الحبـــل واللي ماشي بيسوق على الحبل.. المســئول علـــى الحبـــل والموظف متشعبط فيه رئيس التحرير على حتة دين حبـــل،

حبل إنما خازوق، حبل واقف إذا فضل عليه مخــوزق وإذا وقع يتخوزق أكتر.. الكراسي عندنا حبال والبيوت حبال إذا سبت الحبل ومشيت على الأرض يقولوا عليك جبـــان أكيـــل عيش وارزقي وإذا انقطع بيك الحبل وانقطع عيشك يقولـــوا هو اللي غلطان مين اللي قال له يمشي على الحبـــل.. أيهـــا الحبل كم من الجرائم ترتكب باسمك (فجأة ينطلق سائرًا فوق الحبل عابرًا إياه في براعة شديدة) "لعبة الحبل تفيده كثيـــرًا حيث يصل إلى رئيس مجلس الإدارة الجديد الغرباوي ليعتذر له عن تهجمه السابق: "غصب عني يا غربـــاوي بـــك والله غصب عني" فيرد عليه غرباوي: "أحد بيكتب غصب عنـــه" فيرد حسن رئيس التحرير البهلوان "آه توجيهات أنا يا باشـــا عمري ما كتبت إلا بتوجيه هو أنا مجنون أكتب مـــن غيـــر توجيه، أنا مؤمن إن فوق كل ذي علم عليم، والعلـــيم أكتـــر يوجه العليم أقل "لكن الغرباوي الذي يأمره بمهاجمة رئيســـه السابق المحلاوي بك يعود ليطرده من الجريدة بعدما كشـــفه للناس، ثم إذا بزوجته تكتشف أنه بهلوان في سيرك فيبرر لها ما فعله "ويعترف حسن: عشان أتوازن طول النهار بشـــتغل جد جد وشغلنا كله كدب كدب ولازم أكذب وأنا جد.. أبقـــى

جد جدًا وأنا بكذب، استحملت في الأول كان فيه هدف قدامي أني أمسك الجرنال أبقى رئيسهم كلهم بالكذب بالذوق بالجد بالعافية بمهاودة كل واحد على عقله بسكك الجن الأزرق نفسه ميقدرش عليها وصلت وبقيت رئيس تحرير ولقيت نفسي مش قادر أواصل بقى، خلصت، كل الكذب اللي عندي خلص وكل النفاق اللي عندي خلص وكل الفهلوة والفبركة والضحك على الذقون خلص، قلت أبقى بهلوان علني وشغلوني في السيرك، أنا كان حاجة من الاثنين يا أفضل جد زي ما أنا وأتجنن يا أفضل جد زي ما أنا الصبح بس وبالليل اشتغل بهلوان "المفاجأة التي تنتظر حسن أو زعرب البهلوان أن صاحب السيرك لم يكن سوى المحلاوي رئيسه القديم وقد تحولت ملكية السيرك إلى الغرباوي الرئيس الجديد الذي ينوي طرده كذلك من السيرك فيرد عليه حسن: عشان صاحب السيرك بقى صاحب جرنال عملنا كلنا بهلوانات، فيجيبه غرباوي: والله انتوا اللي علشان بهلوانات عملنا ليكم الجرنال سيرك، والسيرك جرنال!

وبتفاصيل عديدة تنتهي مسرحية البهلوان ليوسف إدريس لكن المؤكد أن صاحب السيرك لا يزال هو نفسه أما البهلوان رئيس التحرير فأكتر من الهم على القلب.. وانظر حولك!!

الخواجة والشيال

هبط الآن على رصيف ميناء دمياط، التفت حوله، تأمل الوجوه بملامحها التي يراها لأول مرة، هو هنا كي يفهم تلك الوجوه حين تبتسم وتغتم، حين تعبث وتهتم، يحاول أن يفك رموزها ويغوص في أغوارها ويستكشف عقولها ثم يدخلها لو كان هناك وقت (..) قطع صمته شيال اندفع نحوه في حماسة وقال: حمدًا لله على السلامة يا خواجة، استغرب الرجل من الشيال الهاش الباش كأنه ينوي حضنه، أضاف الشيال: أنت جئت على مركب "بوميلا".. مش كده يا خواجة، شكلك مبيعرفش عربي لكن صبرك بالله همه شوية في البلد دي وتتكلم عربي أحسن من سيبويه، هات الزكايب بتاعتك هات، على فين العزم إن شاء الله، القاهرة وللا المنصورة، شكلك رايح القاهرة..

كان الرجل مسافرًا فعلاً إلى القاهرة لكنه مكث في دمياط قليلاً وسافر للمنصورة أيضًا، جلس على المقاهي وشرب عناب وينسون وضرب حجرين نرجيلة ودخل جوامع وزار الحسين وعمرو بن العاص وقابل شيوخًا والتقى بأمراء وعسكر وتجرع خمرًا غريبًا في حانات فقيرة ولف ودار وراح وجاء ونام وأكل وشرب ثم عاد لميناء دمياط..

ولا يعرف لماذا تذكره الشيال نفسه بعد عام كامل، حمل الشيال أشياء وحاجات المسافر الأوروبي العائد لبلاده وسأله مازحًا: إنما اسم الكريم إيه؟

رد الخواجة مبتسمًا: والله أنت راجل عسل.. اندهش الشيال: دا أنت عرفت عربي هوا! عمومًا نورت البلد كلتها يا خواجة، رد الرجل في هدوء كأنما يأتمنه على سر: أنا اسمي جودفري البويوني.. قال الاسم ببطء محشو بالسعادة وحاول الشيال أن يردده معه مرة أخرى ليحفظه...

بعد عشر سنوات من هذه الزيارة عاد جودفري البويوني إلى الشرق؛ فقط تغير الوضع قليلاً؛ من مجرد سائح ومسافر إلى أول حاكم للصليبيين على القدس مملكة الرب!

كان هذا منذ ٩٠٠ سنة!

من حقك تمامًا وأنت تشاهد الاستعداد الأمريكي بالسفن وحاملات الطائرات والصواريخ وآلاف الجنود والوفود أن تشغل بالك بالسؤال الحارق الخارق: هل هي فعلاً حرب صليبية؟ خصوصًا وأنت ترى جنود الأفغان لا يزالون يركبون الخيول ويجرون بين الرمال والجبال (بل وبعضهم يمسك بالسيوف كأن التاريخ لم يمر على أفغانستان)، يقسو

عليك السؤال: هل هي فعلاً حرب صليبية كما انفلت وفلت بوش وقالها! سوف تسمع صوتًا يردد في رأسك كلام الساسة والسادة الذين نفوا أنها حرب صليبية، صحيح كيف تكون حربًا صليبية ولماذا؟ الحملات الصليبية كانت من دول وإمارات مسيحية صليبية ضد دول وإمارات مسلمة بغرض احتلال الأماكن المقدسة في فلسطين والقدس.. والآن كما نعرف جميعًا الأماكن المقدسة أساسًا محتلة!! فلا حاجة للغرب أن يحررها وحليفته وابنته البكر الرشيد إسرائيل هي المسيطرة على القدس ومقدساتها!! ثم إن الحملات الأمريكية الآن بمشاركة ومحالفة من مسلمين ودول إسلامية مما ينفي الصليبية عنها!! ذلك ما سوف تسمعه وشكله يخض ويدفعك إلى تصديقك لكن المؤسف حقًا أنه ليس صحيحًا والحملات الأمريكية التي تنطلق بعد ٩٠٢ سنة من الحملات الصليبية هي صورة عصرية منها ونسخة مصححة ومنقحة ومزيدة وأمور التشابه والمشابهة بين الحربين الصليبية القديمة والحديثة كثيرة ومفرطة في وضوحها!

الخطاب الرسمي الذي أطلقه البابا أوربان الثاني في مجتمع كليرمونت (١٠٩٥م) وهو صافرة البدء السياسي

والديني للحملات الصليبية دعا إلى الاتجـاه لأرض كنعـان التي تفيض لبنًا وعسلاً... ويمكن بعد كل تلـك السـنين أن نضيف لبنًا وعسلاً.. وبترولاً ونفطًا!!

الصورة قبل الحملات الصليبية تكاد تشبه تمامًا الصـورة الآن، أمراء وملوك ومفكرون ودعاة (صـحافة وتليفزيـون أيامها) متعصبون ضد الإسلام حضارة وشعبًا مـع تـرويج دعايات مزرية عن الإسلام والمسلمين، بطرس الناسك عـاد من فلسطين ليقود حملة إعلامية ودعائية هائلة في جوانـب أوروبا مستغلاً بلاغته وقدراته الخطابية وشخصيته المـؤثرة والآسرة بملابسه البالية (زاهد بأه) ودأبه وتجواله وتصميمه؛ كانت حملته الدعائية والإعلامية قائمة علـى أن المسـلمين همج، ضد الحضارة المسيحية الغربية، متوحشون وسـفاكو دماء، ضد الحرية (والديمقراطية) كان جهاز الإعـلام قويًـا فاجتذب العامة والبسطاء حيث كانوا (ولا يزالوا) لا يعرفون عن الإسلام شيئًا وانضموا إلى موجات الإعـلام والدعايـة وصدقوا بطرس الناسك تمامًا حتى أنهـم كـانوا ينزعـون شعرات من حماره للتبرك به!! التقط الأمر كلـه أصـحاب نظرية صدام وصـراع الحضـارات (مـا زالـت أتكلـم

عن الماضي.. لاحظ!) وقد تزعم مؤرخو ومفكرو بيزنطة وأوروبا الحزب الذي يروج لتلك النظرية حيث (التهديد الإسلامي للإمبراطورية الغربية) وأن الإسلام دين العنف والقسوة والدموية!! ألا تشعر بشيء قاس من الشبه بين زمن الحملات الصليبية وزمن الحملة الأمريكية حيث المطاردة والاضطهاد الأمريكي والغربي للمسلمين هناك والالتصاق الحاد بين صورتي المسلم والإرهابي الدموي الانتحاري القاتل وعشرات الكتب والأفلام وآلاف المقالات والكتابات التي تتعامل مع العرب والمسلمين باعتبارهم الخطر والتهديد على الغرب وحضارته، من فترة ليست قصيرة وتتردد في الأصداء الغربية والأمريكية – قبل أي اعتداء على المركز التجاري والبنتاجون – فيما يشبه النبوءة أو الترصد أو التصنيع عبارات الإسلام العدو الأخضر وأن الإسلام هو العدو الجديد بعد زوال الشيوعية ولم يكن ذلك يصل للمواطن الغربي على أن المقصود هو التطرف الإسلامي بل كان يصل بوضوح (ولعله كان المستهدف فعلاً) على أنه الإسلام عمومًا وإجمالاً فكان طبيعيًا أن تحتشد الشعوب هناك في انتظار اللحظة التي تسمح لهواجسها ومشاعرها وأفكارها

الدفينة أن تظهر!! ألم يقل بوش (ولا عذر لجهله فأكثر من ٩٠% من الأمريكان راضون عن ذلك الجهل) في خطابه أمام الكونجرس (لعله مجمع كليرمونت الجديد) أن الإرهاب (الإسلامي طبعًا) يهدد أمريكا لأن الإرهاب يكره الحرية والديمقراطية والسماحة!! ومع ذلك فالمواطن الأمريكي والأوروبي لم ينتبه لمحاولات بوش الدؤوبة للإفلات من اتهام المسلمين وتجاهل المواطنين المتعصبين (والمتدينين والطيبين وهذا هو الخطر) مراوغات بوش وغيره وحرق بعضهم المساجد وقتل بعضهم المسلمين فهل كان بوش صادقًا فيما قال أم أن الجمهور كان نبيهًا حين سمع؟! الحقيقة المخيبة للآمال أن حادث الثلاثاء الدامي في أمريكا لم يفجر العداء للإسلام والمسلمين بقدر ما أزاح الغطاء عن العدو الموجود والمحفور في الثقافة الغربية والأمريكية وكشف عن روح متعصبة وعنصرية مخبأة تحت جلد الثقافة الغربية الزاعمة للتنوير والتحضر!

لعلنا ندرك ذلك التشابه الذي يجمع الروح الفكرية والثقافية قبل الحملات الصليبية والأمريكية رغم ما بينهما

من فارق زمني يصل إلى أكثر من ٩٠٠ عام كأنها لم تغير شيئًا وكأن أحدًا لم ينس أو يتناسى!

نذرت جماعة فرسان الداوية نفسها لمحاربة المسلمين أثناء الحملات الصليبية إلى الدرجة التي أطلقوا عليها لقب رهبان الفروسية، المفارقة أن هؤلاء (رهبان الفرسان) أصبحوا بعد سنوات من الحرب صيارفة وملاك ومدراء بنوك!!

هنا يبدو الترابط الوثيق بين الدين والتجارة، بين الاقتصاد والحرب، لقد كانت أوروبا قبيل الحملات الصليبية تتصارع من أجل الفوز بتجارة الشرق والتي كان العرب والمسلمون مصدرها ووكيلها في المنطقة، نشب طموح (تحول إلى صراع) للحصول على وكالة الثروة إلى الحد الذي جعل تجار مدينة البندقية (وهي الأشهر والأهم وقتها) يرفعون شعار (نحن بنادقة أولاً ثم مسيحيون ثانيًا) الأمر واضح بيزنس از بيزنس يا خبيبي؛ هناك ثروة في يد شوية بهايم (من وجهة نظرهم) لابد من السيطرة عليها وتدويرها لصالح الأيدي الغربية لذلك أتمنى أن تجمع تلك الخطوط مع الأهداف الأمريكية في الحملة الأمريكية حيث الرغبة في

السيطرة على منطقة في العالم هي بحر قزوين المرشحة لإنتاج بترول هو الأغزر والأعظم في المستقبل، ثم وضع كذلك كل الخطط المطلوب تنفيذها لضرب العراق وإسقاط بغداد مع السيطرة الكاملة والمطلقة على مناطق البترول والطاقة في العالم وجود الأذرع الطويلة للولايات المتحدة في آسيا والجزيرة العربية في تطويق محكم لأي بزوغ إسلامي محتمل والوقوف على باب الصين وانتظار خروج التنين من بوابة السور!!

كان الإقطاع في أوروبا مسيطرًا وقت الحروب الصليبية وهناك قطاع ضخم من البشر على وشك التذمر والمعارضة للنظام الحاكم (حاول أن تتصور معي أنهم معارضو العولمة ومناهضو الاستغلال الذي لابد من إنهاء نفوذهم وإشغال الناس عنهم وإسقاط مزاعمهم) وكان هناك صناعة عسكرية ضخمة قوامها الفرسان أولئك بلا أرض أو ثروة وفي نفس الوقت جهاز معبأ ومتميز في حاجة لتجربة أسلحته وخططه وشجاعته مع الفوز بثروة ونفوذ وسلطة (لعلها الآن شركات ومؤسسات السلاح في أمريكا) وأظن الشبه واضح والشبهة واردة!!

**

ما الذي يجعل بوش يخوض حربًا صليبية على أفغانستان؟ تدفعه أفكار ونظريات فكرية وسياسة أساسها التفوق العنصري والحضاري الذي يدعيه الغرب مدفوعًا بأن الإسلام الخطر القادم مشفوعًا بالرغبة في السيطرة على منابع الثروة ومؤكدًا على أحقية الأمريكان بحكم العالم (ألم تشهد بوش وهو يتحدث في خطابه عن أمريكا الأمة العظيمة كما يتحدث عن إله العصر الحديث)!

الحقيقة أن الحملات الصليبية قدمت أسبابها المعلنة للجميع هو هذا الإرهاب الذي تعرض له الحجاج المسيحيون (الواضح أن المضايقات التي حدثت كانت خلال الطريق للأماكن المقدسة وليس فيها ومن مارقين عن الدويلات الإسلامية) وهو تقريبًا نفس السبب الذي يعلنه بابا السياسة الصليبية جورج بوش من تعرض المدنيين الأمريكان لإرهاب من فريق مسلم، وكما قرر الصليبيون معاقبة الملايين من المسلمين بالغزو ثم ما يشبه الإبادة في القدس، قرر بوش في حملته الجديدة معاقبة ملايين المسلمين بالغزو وما هو مرشح للإبادة، فضلاً عن قرارات من نوع تدمير

العراق (عملت إيه لا أحد يعرف.. لكن بوش يريد دمًا عراقيًا) وضرب حزب الله وقواعد مقاومة الابنة المدللة إسرائيل.. وهكذا نفس الصلف والعدوان والاستعمار والاستخراب؛ واضح تمامًا أن أفغانستان أول القطار وأن أجندة غزو العالم الإسلامي واردة وقادمة؛ هنا تبرز الحملات الصليبية في أعتى صورها على الصعيد الإسلامي والعربي وبعض الذين هادنوا وتحالفوا مع الصليبيين مقابل ألا يدمر الصليبيون مزارع الفواكه وأشجار العنب.. آه والله العظيم حصل!!

**

من لا يأخذ صليبه ويتبعني فلا يستحقني.. التعبير الإنجيلي الذي استخدمه بابا الصليبيين لإطلاق السهم الأول في الحرب الطويلة وهو تقريبًا الهادي المرشد لصيحة بوش "من ليس مع أمريكا فهو مع الإرهابيين"! وقد وجد الصليبيون معاونة ومهادنة الشرق من بضع مسلميه ومسيحييه، عربًا وأتراكًا وسلاجقة!

كان الوطن العربي والإسلامي ممزقًا كالعادة؛ إمبراطوريات مفكوكة الأوصال (والمفاصل)، دولاً مشردة

ومشرزمة؛ حلب؛ حمص؛ الموصل؛ بيروت؛ عكـا؛ حيفـا؛ القاهرة؛ دمشق؛ كله على كله؛ يحاربون بعضـهم ويقتتلـون فيما بينهم، دخل الصليبيون بعد حصار طويل إنطاكيـة ثـم بدأت الدول تسقط وتتساقط تحت سـنابك وبنـادق وقنابـل الصليبيين وبدأ كل أمير يطلب الأمان؛ أمير يصالحهم علـى أساس تقديم بعض المرشدين والإمدادات فـي مقابـل عـدم التعرض لأراضيه (التعاون المخابراتي والأمنـي)، وآخـر يصالحهم على مال يدفعه لهم، وثالث (خذ بالـك مـن تلـك والنبي) يصالحهم على أن يكون لهم ظاهر "خارج" المدينـة وأن يكون له داخلها".. فاكرين اقتراح باراك" فوق المسـجد الأقصى يبقى لنا وتحته لليهود وعندما مر الصليبيون بمدينة (دويلة) أصاب أهلها الرعب من هـدم الحـدائق والبسـاتين فسمحوا لهم بالمرور وتسليمهم معونات وهبات مقابل عـدم المساس بالشجر أو هدم تكعيبات ومزارع العنب! أمـا أحـد الحكام فوعدهم بتسليم مملكته لو تمكنوا من احتلال القدس!! كله دخل التحالف..

ودخل الصليبيون القدس، حولوا قبة الصخرة إلى كنيسـة لاتينية سموها (معبد السيد) وحولوا المسجد الأقصـى إلـى

"معبد سليمان" وقسموه إلى ثلاثة أقسام، الأول كنيسة والثاني مسكن للفرسان والأخير مستودع لذخائرهم، أما الأنفاق تحت المسجد فقد تحولت إلى إسطبل للخيول!

واجهت الصليبيين مشكلة حقيقية هي كيف يتخلصون من الجثث (قد تواجه المشكلة نفسها قوات التحالف الدولي الأمريكي) من هو القادر على رفع الجثث بالدم النازف والمتخثر والأعضاء المنزوعة والعيون المفقوءة والبطون المثقوبة والأمعاء المتدلية والجلود الممزقة والوجوه المحروقة والمشوهة. من يجمع ويتخلص ويدفن؛ انتزع الصليبيون عددًا من المسلمين الأسرى والجرحى وصرخوا فيهم أن يلموا جثث أهلهم وعائلاتهم وأبنائهم؛ يحملونها على أكتافهم وبين أذرعهم ويمضون بعيدًا حيث المدافن تسع الموتى مع الأحياء!

هي حرب صليبية كما تورط أو تردد جورج بوش فالحاصل أن الحملة الأمريكية تدفعها فكرة الانتقام وتزكيها روح التعصب والغطرسة والاستعلاء، وتحتشد في قوة رهيبة للفتك والتدمير يأخذ العاطل بالباطل البريء بالمشتبه، الشعوب بالحكومات، ومن لا يأخذ صليبه ويتبعني لا

يستحقني، ويا ويله وسواد ليل أمه من لا يقف مع أمريكـــا، وهي حرب عالمية كونية بلا نهاية، تسعى للعدالـــة المطلقـــة (..) وتحارب التعصب والإرهاب لصالح الحضارة والحرية (اسم النبي حارسهم) وبالصدفة مسيحيون غربيون (يتعـــاون معهم شرقيون) يحاربون مســلمين وعربًـــا!! يـــا محاســـن الصدف!!

لا أحد من هؤلاء يحج.. إنهم يشترون
الجنة!

هل الناس دي فاكرة إنها تضحك على ربنا؟

لو فتشت في لصوص البلــد كلهــم وبالــذات الكبــراء المأصلين لوجدتهم حجاجًا يا سيدي، لأ وكل سنة يحجون مما يبدو معه أنهم لا يطلبون المغفرة بــل يحــاولون شــراءها، وتتذكر بالضبط عصور الكنيسة الأوروبيــة فــي القــرون الوسطى حين كانت الكنائس تبيع صكوك الجنــة للأغنيــاء والأمراء!!

يتكرر الأمر نفسه الآن في الحج إلى بيت الله الحرام الذي تحول إلى كلمة سقيمة ومكروهة (وصــادقة تمامًــا) وهــي السياحة الدينية!! كل حرامي أو رقاصة أو لا مؤاخذة وكــل نهاب قروض أو مرتشي أو تاجر مخدرات أو مستغل مــن تجار الطب أو السياسة أو الرياضة تلاقيه مسافر كــل ســنة الحج السياحي الفاخر السريع (أسبوع واقلب) كأنهــا صــفقة يخلصها أحدهم مع الله، بيزنس دينــي، أنــا أســرق البلــد أو أرقص طول السنة فــي كباريــه أو مــؤتمر أو جريــدة أو برلمان، وفي عشرة أيام من ذي الحجة أخطــف التوبــة وأعمل فيها الخضرة الشريفة أو الأخضر الشريف!!

ليس هناك انتهازية أكثر من ذلك؛ هذه الأيام تسأل على أي واحد من مشاهير الساسة والمال والأعمال وفناني الفيديو كليب تلاقيهم بيحجوا تمامًا كما تسأل عنهم في الصيف تلاقيهم في مارينا (بيعوموا في مكة وبيحجوا في الساحل الشمالي)!!

يبحث الكثيرون عن سر اتنين مليار دولار (حوالي عشرة آلاف مليون جنيه مصري) ينفقها المصريون سنويًا على الحج والعمرة وزيارة الأماكن المقدسة، والأرقام تشمل ٧٠٠ ألف معتمر سنويًا منهم نصف مليون في شهر رمضان وحده، وسبعون ألف حاج (الإحصائيات نقلاً عن موقع مؤسسة الأهرام على الإنترنت) والسؤال ما سر هذه الأرقام المهولة؟.. أقول لكم أنا السر:

من الوهلة الأولى تظن مع هذه الأرقام شيئين، الأول أننا صرنا شعبًا من الملائكة مبينزلش عن سجادة الصلاة، منتهى الإيمان والتدين!! وقمنا بفرائض ربنا كلها ثم استطعنا إلى الحج سبيلاً، بالدولارات والريالات ولكن العجيب والغريب أن هذا غير حقيقي بالمرة بل نحن نعيش هذه الأيام فترة من أكثر فترات حياتنا انحلالاً وتفككًا ومسخرة أخلاقية.. بل نحن

نحيا في كباريه اقتصادي وأخلاقي وسياسي وكلنا يعرف ماذا يحدث في الكباريه!

هل ترى انحلالاً أخلاقيًا في المجتمع المصـــري خـــلال الخمس سنوات الماضية؟ لعل هذا السؤال الذي ظهر علـــى موقع "مصراوي" على شبكة الإنترنت في استطلاع مهم يلقي ضوء على تلك الحالة التي نعيشها وباتت تستدعي الســؤال ملحًا وملحاحًا!! والإجابات جاءت حـــرة فالمشــتركون فـــي الاستطلاع أحرار تمامًا أمام شاشـــة الكومبيـــوتر وليســـوا مطالبين بكذب أو نفاق مثل استطلاع الصحف الحكوميـــة أو غيرها، كما أن معظم المتعاملين مع الإنترنت في مصر ومع هذا الموقع تحديدًا من الشباب تحت الثلاثين بما يعني مـــدى اقترابهم من عصب هذا المجتمع واندماجهم مع شرائحهم من الشباب الذي ربما لا يعرفون كثيرون عنه شيئًا، بـــم أجـــاب هؤلاء الثمانية آلاف مواطن، لقد أجاب ٨,١٦% قـــائلين لا، بينما كان هناك ٩١,٨٤% رأيهم أن المجتمع يشهد انحـــلالاً أخلاقيًا!! إجماع وأغلبية على رأي دكتور فتحي ســـرور دام عليه سروره!

والشيء الثاني الذي قد توحي به إحصاءات عدد الحجاج والمعتمرين وما ينفقونه من مليارات أننا صرنا شعبًا غنيًا ومرفهًا ومكتفيًا من الحاجات الأساسية ومن ثم وجد الوقت والمال الذي يجعله يحج ويعتمر بهذه الكثرة وبهذا التكرار!! والواقع دون أن نضيع جهدًا في الأدلة هو عكس ذلك تمامًا فالمصريون في أزمة مالية مريعة وخانقة والجميع يعترف بها ما عدا السيد عاطف عبيد والسيد من حقل السبانخ!

إذن ما سر كل هذا الحج.. وما سبب كل تلك العمرات؟

لا سر ولا حاجة.. هؤلاء يشترون صكوك الغفران.. ناس ترتع في البلد استغلالاً وفسادًا مستترًا أو ظاهرًا (أليست الآلاف التي يطلبها طبيب في عملية أو المئات في كف أو معاملاته المواطئة والمشبوهة مع شركات الأدوية.. أليست فسادًا مستترًا؟.. لقد ذكرت الطبيب مثالاً وهو من أكثر الأيادي نظافة فما بالك بغيره!!) ثم يحاولون أن يغسلوا ذنوبهم بالدبلة الفضة والسبحة التي صارت ظاهرة كالتميمة في يد الجميع وتسبيلة العين حين الحديث عن العودة من الحج أو ذكريات الطواف حول الكعبة وبقايا الرأس الحليقة وسجادة الصلاة على كرسي في ركن من غرفة مكتبه

ويكلمونك عن التجديدات الفظيعة في الحرم!! إنهم يضعون مساحيق التدين وسفريات الحج ستارًا لإخفاء الذنوب المتوحشة والوحشية التي يمارسونها بالرشوة والفساد والإفساد والنصب والنهب والاستغلال ومص دماء الغلابة وأكل عقولهم وهضم أقواتهم، ثم الكارثة الآخرة إنهم يصدقون أنفسهم ويعتقدون أن الحج قد طهرهم وأبعد عنهم الرجس، تمامًا كما يغسلون أموالهم السوداء فإنهم يتصورون أن الذنوب يتم غسيلها بالحج والعمرة والتدين القشري والتطهر الكاذب بالبكاء على يد شيخ أو التصدق بمال (حرام) ليتيم هنا أو مريض هناك، إنه نفاق ديني لا شك فيه يشتري فيه الغني الثري المغفرة برحلات سياحية إلى الحج والعمرة وربما يؤجر من يطوف له أو يرمي الجمرات نيابة عنه وهو يجلس في فنادق مكة الفاخرة باهظة التكاليف المعدة لأعيان قريش وحجيج معاوية وتجار يثرب.. بينما التوبة النصوح والقبول الحسن للحج هو بالنية الصادقة لحاج ينام على مرتبة في خيمة رخيصة مع عشرات من فقراء أمته وبسطائهم الذي يكتفون فقرًا وليس زهدًا بالجبنة القديمة التي أحضروها من قريتهم وبالعيش الناشف المخزون في حقيبة

بلاستيك لحاج صعيدي كل أمنيته أن يعود من الحج مبرورًا وحاملاً بطانية من السعودية لابنته في البلد، بل وأكثر من ذلك فالله يغفر ويقبل دعاء وتوبة من رجل يصلي على حصير في زاوية أو مصلية على ترعة بدون حج متى صدق وصدقت!

كان أحد التابعين الأجلاء يحج عامًا ويجاهد عامًا وفي عام الحج خرج ليلة السفر في صحبة أهله وجيرانه ويودعونه في طريقه لمح امرأة تنحني على دجاجة ميتة وتخفيها في ثيابها وتمضي، ارتجف قلبه وارتعد فؤاده فترك صحبته واقترب منها: مالك يا خالة؟؟ نظرت إليه في دهشة وتهكم: والنبي اتركني ودع الخلق للخالق، فقال لها ملحًا: أستحلفك بالله أن تخبريني عن سبب ما فعلته، فقالت له مستسلمة دامعة: أنا أم لأربع بنات يتيمات ينسانا الناس ونجوع وقد أحل الله لنا أكل الميتة، فأخرج الرجل مائة دينار كان قد خصصها للحج أعطاها للمرأة وقال لها أصلحي بها شأن بناتك، ثم قعد ولم يحج.

بينما تحولت هذه الشعيرة إلى حالة سفه في الإنفاق ونفاق في الدين وإسراف في الأموال وتزيف في الإيمان وأظن أن

حجة واحدة للمرء خير وأبقى من حجج كثيـــرة تـــدفع إلـــى ذنوب تالية أكثر تحت توهم أن الحج يغفر ما تقدم من ذنبهم وما تأخر، فضلاً عن أن المال الحرام لا حج منه ولا حج فيه وهو حُجة على صاحبه وليس حجة لصاحبه، وكنت أتمنى أن أقول دعوتي صريحة بمنع تعدد مرات الحج علـــى فداحـــة دعوة مثل هذه (وربما على محاذيرها الدينية) تـــوفيرًا لآلاف الملايين من الجنيهات لكـــن الحـــق أن الأمـــوال المنهوبـــة والمليارات المسروقة أكثر من أن نوفر فيها من حج وعمرة ونصادر على شريعة من شعائر وأركان الإســـلام العظـــيم خصوصًا والمرء على يقين أن الحكومة ليســـت راشـــدة ولا رشيدة بحيث إن توفير أموال الحج والعمرة قد يعزز اقتصادًا بل على العكس قد يعزز فسادًا، لكنني فقط أنبه مليـــونيرات مصر في حجتهم الغزيرة الباهظة أن الوطن الآن يأكل مـــع بناته اليتيمات الدجاج الميت!!.

مصر تلعب مع الأرجنتين!

لا تبذل مجهودًا كبيرًا في فهم أو تصديق أو تكذيب تصريحات الحكومة فالأفضل أن تتجاهلها ولا كأنها قيلت أو انسمعت؛ فقد رزقنا الله منذ سنوات بحكومة عصبية وجادة حتى الجهامة تحولت الآن إلى حكومة مبتسمة على الفاضية والمليانة حتى البلاهة!

لكن لو كنت تأخذ هذه الحكومة مأخذ الجد فأنت حر وذنبك على جنبك والاحتمال الوحيد الذي نضمنه هو أنك سوف تمسك شعرك منكوشًا بعد قليل وتجعل عينك حولاء وتقلد عبد الفتاح القصري وتقول كتاكيت كتاكيت أنا عايز كتاكيت!! والمؤسف أن الحكومة لا تملك إلا البيض أما الكتاكيت فربما تجدها في الأرجنتين! لكن ما علاقة الأرجنتين بالأمر وبحكوماتنا وكتاكيتنا؟

أعرف أنك مثلي تقلق أول ما يبدأ أحدهم في التليفزيون الحديث عن السقوف الائتمانية وعجز الموازنة ومعدل التضخم وتشعر ساعتها أنه سيضحك عليك ويستغفلك، ومن ثم فلنجعل الأمور أبسط لك ولي فمؤكد أنك قرأت عما جرى في الأرجنتين الأيام الماضية أو تسقطت خبرًا أو اثنين هنا أو هنا عن الأرجنتين والأزمة الاقتصادية الطاحنة التي

انفجرت هناك حسب ما كتبته الصحف الأجنبية "عن موقع الجزيرة على الإنترنت" وبالنص (لقد جن جنون الشباب الذي اختنق تحت أثقال الأزمة المالية وخرج الآلاف إلى الشوارع احتجاجًا على سياسات الحكومة الاقتصادية ولقي ٢٦ شخصًا مصرعهم وجرح ما يزيد على ٢٥٠ آخرين كما تم اعتقال ٢٠٠٠ متظاهر واشتبكت مجموعات من الشبان مع الشرطة في مواجهات عنيفة في غضون ذلك استقال وزير الاقتصاد دومينو كافالو كما استقال أعضاء الحكومة وأعقب ذلك استقالة الرئيس الأرجنتيني بجلالة قدره (جلالة قدره من عندي أنا!) وخرجت الأوضاع عن السيطرة.. بعد أيام أعلن البلد إفلاسه تقريبًا!

بالصلاة على النبي المختار ما علاقة هذه الأحداث بمصر وحكومة مصر؛ أولاً في مصر لا أحد يتظاهر أساسًا فهذا الاختراع لم يدخل مصر وكله قاعد في بيته على الكنبة ومركز في المسلسل (هل عدمت الأرجنتين المسلسلات؟) ثم في مصر لا يوجد وزير يستجري يستقيل وعندنا ممكن نغير دمنا ولا نغير وزيرًا (بعينكم) هذه حقائق اختلافنا عن الأرجنتين (فضلاً عن أننا في الدرك الأسفل من النار في

كرة القدم وهم زعماء العالم فيها!) لكن فيما عدا ذلك فـــنحن نشبه الأرجنتين تمامًا في وضعنا الاقتصادي فنحن من أتباع مولانا الإمام الصندوق (صندوق النقد الدولي) وممن ينفذون كالصلاة والعبادة تعاليمه وآياته الاقتصادية البينات!! ونحـــن مثل الأرجنتين حيث كله في الخصخصة يابا وكساد وديـــون وتضخم وانهيار للعملة الوطنية وطبعًا قطعًا فعلاً فساد للركب وللمفاصل وللرقبة وبيت اللوح! وبطالـــة عاليـــة والقصـــة المسيلة بتاعة نعوم الجنيه ولـلا نغرقه ولـلا نركبه فلوكة ولـلا نثبته ولـلا نمسمره والأهم من ذلـــك كلـــه سياســـات ماليـــة متضاربة ومتناقضة أدت إلى ارتفاع فوائد الديون ثم العجـــز عن تسديدها! فهل يقترب اليوم الأرجنتيني علـــى مصـــر؟؛ سيقولون لك إن ديون الأرجنتين بلغت ١٤٤ مليار دولار لكن نحن والحمد لله الذي لا يحمد على ديون سواه بلغت ديوننا... آه بلغت كام لو رجالة اتفقوا على رقم فالحاصل أن الحكومة من لسانها تقول إن الديون ٢٦ مليـــار دولار لكـــن مولانـــا الصندوق (النقد الدولي) والعارف بالله البنك الدولي يقـــولان أن ديون مصر بلغت ٣٢ مليار دولار وقد أتحفتنا الحكومـــة بزيادة هذه الديون مؤخرًا بـــ ١,٥ مليار دولار (حين باعت

سندات في الخارج كأنها كمبيالات تكتبها بالفـــايظ لمرابـــي مقابل فلوس فورية لفك زنقتك والله أعلـــم مـــن اشـــترى.. صهاينة أو غيره) ثم أضافت حكومتنا المبتسمة دائمًا حيث إن فشتها عايمة فاستدانت زيادة على ذلك ١,٥ مليار دولار من صناديق مالية عربية وأجنبية وإذا كنت تعرف في الحســـاب فقد صارت ديون مصر ٣٥ مليـــار دولار والســـؤال: هـــل نستطيع تسديدها؛ الإجابة: وأنا مال أهلي اسأل الحكومة؛ أنا مهمتي أكمل لك الحقيقة وهـــي التـــي تكشـــف أن مصـــر الاقتصادية تتحدث عن نفسها، لكنني أسمع وأنا صغير عـــن أن الدول تسدد ديونها من عائد إنتاجها وصادراتها!! عمومًا خذ عندك هذا السؤال ما الذي ننتجه ونصـــدره بـــم تشـــتهر مصر من حيث الإنتاج والتصدير؛ حد عارف أو فاكر أكثـــر من البترول والقطن وما حفظناه زمان في درس ابتدائي ولا أي شيء آخر فالحقيقة أن صادرتنا حسب كـــلام الحكومـــة بلغت عام ٢٠٠٠ بالضبط ٥,٦ مليار دولار مع مراعـــاة أن أسعار البترول كانت في العلالي قبل ما تسقط فـــي الحلبـــة مؤخرًا؛ (أعتمد في الأرقام على الباحث الكبير أحمد النجـــار مدير تحرير التقرير الاقتصادي الاســـتراتيجي – الأهـــرام)

طيب وكم بلغ حجم الواردات أو ما استوردناه من الخارج في نفس الفترة وصل حسب كلام البنك المركزي ١٧,٥ مليار دولار أما الإخوة في الصندوق (النقد الدولي) فرأيهم دام فضلهم أننا استوردنا حاجة بتاعة ٢١,٧ مليار دولار أي أننا نستورد أربعة أضعاف ما نصدر!! بالذمة كيف نسدد ديونًا بهذه الطريقة في زماننا اللي مش فايت! منين يا سحرة ثم من حقك أن تقول ساعتها وهيه الحكومة قاعدة ليه؟ وأقولك حلو قوي نزلها أنت يا فالح واقعد مطرحها لو تمكنت؛ ثم هو أنت لسه عرفت حاجة؛ أتفضل يا سيدي هناك شيء اسمه احتياطي البنك المركزي وهو المبلغ الذي تعينه مصر للزمن لو اتزنقت في عملية قلب أو جراحة ورم في المخ ولا زرع كلى يبقوا قرشين حايشاهم للظروف (سيقول لك خبراء الاقتصاد كلامًا أكاديميًا في تعريف الاحتياطي الذي ينقذ البلد في حالة نقص سيولة أو أزمة سداد ديون وخلافه وهي أشياء تساوي عمليات القلب والكلى كما قلت لك بالضبط) المهم هذا الاحتياطي كان ياما كان من سنة أو اثنتين كما قالوا لنا ٢٢,٥ مليار دولار لكن نتيجة سياسات رشيدة وتفيدة لحكومتنا نقص الاحتياطي إلى ١٤ مليار ومصادر ولاد خالنا

في مجلة الأيكومنست الاقتصادية الشهيرة تقول إن الاحتياطي تراجع عندنا وبلغ ١٢,٩ مليار دولار يعني بعون الله أخذوا من التل وها هو يختل عيانا بيانا!

الحقيقة أن السبب العميق الذي يقف وراء أزمتنا التي ربما تصل قريبًا للمصير الأرجنتيني من غير مظاهرات أو استقالات؛ أن الذي يتولى أمرنا أناس لم نخترهم ولم ننتخبهم ولا نريدهم فضلاً عن أننا لا نملك أن نحاسبهم إلا في رسوم الكاريكاتير فقط؛ كما أن السياسات كلها سواء اقتصادية أو سياسية تهدف إلى إرضاء ثم إشباع طبقة رجال الأعمال وحلفائهم في الحكومة فأنت لو فكرت تقترض خمسين ألف جنيه من بنك لطلعوا عين اللي خلفوك ضمانات واشتراطات والتزامات من أجل أن تقترضهم وربما يأخذ منك الموظف المسئول عشرة آلاف نصيبه هو والزملاء مقابل إتمام القرض؛ أما لو فكر رجل أعمال في اقتراض خمسمائة مليون جنيه لجلس في مكتب رئيس مجلس إدارة البنك وشرب القهوة وخرج بأربعمائة وخمسين مليونًا حيث إن الباقي للمدير وللزملاء!!

ولأننا لا نستطيع أن نحاسب هذه السياسات التــي ترفــع من سنوات طويلة شعار الإصلاح الاقتصادي (حلاوتك فــي الاقتصاد يا بت يا إصلاح!!) ولأننا كشعب وكمواطنين أعجز من أن نغيرها ونحن كمعارضين أهــش وأضــعف مــن أن نعريها ونفضحها ولأننا كلنا على بعضــنا أغلــب مــن أن نصرخ ونغب ونقول لهم قاعدين ليه.. غوروا من قــدامنا!؛ لأننا لن نفعل ذلك ولا نقدر عليه فما رأيكم بدل ما يروحــوا همه ويقوموا من قعدتهم على نفسنا نفاجئهم ونقوم إحنا نمشي ونغور بعيدًا عنهم ونهاجر أو نتسمم أو نتحرق بجاز ويبقــوا يدوروا بعدها على شعب يحكموه!!

الأمة العربية ونكبة ١٤٨؟

في تونس تخيلوا ١٤٨ مواطنًا فقط قالوا (لا) في استفتاء أخيرًا على تعديلات الدستور هناك أهم ما في التعديلات إياها أنها تسمح لرئيس تونس أن يصبح مثل باقي زملائه في الوطن العربي رئيسًا مدى الحياة! ولينضم رسميًا إلى نادي مدى الحياة الذي يرأسه الأخ معمر القذافي وهو الرئيس الوحيد الذي يصر على أنه أخ رغم أن زمانه بقى جد!!

١٤٨ مواطنًا فقط في البلد كله على بعضه قالوا لا بينما قال ملايين نعم ونعمين!، وهكذا يمكن تحويل اسم تونس من الجمهورية التونسية إلى جمهورية نعم!!

ورغم أنني أظن – والله أعلم – أنه لو كان الإمام العادل الخليفة الراشد عمر بن الخطاب قد ترشح لرئاسة أي دولة عربية سوف يقول له كلمة (لا) أكثر من ١٤٨ مواطنًا!! لكن تعمل إيه أدي الله وأدي حكمته أن يكون الشعب العربي مذلولاً أمام حكامه ويتم تزوير إرادته بكل وقاحة وقلة حياء!!

من هنا يندهش المرء مما يثرثر به بعض مسئولينا العرب عن ضرورة إجراء السلطة الفلسطينية لإصلاحات سياسية داخلها ومحاربة الفساد المستشري فيها، فالحقيقة أن السلطة الفلسطينية سلطة عربية تمام فيها ما في كل السلطات العربية

من طغيان وفساد سياسي ومال وتزوير وتزييف وكذلك تقديس الحاكم وتأليه الرئيس!، ومحاباة ونفاق وسرقة علني وحرامية على مقاعد السلطة وعائلات حاكمة كسبانة ومروقة وشعب طالع عين اللي خلفوه فقران ولا يجد اللقمة، السلطة الفلسطينية مثل باقي أخوتها السلطات العرب تتمحور حول إله كان اسمه في السابق رئيسًا أو حاكمًا، والآن صار الحكيم الزعيم طبقًا لتوجيهاته وتحت رعايته ووراءه يمشي الشعب والوزراء والمجالس النيابية والمقاعد السياسية والأرائك الحزبية كالقطيع أو أسوأ!!

وهناك في السلطة الفلسطينية كما في كل السلطات الشقيقة زبانية وأجهزة متخصصة في القبض على المناضلين الشرفاء والمعارضين النبلاء والرافضين لحكمها وحكومتها والفاضحين لفسادها وقمعها وقهرها!! ومع ذلك فإن الحكام العرب – قال إيه – يطالبون السلطة الفلسطينية بالإصلاحات السياسية وكأنهم أنفسهم ليسوا غرقى في هذا الفساد والجمود السياسي المدوي والديكتاتورية البشعة، وللمدهش وسبحان المعز المذل فهذه الدعاوى للإصلاح تتبناها النظم العربية التي تصرخ قوى المعارضة فيها مغربًا وعشاءً وعصرًا

وظهرًا أن تحترم نفسها وشعبها وتجدد وتغير وتزيح وزراء فسدة ومراكز قوى وتطلق أسر الحركة السياسية وحرية تكوين الأحزاب وحرية إصدار الصحف وحق تداول السلطة ونزاهة الانتخابات والتوقف عن التزوير والتخلص من جمود وتصلب شرايين مسئولي الحكم وكهنة السلاطين وفسدة النظام، ومع ذلك فهذه الدول المعتدلة وحكامه المعدولون على البيت الأبيض وواشنطن لا ينتصحون ولا يصلحون ولا يتحركون ولا يسمعون بل ولا يفهمون أهمية الإصلاح السياسي وقد ثملوا بالسلطة وسكروا بالبقاء على العروش والتصقوا بمقاعد الحكم بل ويتمنون أن يرثهم الأبناء والأحفاد! ويبرز هنا سؤالان، الأول: لماذا إذن يطلبون ويدعون السلطة الفلسطينية للإصلاح، ألا يخافون مثلاً أن نطالبهم ونحن بإصلاح مماثل؟، والإجابة أن أمريكا هي التي ترفع شعار المطالبة بإصلاحات في السلطة الفلسطينية وهي التي تدفع الحكام والحكومات العربية اسم النبي حارسها المعتدلة بتدعيم أوامرها ومطالب إسرائيل بضرورة إجراء إصلاحات في السلطة خصوصًا وقد كانت مفاسد السلطة موجودة عيانًا بيانًا أمام هذه الحكومات (بل وأمام أمريكا ذات

نفسها) ولم يعترض أحد ولم يطالب واحد فيهم بإصلاح كـــده ولا كده، أما الآن ورغبة في تحطيم السلطة الفلسطينية مـــن أجل التوقيع على اتفاقية استسلام وعـــار فـــالمطلوب لـــيس إصلاحًا سياسيًا بل حصار وضغط على هذه الســـلطة كـــي تركع بالذوق أحسن ما تنفضح أكثر أمـــام العـــالم وشـــعبها المدرك لفسادها، والصابر على مباذلها والحقيقة أن أمريكـــا ومعها الحكام العرب مستعدة اليوم قبل الغد في نسيان حكاية الإصلاحات لو عرفات ورجالته وافقوا على شروط شارون لهدنة أو اتفاقية تسوية مذلة!

أما حكاية أن نطالب نحن حكوماتنا بالإصلاح السياســـي كما تطالب هي السلطة الفلسطينية فهذا ما لا تعمل الحكومات حسابها له، فقد كممت الأفواه وأخرست بالترهيـــب وربمـــا بالترغيب الشرفاء أو الذين كانوا كذلك وتم إخصاء التيارات والجماعات السياسية وباع المثقفون أنفسهم ومن ثم لم يعـــد أحد محترم يطالب حكومته الآن بالإصلاح وقد كسب الجميع من الفساد والجمود وكل واحد طلع لـــه بغنيمـــة، أمـــا لـــو افترضنا إن أنا وأنت وخمستاشر واحد قاعدين نقول للحكومة اصلحي وانصلحي (الواجب أن نقول لها غوري وانزاحـــي)

فهي لن تعيرنا أي انتباه وأي غرفة حجز أو سجن قد تلمنا على بعض وهي فرصة ساعتها نطالب بالإصلاح معًا ونأخذ ثواب الجماعة!!

وهنا يقفز السؤال الثاني: لماذا لا تطالب أمريكا نفسها الدول العربية المعتدلة بإصلاحات سياسية وهي التي ظلت تتهم تلك الحكومات أن الشعوب العربية صارت تكره أمريكا تمامًا لأنها مقهورة من حكامها العرب الموالين لأمريكا؟ والإجابة هنا أن الولايات المتحدة الأمريكية لا يهمها إطلاقًا حبنا لها أو كراهيتنا، هي تريد مصالحها في المنطقة البترول وإسرائيل أو العكس وهي تعلم أن الحكومات الديمقراطية الحقيقية في هذه الأوطان لن تحقق لأمريكا مصالحها بهذا الشكل الكامل والمتفاني والمذلول والمتذلل، من هنا فهي لا تريد إصلاح هذه الحكومات بقدر ما تريد استمرارها وبقاءها وخلودها على مقاعد الحكم وكلما انغمسوا في طغيان أكثر وديكتاتورية أكبر وفساد أعمق كلما نفذوا تعليمات وأوامر السادة الأمريكان أفضل وأسرع وأرخص.. ثم ليه تدفع أكثر ما دام ممكن تدفع أقل!

من الجحور وإلى الجحور تعود!

من شاف تونس هانت عليه بلوته، ومن هانت عليه بلوته فليستعد لأنها سوف تستمرأ الوضع وتزيد وتنتفخ وتتضخم وتتحول من بلوة إلى كارثة، ومن أجل عينة مما حدث ويحدث في تونس فإليك هذه الرسالة التي تلقيتها عن طريق البريد الإلكتروني وعززتها أخبار من وكالات وتقارير من صحف، ماذا تقول الرسالة، اقرأها معي:

باختصار: لتدخل إلى المسجد يجب أن تستظهر ببطاقة خاصّة...!!!

وزير الداخلية التونسي الذي ترعى حكومته الإسلام وتحافظ عليه أعلن في ندوة صحفية عزمه على تنظيم المساجد، فالإسلام – القديم – الأول – الذي جاء به.

الرسول محمد لم يعد كافيًا لوحده..

والوزارة تفكر في أن تفرض على المصلين حمل بطاقة خاصة بالصلاة تسمح لحاملها بالدخول إلى المسجد الأقرب من سكنه!!

فكل مسلم تونسي أو مقيم عليه تقديم طلب لدى الشرطة أو الحرس الوطني للحصول على بطاقة بها صورته وعنوانه ومسجده المحدّد.. والإمام مطالب بالتّحقق من الداخلين

للمسجد. ولن يسمح لمرتاد مسجد معيّن أن يصلي في مسجد آخر مهما كانت الظروف.. بطاقة المصلي شخصية ولا يجوز إعارتها. وإذا توقف حاملها عن الصلاة عليه إرجاعها حالاً إلى السلطات الأمنية.

المصلّون الأجانب السّياح عليهم طلب بطاقات خاصة لدى شرطة الحدود وإمام المسجد مطالب بتسجيل حضور المصلين وعليه رفع تقرير عن الحضور والغياب في نهاية كل شهر إلى السلطات الأمنية.

صلاة الجمعة تتطلب بطاقة أخرى خاصّة، إذا كان المسجد الذي تصلي فيه لا تقام فيه الجمعة ليسمح لك بالذهاب إلى المسجد الأقرب الذي يليه، هذا ما تخطّط له الحكومة المسلمة التّونسية في إطار محاربتها للإرهاب!!

ما رأي سيادتك في هذا الخبر وخصوصًا أن الإخوة الأصدقاء من غلاة العلمانيين وغيرهم من كارهي مظاهر التدين في الوطن العربي يتخذون تونس مثلاً في وأد الإرهاب والقضاء على التطرف الديني وها نحن نعرف ونتعرف كل يوم على كيفية محاربة تونس للإرهاب بمحاربة الإسلام نفسه والحرية طبعًا وحقوق الإنسان.. لكن تونس

ليست الوحيدة ولا البعيدة عن الجميع فهناك تقرير شافي وافي صافي أصدره. "برنامج الأمم المتحدة للتنمية" ومقره في القاهرة يبين ويظهر ويؤكد أن سكان العالم العربي كانوا الأقل والأدنى استمتاعًا بالحرية السياسية على الصعيد العالمي.

ويشير التقرير الذي صدر يوم أول يوليه ٢٠٠٢، إلى أن سكان العالم العربي كانوا الأقل استمتاعًا بالحرية على الصعيد العالمي في التسعينيات، الأمر الذي يعتبر عائقًا رئيسيًا أمام التنمية، واعتبر التقرير حسب نص وكالة الأنباء الفرنسية أن هناك "ثلاثة نواقص أساسية تواجه جميع الدول العربية وهي نقص الحرية ونقص تمكين المرأة ونقص المعرفة". (يعني باختصار طلعنا عالم ناقصة!) وانتقد التقرير "نسبة استخدام طاقات المرأة العربية من خلال المشاركة السياسية والاقتصادية" مؤكدًا أنها "الأكثر تدنيًا في العالم فهي تحتل ٣,٥% من مقاعد البرلمانات مقارنة مع ١١% في أفريقيا وجنوب الصحراء". ولك يا صديقي أن تلاحظ أن نسبة تمثيل الرجل نفسه أقل من ذلك في برلمانات الوطن العربي، طبعًا أنا أتحدث عن الرجال لا عن أشباههم!! وأفاد

التقرير أن مجموعة مؤشرات التمثيل والمساءلة" التي يستخدمها برنامج الأمم المتحدة "تؤكد المستوى المتدني للحرية في المنطقة العربية" مضيفاً أن "المجموعة تشمل عددًا من المؤشرات التي تقيس مظاهر متنوعة لنواحي العملية السياسية والحريات المدنية والحقوق السياسية واستقلالية وسائل الإعلام" تؤكد أن "المنطقة العربية تأتي في المرتبة الأخيرة وفق ترتيب لجميع مناطق العالم".

وأضاف التقرير أن المشاركة السياسية في العالم العربي ما زالت "دون المستوى المتحقق في جميع مناطق العالم". وأشار التقرير إلى أن "منظمات المجتمع المدني ما زالت تعاني من عقبات تحد من إنشائها وعملها بفعالية" موضحًا أن أبرز العقبات هي "البيروقراطية المتمثلة بسيطرة السلطات الحكومية على منظمات العمل الأهلي".

وأفاد التقرير أن "استخدام المعلوماتية في الدول العربية أقل من أي منطقة أخرى حيث لا تتجاوز نسبة مستخدمي الإنترنت ٠,٦% ويملك ١,٢% من المواطنين العرب جهاز كمبيوتر.

السؤال الآن: هل يملك بهذا الوضع المتدني من الحرية وهذه الخسة المذهلة التي تتعامل بها السلطة العربية من مواطنيها أن نواجه أعداء أو تحديات؟ من المؤكد أن سبب رعب الأنظمة العربية من أمريكا وسفالة إدارة السيد بوش ومن عدوانية وغطرسة إسرائيل وشارون، هو إدراك هذه الأنظمة أنها أسد أو حيتان على شعوبها وفي الحروب أو حتى في المفاوضات مع الأعداء نعامة أو أرنب أو فأر، وللفئران في السياسة الدولية كما في البيوت والأزقة أماكن معروفة ومخصصة، في الجحور قطعًا!

وما دايم إلا وجه الله

أريد أن أطمئن دكتور جابر عصـــفور الناقـــد والمثقـــف الكبير وأمين عام المجلس الأعلى للثقافة أنه لو تعرض فـــي حفل عشاء عائلي أو في تجمع أدبي لما تعرض له الشـــاعر الراحل صلاح عبد الصبور من نقد وهجوم صريح بأنه باع شعبه وتحالف مع النظام، فإن دكتور جابر لن يصاب بأزمة قلبية وذبحة صدرية مثلما أصيب الشاعر الراحل العظيم من جراء تلك المواجهة الدامية، ثم إنه لن يموت في أثر ساعات بعدها كما مات صلاح عبد الصبور، لن يحدث ذلك لـــدكتور جابر فهو مع كامل محبتي وتقديري ليس حساسًـــا شـــاعرًا رقيقًا مثل صلاح عبد الصبور كما أنه وهذا هـــو الأهـــم لا يشعر بالذنب يثقل كاهله ويفترس ضميره كما كـــان يشـــعر صلاح عبد الصبور!!

لقد أدركت بعدما نشر دكتور جابر مؤخرًا سلسلة مقالات في جريدة الحياة السعودية عن ملابسات وفاة الشاعر الراحل العظيم صلاح عبد الصبور أنه يدافع عن نفسه هو والموقـــع الذي يحتله الآن في حكومة من الواضح أن مثقفًـــا محترمًـــا لا يرضى عنها ولا عـــن توجهاتهـــا وسياســـتها وفســـادها وديكتاتوريتها ومن ثم لا يرضى بالتعاون معها أو تمثيلهـــا،

فالرجل أمين عام لمجلس ثقافة نشهد للعالمين أنه أبعثه من مرقده وأحياه نشاطًا مدهشًا، لكنه في موقعه وعلى مقعده لم يفعل أكثر من تنشيط المبنى لا المعنى، فلا المثقف في المجلس أو غيره حصل على فتات حريته ولا السلطة كفت يد القمع وذراع القهر عن مثقفيها وعن مواطنيها، ولم يساعد المقعد الأعلى على لعب المثقف أي دور في تشكيل وعي أمته أو تنوير جماهير شعبه ولا مواجهة ومعارضة الفساد ولا كذلك استطاع أن يكون ضميرًا ضد أعمال وأهوال قمع الحريات كما أنه حتى لم يشارك بالنصح والإرشاد صانع القرار قبل القرار وبعده (وهو ما يحلم به المثقفون لصيقو الرغبة بالدولة!)، لم يفعل جابر عصفور ومجلسه أي شيء من هذا ولا أعرف هل كان ذلك في ذهنه أصلاً أم لا، لكن المشكلة رغم نشاط المجلس في عهده وتحوله إلى خلية نحل أن ازداد المجلس انغماسًا في نخبويته وعزلته عن إحداث أي حركة ثقافية أو جماعة ضمير ثقافي! أو حتى هيئة مستشارين لتحسين أداء النظام، بل إن مثقفي هذه الحكومة وهذا الحكم هم الصحفيون والمذيعون والمذيعات ورؤساء

تحرير الحكومة الذين يتم تقديمهم في الندوات بلقب المفكر الكبير!!

من هنا فقد تحسست مقالات دكتور جابر بطحة ما وجاءت لتكشف عن مرافعة مخلصة محكمة التفاصيل شجية وعذبة المشاعر عن نفسه وليس عن صلاح عبد الصبور الذي مات نتيجة اتهام مثقف صديق وزميل له بأنه باع شعبه، والقصة كما فهمتها من مقالات عصفور أن جلسة عائلية جمعت عبد الصبور والشاعر أحمد عبد المعطي حجازي والفنان الكبير الراحل بهجت عثمان رسام الكاريكاتير العظيم وكذلك دكتور جابر (وكان وقتها شابًا)، أدار فيها حجازي جهاز كاسيت (نحن الآن عام ١٩٨١) حمل صوت العبقري عبد الرحمن الأبنودي في قصيدة معارضة للنظام (لعلك تذكر أن الأبنودي كان معارضًا وسبحان من له الدوام!) فلما وصل الأبنودي إلى مقطع يعاتب فيه الشعب المصري على أنه لا يتحرك ويقاوم حاكمه (هل لا يزال عند رأيه؟) قال عبد الصبور: صحيح لماذا لا يتحرك الشعب وأخذ ينتقد شعبه وعجزه، فاندفع بهجت يقول له بعنف وكيف يتحرك الشعب وقد خانه المثقفون وباعوه،

فاحتدم الموقف لما سأله عبد الصبور تقصد مين يا بهجت فرد بهجت بشجاعة وجسارة الحق (من وجهة نظري يا دكتور!) وقال له أنت يا صلاح، بعدها كما هو متوقع ساد التوتر وانصرف بهجت ثم تعب صلاح ثم مات متأثرًا بأزمة قلبية من جراء الانفعال والحزن، فقد كان صلاح عبد الصبور متهمًا من رفاقه اليساريين والمعارضين للسادات وحكمه وحكومته أنه باعهم وباع تاريخه وكلمته الحرة حين قبل أن يصبح من رجال الحكم وحاشية السلطان الثقافية ووافق أن يصبح رئيسًا لهيئة الكتاب كبرى مؤسسات الدولة الثقافية بل ورضي بوجود إسرائيل في معرض الكتاب (وقتها كانت الحكومة وإسرائيل معًا على قدر من العناد والإصرار على تواجد جناح لإسرائيل في المعرض قبل أن يتم التغاضي عن هذا التقليد مقابل جناح لإسرائيل في قلب المثقفين!!) وبعد عشرين عامًا ها هو دكتور جابر يكتب متهمًا بهجت (الذي رحل عن دنيانا فارسًا بلا حصان مؤخرًا) بأنه وراء موت عبد الصبور وأنه قاتله حسب تعبير عصفور نفسه، والحقيقة أن بهجة واجه صلاح بالحقيقة المرة لا أكثر، ففعلا كيف يتحرك مجتمع ويقاوم شعب بدون قيادة وطليعة

من المثقفين، والصحيح كذلك أن المثقف الذي يتحالف أو يتعاون أو يتعامل مع قوى بطش وظلام معادية للشعب وللثقافة وتنطلق من طغيان فردي همومه الوحيدة هي الحفاظ على عرشه وإبقاء حكمه حتى لو كلف هذا الوطن كله تبعيته في قراره ومذلته أمام عدوه وانحداره السياسي وانهياره الاقتصادي، فإن هذا المثقف يكون قد باع شعبه.. ولَّلا إيه؟ ما الذي يمكن أن نختلف عليه إذن؟ هذا لا يعني أبدًا ألا تكون بعض مقاصد المثقف خيرة خصوصًا لو كان عبقري الموهبة أسطوري الإبداع مثل عبد الصبور أو أن أعماله مع نظامه مفيدة وطيبة ولكنها تصب في النهاية إلى بحر القمع ومصب الطغيان وإطالة عمر الاستبداد!! وأنا لا أرى بأسًا أن يعلن المثقف أي مثقف أنه مع هذا النظام أو ذاك وأنه متفق معه ويؤيده، لا بأس فهذه أبسط حقوق أي مثقف بل وأي مواطن، لكن فقط يتوقف عن لعبة التأرجح بين المثقف المعارض والثوري والمصلح والإصلاحي ولا يشكو بالليل من قسوة أو غلظة الأصدقاء!، ويعرف أنه يخدم سلطة قامعة ويضع أحمر شفاه على شفاه خنزير!! قطعًا دكتور جابر عصفور جميعًا يعلم أن "لكل أجل كتاب" وأن بهجت عثمان

ضمير مصر الذي رحل عنا (بهجت والضمير) لم يكن يقصد ولا ينوي أن يموت عبد الصبور بسهام كلماته بـل كانـت عملية جراحية أراد الجراح أن يصلح مضغة القلـب لكـن القلب كان أضعف من أن يتحمل فتوقف!!

المدهش المذهل بعد عشرين عامًا من هذه الواقعة نـرى جابر عصفور في نفس مكان صلاح عبد الصبور قريبًـا أو متعاونًا أو متعاملاً مع النظام (إذا كان أحد يرى أنه تغير في سياسته وساسته وتوجهاته واستبداده وجموده فأنا أدعوه كـي يراجع ضميره أو يتأكد من وجود ضميره فربما يكون نسيه على مكتبه فرماه الفراش في سلة القمامة!!) وأحمـد عبـد المعطي حجازي على مدى عشرين عامًا لم يفتح الله عليـه بقصيدة أو بموقف معارض أو بوقفة ضد الاستبداد اللهـم إلا سيرك التنوير الذي ضم إلى جانب الصـادقين كثيـرًا مـن الشطار والحواة والسمايرة وكارهي الإسـلام!!، أمـا عبـد الرحمن الأبنودي الذي عطر صوته المكان يومهـا بشـعر مناهض معارض مناضل فإنه يكتب كذا أوبريت فـي عيـد الشرطة أو عيد الدولة لا أتذكر ولعله هو نفسه لا يتذكر، أما بهجت فقد ظلت كفه ممسكة على جمر معارضته ومقاومتـه

للاستبداد بالرسم والكشف والفضح والزهد والابتسامة ثم مات كما سنموت جميعًا، مات منسيًا منفيًا في منزله.!

لكن أخيرًا ما الذي كان يريده دكتور جابر من تعديل حتى يرضى عن بهجت، أن يرد بهجت على عبد الصبور قائلاً فعلاً عندك حق يا صلاح هذا شعب ابن كلب، وتخلص الحكاية أو أن يرد عليه حين يسأله صلاح عبد الصبور قصدك مين أو زي مين يا بهجت اللي باع الشعب؟ يرد عليه ويقول: أنا يا صلاح!!، أو يا راجل روق دمك أنت ح تزعل نفسك ليه، هوه إحنا نقدر على زعل دكتور جابر!!

أين ذهب الأدباء؟

نحن نعرف (وهي فرصة للذي لا يعرف أن يعــرف) أن أمريكا اللاتينية تشــتهر بــالموز وكــرة القــدم والــرقص والديكتاتوريين الذين يرأسون البلاد ويحكمون الــدول مــدى الحياة ورغم أن السنوات الأخيرة بدأت ملامح الديمقراطيــة تقترب وتظل على هــذه القــارة إلا أن شــهرتها لا زالــت مضرب الأمثال في الطغيان ومع أنني أؤمن تمامًا أن الوطن العربي يعرف ويشهد نماذج حكام طغاة ديكتــاتوريين أكثــر وأفضح وأفدح إلا أن أمريكا اللاتينية فاقتهــا فــي الســمعة والشهرة لسببين الأول كثرة التمردات والثورات التي تقــوم بها الشعوب ضد الطغاة هناك، والأمر الثاني تلك الروايــات العبقرية العظيمة التي كتبها مؤلفون شــجعان وأبطــال فــي مواجهة الظلم والديكتاتورية وكشف مفاسد الحكــم ومظــالم الحاكم حتى أن هناك نوعًا من الأدب والروايات صار علمًــا في العالم كله بسبب هؤلاء الروائيين وهو ما يعرف بروايــة الديكتاتور، لهذا الحد ولتلك الدرجة تمكن الأدباء من المقاومة والمواجهة والكتابة والفضح والكشف، اشتهرت مــن هــذه الروايات التي ألفها الروائي استورياس وحملت عنوان (السيد الرئيس) وتمتد الروايات الشجاعة الرائعة في أسلوبها وفنهــا

وعمقها وقبل هذا كله في شجاعتها وخلودها، وتبقى الرواية الأشهر رواية (خريف البطريرك) لجابريل ماركيز الذي وصف الديكتاتور بأنه جنرال عجوز كان له من العمر ما بين ١٠٧ و ٢٣٢ سنة، ثم رواية انتهيت مؤخرًا من قراءتها بعد ترجمة للعربية عن دار نشر المدى وهي التي تحمل عنوان (وليمة التيس) للكاتب الشهير ماريو فاجاس وهو للمفارقة كان قد رشح نفسه لانتخابات الرئاسة في بيرو بعد عودة الديمقراطية للبلاد (وفشل بالطبع) والرواية تحكي عن ديكتاتور آخر في أمريكا اللاتينية كان يحكم ولعله يملك دولة الدومينيكان وقد حكم البلد بسم الله ما شاء الله لمدة إحدى وثلاثين سنة وهو الذي عين ابنه جنرالاً في الجيش وعمره ١٢ سنة، والرواية تحكي شخصه وأصله وفصله وطغيانه وفساده واستبداده وبطبيعة الحال.. وتحكي اغتياله!! وقد أعدت قراءة بعضًا من تلك الرواية وغيرها حين قرأت دراستين عن هذا النوع من الروايات في جريدة الحياة اللندنية (لسمير اليوسف وعبده وازن) لكن السؤال المؤلم والممض الذي وجدت نفسي تواجهني به لماذا لا نرى في الأدب العربي وعند الروائيين العرب شيئًا من فضح وكشف

الديكتاتور المعاصر الذي يحكم كل بلد عربي بالحديد والنار والوراثة، والإجابة عن هذا السؤال ربما تكشف عن غياب المثقف عن قضايا وطنه ودكتاتورية حكام بلاده الذين اشتروا المثقف بالوظيفة أو الجائزة أو السفريات أو المقالات في الصحف وبعض من رئاسات التحرير أو اللجان أو فقدان الأديب العربي للشجاعة والبطولة الفنية والسياسية التي تدفعه لمثل هذه الكتابة التي تحتاج إلى جانب الموهبة الروائية والخصوبة الفنية والثراء الإبداعي تحتاج أيضًا لشجاعة ضد الضغوط ومناعة ضد الإغراءات ولعل السبب الجاثم على أدب الرفض والمواجهة وفضح الفسدة وتعرية الطغاة هو هذا التحالف الشرس بين أجهزة الأمن والروائيين العرب الذي أثمر انهيار في صلابة وشجاعة الأديب، كذلك ترويجًا لأنواع تجريبية غامضة ومغلقة ومبهمة ومنفصلة عن قضايا الوطن ووجدان المواطن بل وتبارت فرق من نقاد التفاهة ومروجي المخدرات الأدبية تتهم الأدب الشجاع والمقتحم والمناضل بأنه أدب مباشر أو لا ينتمي للفن بينما في الوقت ذاته يصل نفس هذا النوع الأدبي في أمريكا اللاتينية ومنه للعالم كله إلى ذرى الفن والمجد والروعة، لقد اختبأ جبن

الأدباء وعمالة الأدب وراء أشكال فنية خائنة للواقع وللقارئ بل وللحرية والإنسان وبات الشيء الوحيد الذي يكـــون مطروحًا على الساحة هو أدب الشذوذ وسب الدين والملة!!

محجوب عبد الدايم وشركاه!

من هو سبب خيبتنا الثقيلة الأخ علي طه أم السيد محجوب عبد الدايم؟

أولاً: لازم توافقني أننا نعيش خيبة ثقيلة وإذا كنت تخالفني الرأي ممكن تتأخر سايق عليك النبي وروح اقرأ في مقالة ثانية، فلا طاقة لديَّ على المناهدة!

ثانيًا: لازم تؤيدني حين أزعم أن أهم أسباب الخيبة بالويبة التي نعيشها تقع على مسئولية قادة المجتمع وعلى عاتق المثقفين الذين إما أنهم يقودون المجتمع أو يراقبون ويعارضون ويحاسبون الأشخاص الذين يقودون المجتمع! وإذا لم يكن رأيك كذلك فألتمس منك العذر أن تلحق صاحبك الذي لم يوافقني فوق، وتشوف لك مقالة تانية تقرأها بعيدًا عن هنا عشان النفس والتنفس فالمقاول بعون الله زحمة ونحن نرش قدام الدكان!

ثالثًا: لازم تدعمني في القول إن المثقف المصري (والعربي بالمرة، فهي نفس الطينة والخيبة) واحد من اثنين إما أنه الأخ علي وطه أو السيد محجوب عبد الدايم! بل لعل المثقف المصري (سواء الكاتب أو المفكر أو السياسي أو أستاذ الجامعة وغيرهم) يعاني من فصام الشخصية فهو

في الصبح محجوب وبعد الظهر علي طه أو العكس (بالمناسبة لو لم تكن قد أدركت أنني أتحدث عن بطلين في فيلم القاهرة ٣٠ عن رواية القاهرة الجديدة للساحر العملاق نجيب محفوظ فأنا لا أريد أن أرى وجهك في المقال وغور حالاً من قدامي المسألة مش ناقصة).

يجري كل واحد فينا ووراءه ظل علي طه أو محجوب وكل ميسر لما خلق له ومحدش بيأخذ أكتر من نصيبه والمرء الذي يحترم نفسه هو الذي يسألها (يسأل نفسه يعني) من أنت علي طه أم محجوب عبد الدايم فترد عليه نفسه قائلة لا داعي للإجابة أحسن تزعل!

عندما انتهيت من قراءة أرجوحة دكتورة (أقصد أطروحة لكنها هكذا أدق!) وجدت أن الأرجوحة استغرقت ١٧٠ صفحة في البحث عن معنى أو تعريف دقيق لكلمة مثقف وقد تضمنت الصفحات محاولات السابقين الأولين من المفكرين حول تعريف هذه الكلمة الحائرة التائهة؛ لكن التعريف الذي استهواني وامتلك فؤادي هو تعريف الفيلسوف الفرنسي جان بول سارتر للمثقف حيث عرفه بأنه ذلك الشخص الذي يتدخل فيما لا يعنيه؛ وقد وجدت التعريف

هو عز الطلب وغاية الأرب؛ فالمثقف هو الشخص الذي يتدخل في أحوال الناس من غير ما يدعوه أحد فهو الخائف على بلده؛ المهتم بأبناء وطنه، الدارس لتاريخ الوطن والباحث عن مستقبل البلد؛ وهو الشخص الذي يتلقى بنفس راضية وروح رياضية تعليقات الحكومة والمواطنين حين يقولون له: وأنت مالك يا بارد حد حشرك ولا طلب رأيك! ومع ذلك فالمثقف محشور محشور ويعطي رأيه مهما رفضه غيره!

ولعلك تذكر معي علي طه (قام بدوره الفنان عبد العزيز ميكوي والمفارقة أنه تقريبًا اختفى من الساحة مع علي طه) حين كان يصاحب سعاد حسني في شوارع القاهرة ٣٠ و٦٠ و٩٠! فإذا به يترك جمال عينيها ورشاقة جسدها وابتسامتها وحلاوة روحها ويتحدث معها عن الفيلسوف "أوجست كونت" بينما سعاد حسني فاكره "كونت" هذا الحاج الذي يبيع فلسفة على أول الشارع! ومن المؤكد أن "أوجست كونت" شخصيًا لو كان يصاحب في مشيته سعاد حسني لطلق الفلسفة بالتلاتة ساعتها وتعلق بعنقها وركع عند قدميها وحضنها عند الشجرة ووسع يا مخرج واحذفي يا رقابة! لكن ماذا تفعل للمغفل علي

طه الذي تراه في كل مشاهد الفيلم متجهمًا ومكشرًا متضايق قوي ويتخانق مع ذباب وجهه وينهر ويزجر زملاءه الطلبة رافضًا الفرح والمرح فضلاً عن أنه يمسك طول الوقت بكتاب في يده يذكرك فورًا بالأطفال الذين لا ينامون إلا والعروسة في حضنهم (دبدوبة الحبوبة) ثم حين اكتشف علي طه أن حبيبته انحرفت (وهي نتيجة طبيعية لتعاليم الحاج أوجست كونت!) فكل ما فعله علي طه أن نظر في السقف وتأمله في جهامة ثم نظر إليها ساخطًا شاخطًا ثم أمطرها بالكلام عن الزمن الرديء والمستقبل البريء وضرب نظره للسقف ومشى.. ميت خسرة على الرجالة؛ لكن علي طه لم يكتف بما فعله أو في الحقيقة بما لم يفعله بل واصل مواجهته للفساد بالنظر إلى السقف في جهامة وبعد تخرجه من الجامعة قرر الكفاح في الصحافة (ما الكفاح في ذلك!) فقد رفض الالتحاق بركب الجرائد الموجودة (طبعًا لأنها مقروءة) واختار إصدار جريدة اشتراكية من بير سلم وقد حدد سياستها التحريرية بخطبة عصماء وجهها (أرض أرض) لزملائه المحررين (وكلهم ثوار طبعًا وأشك أن أحدًا منهم يفهم في الصحافة) وركز علي طه على أن تخلو

جريدته من زخارف القول كي تكون جادة ومؤثرة في الناس ولم يقدم الفيلم لنا أي معلومة عن توزيع مجلة علي طه الاشتراكية أو مدى تأثيرها ولكن استنادًا إلى التاريخ والحاضر فهي لم تكن توزع أكثر من ستين نسخة معظمها في بارات وسط البلد بل من الواضح في الفيلم أن حبيبته سعاد لم تكن تقرأها وإذا كانت حبيبته لم تعصر على قلبها ليمونة وتقرأ المجلة فمن إذن جرؤ على قراءتها؛ إنها مجرد أوهام علي طه عن الكفاح والنضال؛ مجرد هلاوس علي طه عن تغيير الناس بكتب لا يقرأونها ومجلات لا يشترونها لأنها بعيدة عن أفكارهم ومشاعرهم وأحاسيسهم؛ ولأنه لابد للمثقف أن يعاني فقد مرض علي طه وأخذ يكح كما كان يكح على مرضى السينما المصرية! وكان لابد طبعًا من أن يطارده البوليس السياسي وهو بوليس أهبل وسينمائي جدًا فماذا كان يفعل علي طه وفيمن كان يؤثر حتى يهتم به البوليس السياسي أو حتى بوليس المرور! لأ وكمان يطارده!

لكن أجمل ما في فيلم علي طه نهايته إذ يطارده البوليس وهو يمسك منشوراته (يبدو أن هناك جمرة خبيثة في المنشورات!) ويجري علي طه جريحًا مترنحًا يرمي

بالمنشورات على العابرين ولو كنت من البوليس السياسي لكنت أخذتها منه ووزعتها بنفسي على الناس فما فيها إلا خطب لا تغني ولا تسمن من جوع؛ إن علي طه يشبه هؤلاء المثقفين الذين أقاموا تنظيمات سرية لإنقاذ الوطن فانتهت إلى أعضاء التنظيم اتجوزوا من عضوات التنظيم فضلاً عن تنظيمات أخرى انحصر نشاطها في توريد أعضائها إلى العيادات النفسية أو إلى المأذون أو إلى الدراسة في موسكو أجل موسكوا نفسها!

أما محجوب عبد الدايم (وقد قام بدوره النجم حمدي أحمد الذي عمل في السياسة بعد ذلك وكانت له فيها أدوار مهمة كالسينما تمامًا) لم يكن مشوار محجوب مثل زميله علي طه؛ مشوار الخطب والصراخ والانعزال التام عن الواقع الذي أدى به إلى الانعزال المطلق عن الجماهير والشارع! ماذا فعل محجوب؟ أبدًا أطلق حكمته الشهيرة طظ وباع؛ باع شرفه وكلمته ووظيفته وأهله وسلم نفسه للسلطة تركبه أو تركب سريره؛ وصعد وجلس على مقاعد النفوذ والسلطة والدولة!

من إذن الذي أودى بنا إلى ما نحن فيه علي طه أم محجوب عبد الدايم؟ عمومًا أنا شخصيًا مدين للأخ علي طه بالاعتذار فقد كنت حتى وقت قريب أعتبره أشد البلاوي الممكنة وأنه لا يقل رذالة وكرهًا وانهيارًا عن محجوب عبد الدايم، لكنني اكتشفت أن علي طه محترم كثيرًا عن غيره؛ كذلك مدين بالاعتذار لمحجوب عبد الدايم فقد كنت أظنه آخر درجات الضعة والانحطاط لكنني حين أقارنه الآن بالنماذج المستولدة منه والمتفرعة عنه أجده من شيوخ الصوفية بالنسبة لهم!

النوم مع العدو!

انتشرت أعراض عدوى خطيرة لمرض قديم أصاب مصر منذ مائة عام تقريبًا وها هو المرض والعرض يعود لينتشر كالفيروس؛ كالكوليرا في أنحاء المحروسة وخاصة في دوائر العاملين بالثقافة والإعلام حتى طغى وساد في البلاد وتوطن في الوطن؛ المشكلة أن هذا المرض كما أنه يتمدد بالجسد وينتقل بالعقل إلا أن المصابين به هم أكثر الناس دفاعًا عنه وعنادًا ضد علاجه! ويمكن تسمية هذا المرض باطمئنان علمي شديد بمرض المقطم!

تعود جذور هذا المرض إلى جريدة المقطم التي صدرت في فبراير ١٨٨٩ بعد سنوات من احتلال انجلترا لمصر والتي صارت لسان حال الاحتلال وكتبت ونشرت ما يمكن أن نقرأه الآن في مقالات كثيرين ممن يطالبوننا بمبايعة الولايات المتحدة الأمريكية وسياستها وحربها الإرهابية ضد الأفغان ورعايتها الكاملة وتحالفها المطلق مع إسرائيل وممن يبشر وينشر دعوته إلى مصالحة ومحالفة إسرائيل نفسها في سياسة الشرق الأوسط الجديد وغيرهم ممن تتعثر بهم في خرابات الفكر وحواري السياسة وأزقة التبعية؛ ليس جديدًا ما نراه ونقرأه من كُتاب وأساتذة هم من نطف المقطم الانسحاق

أمام الغرب المحتل والمسيطر هؤلاء الذين نبتوا كارهين لأمتهم ولثقافتهم ولدينهم؛ محتقرين لذاتهم الحضارية؛ الذين يطلبون أن نؤيد أمريكا من غير لكن! (نحن لا نؤيدها أساس فلا حاجة بنا بلكن أو إن لعل!) والذين يدعوننا إلى التطبيع مع الصهاينة بلو السلام مع العنصرية (النوم مع العدو!) والذين يدعوننا إلى التطبيع مع الصهاينة بلو السلام العنصرية (النوم مع العدو!) الذين يطلبون منا أن نتكاتف لمحاربة التيار الإسلامي لأن خطره على التنوير والحرية أخطر من خطر إسرائيل وأمريكا؛ الذين يرون في كولن باول وشيمون بيريز حلفاء وأصدقاء بينما عصام العريان وخالد مشعل من معسكر الأعداء؛ يقرأ المرء كل يوم في صحف ومجلات ويسمع ويشاهد في محطات وقنوات ساسة وكُتابًا وأكاديميين كأنهم يكتبون في المقطم؛ كأنهم يحررون صفحاتها اليوم لا من مائة عام؛ ولكي تعرف ما المرض ومدى خطورته اقرأ معي ما كتبته المقطم في تبيان سياستها في أعدادها الأولى (اعتمد على الرسالة العلمية التي قدمها دكتور تيسير أبو عرجة عن جريدة الاحتلال البريطاني في مصر ونشرت ضمن السلسلة القيمة تاريخ المصريين

عدد ١٠٢) تقول المقطم "أولاً: إن المحتلين احتلوا هذا القطر ولا يخرجون منه إلا بإرادتهم أو بقوة تفوق قوتهم.

ثانيًا: أن لا نفع للمصريين من معاندتهم ومعارضـــتهم.. وأن مصلحة المحتلين توافق مصلحة المصريين ولذلك يقصد المحتلون تنظيم أمور مصر وإصلاح حال المصريين فلــذلك يقضي حسن السياسة علينا بمسالمتهم ومحاسنتهم ومعاونتهم على إصلاح أحوالنا وإصلاح بلادنا لأن ذلك كله لخيرنـــا.. وعلى المصريين توثيق عرى الاتفـــاق والإخـــلاص بـــين المحتلين وحكـــومتهم وليعـــدوا أنفســـهم حلفـــاء المحتلـــين وأصدقاءهم لا خصومهم ولا أعداءهم حتى تتم ثقة المحتلين بهم ويسهل عليهم إنجاز وعدهم بالجلاء عن مصر.." (ليه ما يقعدوا أحسن).. تخيلوا أن المقطم وكُتابها من مائة عام حتى الآن يدعون الناس إلى مسالمة ومحاسنة ومصادقة الاحتلال الذي يرفع من شأن البلاد ويرقيها هل هناك انسحاق أكثر من ذلك وعبودية وإحساس بالدونية واحتقار للذات أكثـــر ممـــن يدعو إلى الفرح بالاحتلال والتسليم لـــه والاعتـــراف بـــه.. الشعب محتل والأرض مغتصبة وهم يتكلمون عن التعـــاون والتحالف؛ لا مكان عندهم للكرامـــة والكبريـــاء؛ لا وجـــود

للشرف والعرض والغضب! إننا نعيش ونشوف مثـل تلـك الحجج تنهال علينا لدرجة أن بعضًا من كتبة المقطـم ٢٠٠١ كتب عن فوائد الاستعمار للدول حتى تتقدم! وأن العالم الحر (حر يفعل فينا ما يشاء) ذهب ليحتل أفغانسـتان ليطورهـا وينقذها! وعنـدما نقـول إن هـؤلاء يعملـون ويتعـاملون ويتقاضون الثمن المادي والأدبي من الأمريكان فربما لا نبالغ فالمؤكد أن الكونجرس الأمريكي يدفع لشركة علاقات عامـة مبلغ ٤٠٠ ألف دولار شهريًا لترويج وجهة نظر الحكومـة الأمريكية في ٧٩ دولة هذه الأيام طبقًا لما نشـرته صـحيفة كريستيان مونيتور الأمريكية والوطن العربي من أهم الدول المستهدفة بالدعاية للسياسة الأمريكية والتصدي لكل من ينتقد ويهاجم السياسة السنية الأمريكية..

إن مرض المقطم ينتشر ويتسع فها هم يتهمون الشـعوب الثائرة والمقاومة بالغوغائية والهمجية كما كتبت المقطم تمام عن حادثة دنشواي (هل تتذكرون دنشواي؟) قالـت المقطـم "وقد أسفرت لنا عن حقائق من الغرابة بأعظم مكـان حتـى حار فيها كل قارئيها فأول تلـك الحقـائق ابتعـاد الضـباط الإنجليز عن الشر وحبهم العجيب للمسالمة وخلوص طويتهم

وصفاء نيتهم إلى حد لا يصدق.. وكل مصري ذي عقل ومروءة وأنفة وحمية يأنف أن يلطخ الأمة المصرية بعار ارتكبه رعاع من أسفل طبقة من طبقاتها كما يأنف عقلاء كل أمة من الأمم أن يلطخوا أمتهم بعار ترتكبه جماعة من رعاعهم وسفلتهم" بالذمة حد شاف مثل هذا؛ موتى وشهداء الوطن رعاع وسفلة! المدهش أن الاحتلال نفسه حس على دمه من المذبحة التي ارتكبها جنوده وعزل المعتمد البريطاني اللورد كرومر في الوقت الذي تطلق فيه المقطم على كرومر لقب "عزيز مصر" إنها تتعامل معه كأنه يوسف عليه السلام الذي أنقذ مصر من السنوات العجاف؟ هل هناك أذل من ذلك؛ هل هناك أذل من هذا؟ إن المقطم تكتب هكذا بالضبط عن انجلترا وحرفيًا (الدول المحتلة المحبوبة العادلة في جميع شئوننا الأدبية والمادية) ح نقول إيه تعليقًا على هذا أكثر مما يقوله مرضى المقطم الجدد عن إسرائيل الديمقراطية وبيريز عزيز الشرق الأوسط وأمريكا المحبوبة! وربما أدركت أمريكا وجود عشرات من خدام المقطم الجدد لدرجة أنها قررت إنشاء شبكة إذاعة أمريكية بكلفة ٣٠ مليون دولار موجهة إلى الوطن العربي قريبًا على حد قول

عضو كونجرس (انظر جريدة الشرق الأوسط السعودية ٢ – ١١ – ٢٠٠١) "إننا نريد أن نثبت مادة إذاعية متنوعة إلى أقصى حد بحيث تصل إلى كل الشباب من أولئك الذين يقذفون الحجارة على الجنود الإسرائيليين" ما الذي يؤكده ذلك أكثر من أهمية دعايات الاحتلال الإسرائيلي والهيمنة الأمريكية؛ أهمية المقطم وكتابها الجدد لأمريكا وللهيمنة على العقول والقلوب؛ إذا عدنا إلى المقطم وقرأنا ما كتبته أثناء الحرب العالمية الأولى (ضد الإرهاب) لعرفنا ما الذي يحدث الآن حيث تكتب المقطم ومرضاها القدامى والجدد" الحكومة الإنجليزية تترفع عن أن تخدع شعبها ولا تستطيع أن تخدعه.. فهذا الشعب الإنجليزي الكريم المشهور بالثبات والتؤدة وأصالة الرأي يجب على المصريين أن يحبوه ويكرموه ويحترموه (ناقص ويعبدوه!).. اللهم إننا نشهد أمامك أننا نحب الإنجليز ليس لأنهم لم يؤذننا ولا تعرضوا لمعتقدنا ولا لحريتنا فقط بل لأنهم تولوا أمورنا فحسنوا أحوالنا وأننا نقدر الخدمات التي قدمتها الحكومة الإنجليزية للمصريين في كل زمان ومكان حق قدرها.. والمصريون لا ينكرون أنهم لم يروا في جميع أدوار حياتهم خيرًا وبركة

وطمأنينة كأيام حكم الإنجليز لهم، الذي رقوا البلاد ماديًا وأغدقوا عليها الرفاهية وعمموا فيها العدل) آه والله العظيم كتبوا هذا الكلام؛ ألا تشم نفس الرائحة في كتابات اليوم عن أمريكا التي تستحق التحالف معها والانتصار لها؛ طيب خذ عندك دي بالمرة، مطلع قصيدة نشرتها المقطم بمناسبة فرض الحماية الإنجليزية على مصر موجهة إلى جلالة ملك بريطانيا.. اسمع يا سيدي "يا أيها الملك العظيم سلام/ هتفت ببيعتها لك الأقوام/ مصر الوفية لا تزال وفية/ وكما عهدت النيل والأهرام/ نالت حمايتك التي اعتزلت بها أمثالها واستمكن الإسلام (شايف الكفر.. واخد بالك من التحالف!) الذي ينقصنا الآن فقط قصيدة مثل هذه من أصدقاء التحالف للرئيس بوش الذي يستعيد الإسلام من خاطفيه في كابول كما يقول بعض مرضى المقطم!

إن الانسحاق أمام الغرب حتى ولو كان محتلاً غاشمًا وطاغيًا سافرًا هو معتقد وعقيدة هؤلاء الذين وجدوا في أنفسهم الفجور الكافي والفائض ليكتبوا هذه الحروف بالنص (أفعال كرومر في مصر أعظم من أفعال باني الأهرام

وأعظم من أفعال رمسيس أكبر الفراعنة وأعظم من أفعال بونابرت ومحمد علي...).

لا تبذل مجهودًا لتعرف مرض المقطم أو تتعرف على مرضاه فهم فخورون جدًا بما يفعلون ويظهرون في كل مكان يرددون أن العرب جرب والعروبة عبط والمسلمين متخلفون وأن الغرب هو المتفوق والمتحضر وأننا عالة على الإنسانية والحضارة (ولا تعرف هل يقصدون حضارة تجارة العبيد والبارود والقنبلة النووية أم حضارة حقوق الإنسان التي قتلت مليون طفل عراقي وثلاثة ملايين فيتنامي!) ويرون أننا جزء من حضارة البحر المتوسط (مالطا مثلاً) أو حضارة حلف الأطلنطي أو حضارة القطب الشمالي؛ المهم ألا نكون جزءًا من حضارة العروبة والإسلام فهذه أصولية متخلفة أو إرهاب مغلف!

الذين يرون أن طريقنا لنيل حقوقنا من إسرائيل هو أن نثبت لأمريكا أننا نحبها أكثر من إسرائيل وأننا حلفاؤها ويمكن أن نخدمها أفضل وأرخص؛ ويرون أن الوسيلة الوحيدة لاسترداد التراب العربي المقدس (عندهم طبعًا لا مقدس ولا نيلة وما نحن إلا مجموعة من المتخلفين نرى في

شوية جدران شيئًا يستحق الموت من أجله!) الوسـيلة هـي مفاوضة ومسالمة ومصالحة ومصافحة ومهادنة ومصـادقة إسرائيل حيث إنها الدولة المحتلة المحبوبـة وأننـا لا قـدها ولا قد غيرها!

هؤلاء مرضى المقطم الذين يؤمنون أن شـعوبنا رعـاع وغوغاء وهمج لا يجب أن تنقاد لهم الحكومات بل يجب أن تقـودهم (يـا واد علـى الديمقراطيـة!) وأن المظـاهرات والمقاطعات وحرق أعلام إسرائيل وأمريكا أعمـال متخلفـة (أين حرية التعبير وحياة الست والدتكم.. أم أنها مخصصـة للمتحضرين الحلوين المستحميين؟!) وأن هذه الشعوب ابنـة لثقافة الموت وضد ثقافة الحياة ومن ثم تسمى أي جثة شهيدًا وتحتفل بالموتى لأنهم ذاهبون للجنة. وينطبق علـى مثقفـي المقطم الجدد في دعوتهم للتحالف مع أمريكا والتطبيـع مـع إسرائيل ما كتبته المقطم بالنص "فإن معظم الفضل فيما نتمتع به وما نشكر عليه من نعم الراحة والتقدم والإصـلاح هـو لحكومتنا الجامعة بين عقلاء الوطنيين وحكمـاء المحتلـين" وعجبت لك يا زمن!!

فلسطين: البحث عن حق أم عن حل؟

وافرض أن دولة فلسطينية قامت الآن وقرر رئيس وزراء إسرائيل (أيًا كان اسمه) أن يقتحمها ويعيد احتلال هذه الدولة فرفع سماعة التليفون وقال لوزير دفاعه: نفذ يا عيزرا! فمن المتوقع أنه قبل أن يكمل كوباية النكسافيه قدامه يكون عيزرا قد احتل فلسطين؛ فهل يمكن أن تكون هذه دولة حقًا أم أنها مأساة وملهاة ثم أنها مسخرة الخيار الاستراتيجي الذي يسوق ويروج له حكامنا!

عندي في الحقيقة إحساس سخيف أطارده لأطرده لكنه برزالة شديدة يبقى ويتأكد عندي؛ أساس هذا الإحساس أن اقتحام شارون وقواته الإرهابية بيت لحم مهد المسيح ورام الله واحتلاله للمدن والقرى الفلسطينية كان متفقًا عليه بل ومطلوبًا من بعض العرب وهو تواطؤ محل شك؛ ما يبرره هو هذا الصمت العربي الرسمي الفاضح والرخيص وعدم ممارسة أي ضغط من أي أضعف وأتفه نوع على الولايات المتحدة الأمريكية (بالإعلام والتصريحات حتى!) مستغلين هذا الاحتياج الأمريكي الانتهازي للدول والحكومات والحكام والعرب؛ بل والتعليمات التي تلقتها وسائل الإعلام الرسمية في الوطن العربي بالتزام البرود والتلامة وتحجر القلب في

تغطية تلك الأحداث مع الإلحاح على أن بوش أنذر وحـــذر إسرائيل وكان زعلان خـــالص ومتضـــايق الصـــراحة!! إذا تأملت تصريح مسئول عربي لمجلة أمريكية الذي يؤكد فيـــه أن بلاده سمحت بطلعات لحركة الطيران العسكري الأمريكي بعبور أجواء البلد العربي انطلاقًا لهجمات يومية على كابول وقندهار وترجع تلك المجلة الأمريكية أن ٣٠٠ طلب لطلعات جوية قد تم الموافقة عليها وأن هناك تعاونًا يوميًا بالمعلومات والسماح للسفن الحربية بالعبور لهذا يصعب عليك تصـــديق أن تلك الدول العربية لا تستطيع التهديد بالخروج من بيـــت الطاعة الأمريكية إذا لم توقف إســـرائيل مجازرهـــا! ومـــن المذهل ألا نرى الحكام العرب يلوحون بمظاهرات شـــعوبهم ولا مشاعر مواطنيهم كوسيلة ضـــغط السياســـة الأمريكيـــة والإسرائيلية بل تلك الحكومات تفعل المستحيل لتحويل حرب أمريكا (التي تصبح كل يوم حربًا إســـرائيلية تحـــت العلـــم الأمريكي) إلى حرب ضد الإرهاب وليســـت حربًـــا ضـــد الأفغان فالتعليمات تنص على وصف الحرب على أفغانستان بأنها حرب على طالبان وكأن القنبلة وهي تنزل على كابول

عندما ترى مواطنًا مدنيًا تقول أتأخر أنت وهات واحد من طالبان!

بل هناك قرارات في نشرات تليفزيون عربي رائد تمنع من إذاعة وبث مظاهرات المسلمين في شتى بقاع الأرض ضد الأمريكان مع منع صور الجثث البريئة لأطفال ونساء المسلمين في كابول وقندهار وتبني سياسة أمريكا في التهوين من عدد وصور الشهداء المدنيين (هل تعرف أن المواطن الأمريكي لا يشاهد صور موتي أفغانستان بقرار من حكومته وأن وزير الدفاع وآخرين خرجوا ليقولوا إنه من الطبيعي أن يسقط مدنيون وأبرياء في الحرب ضد أفغانستان وهو كلام إرهابي لا يقل عن إرهاب قتل آلاف المدنيين في المركز التجاري فهي حالة حرب أيضًا مع أمريكا كما يرى بن لادن وهو ما يؤكد ما نتبناه من أن ما جرى يوم ١١ سبتمبر هو إرهاب مضاد للإرهاب الأمريكي المستخف بدماء الأبرياء على أنه "وماله بتحصل"!

إن رائحة شواء تصعد من مطابخ السياسة العربية تؤكد على ملامح صفقة يتعاون فيها الجميع على بر وتقوى السياسة الأمريكية؛ ولعل الحملات الصحفية في أمريكا

وانجلترا على بعض الدول والحكومات العربية هي بمثابة الطلقات التحذيرية والإشارات والتلميحات لهؤلاء الحكام إذا ما حاولوا الصيد في الماء العكر وأصروا على الفرقعات الإعلامية التي اعتبرتها أمريكا خروجًا عن النص من ممثلين متعاقدين مع المسرح الأمريكي! وهو ما يفسر التراجع المنظم المتعاظم عند بعض الدوائر العربية السياسية والإعلامية عن محاولة نقد وانتقاد السياسة الأمريكية أو السماح لجواد جامح في الإعلام بتلك المواقف؛ الصفحات الأولى للصحف العربية مشغولة بالإطراءات التي يسبغها الأمريكان على حكومات عربية معتدلة وامتدح الأدوار التي تلعبها تلك الدول في مواجهة الإرهاب وأظهرت بعض تلك الحكومات العربية فورًا أكثر من تنظيم أخرجته بطريقتها العربية الصميمة من الثلاجة لتثبت أنها على الدرب وكم عانت وتعاني من الإرهاب بل وتنصح كيف أن تواجه أمريكا وأوروبا الإرهابيين وهي النصيحة العربية المذهلة؛ أن تنسى تلك الدول الغربية حقوق الإنسان وخوتة دماغ تلك المنظمات التي كانت تؤرق مضجعها في مواجهة الإرهاب بالكلام الفاضي من نوعية منع التعذيب والاعتقالات المفتوحة

وأوضاع السجون!! والمدهش هنا أن وزراء الداخلية العرب في اجتماع أخير شجبوا إجراءات أمريكا بتوسيع دائرة الاشتباه والقبض على أبرياء لمجرد أنهم مسلمون عرب؛ والمفارقة أن هذه السياسة عربية اخترعتها وزارات الداخلية العربية في إضافة للحضارة الإنسانية وهي صاحبة نظرية افتح البوكس وعبي وبعدين نتفاهم! انظر من الذي يعاتب أمريكا لتتأكد أن أمريكا لن تعيره اهتمامًا؛ وهي تفهم طبيعة التمثيلية التي تؤديها الحكومات على شعوبها وإذا لم تصدقني فلتصدق السيد كولن باول وزير الخارجية الأمريكي في تصريحاته أمام الكونجرس حيث يقول: "إنني لست قلقًا من زعزعة الاستقرار في الوقت الحالي لكن لا شك أن هؤلاء الزعماء في البلدان العربية والإسلامية يواجهون تحديات السيطرة على المشاعر التي تود داخل دولهم؛ هناك أعداد كبيرة من الناس الذي يعارضون أعمالنا العسكرية لكن حكوماتهم ما زالت قادرة على دعمنا في ما نفعل" وهكذا يبدو إلى أي حد تلعب الحكومات العربية والإسلامية دورًا فاعلاً ومؤثرًا في خدمة السياسة الأمريكية وكيف يقومون بأكبر عملية للسيطرة على مشاعر وأفكار وتحركات ومظاهرات

شعوبهم مستخدمين القمع الناعم والفظ والإعلام الموجه والمزيف ومستخدمين فوق هذا كله القضية الفلسطينية في أوسع عملية نصب باسمها؛ كيف؟؛ انتظر معي قليلاً!

الحاصل أن عنوان الصفقة القادمة هي بيع القضية الفلسطينية والعربية بدولة فلسطينية هي إلى الوهم أن تحققت وكالهراء إن وجدت! ويبدو أن ثمن إنشاء الدولة هو بيع العروبة والإسلام إلى إسرائيل وأمريكا! بدلاً من الشعار الهزؤ "الأرض مقابل السلام" نشهد الآن شعارًا أشد هزؤًا وهزالاً وهو الدولة مقابل الاستسلام؛ الاستسلام لاحتلال كامل التراب الفلسطيني؛ الاعتراف بهزيمة الشعوب ونهاية فلسطين عن ٢٢% من الأرض المحتلة والاستسلام لسياسة أمريكا التامة للتفوق والسيادة الإسرائيلية وانتصار الصهيونية والاعتراف النهائي الكامل بأن العرب لا يملكون حقوقًا في فلسطين وحلال على المحتل الغاصب القاتل أرضنا وطننا حدودنا وشرفنا! هذه السطور تمهيد لعقد الصفقة وتعتبر جزءًا لا يتجزأ من العقد! عقد بيع وشراء أمة ووطنًا!

كيف يجري هذا التواطؤ ولماذا صفقة جديدة؟ هذا هو السؤال والإجابة تستحق العودة إلى الحكام العرب الذين

لا يبحثون عن الحق والعدل بل يبحثون عن راحة الـدماغ؛ ليس مهما أي دولة فلسطينية وأي أرض المهـم الموضـوع يخلص؛ إن تصريحاتهم كلها تتركز على أن الدولة الفلسطينية سوف يقضي ظهورها على الإرهاب وسوف يعم الاسـتقرار في المنطقة وهذا هو الهدف الأسمى حيث السـعي العربـي الرسمي لاستقرار الحكم؛ إنهم لا يبحثون عن حق بـل عـن حل والفرق شاسع هائل، والحل المطروح دولـة فلسـطينية ترضى بها وعنها إسرائيل؛ طيب إذا كـان الكـل موافـق بالصلاة على النبي ما نقرأ الفاتحة، لكن هناك مشكلة مؤرقة للجميع وهي الجماعات والمنظمـات الإسـلامية والقوميـة الرافضة للتسوية الإسرائيلية والتي تقوم بأعمال فدائية تمزق الأمن الصهيوني وتعطل عجلة السلام التي تحتاج إلى هـواء ونفخ بعد كل عمل فدائي؛ عرفات لا يستطيع فعل ما فعلـه من قبل وهو إدخالهم السجون والمعتقلات حيث تنهار هكـذا وحدته الوطنية (سلطته بالأحرى!) خصوصًا أنه لا يطمـئن إلى أن الثمن الإسرائيلي سوف يرضي شعبه؛ كما أن تلـك الحركات الإسلامية في الوطن كله دخلت بكـل قوتهـا فـي الصراع العربي الإسرائيلي مما يشعل حماس الجماهير لهـم

مع وجودهم السياسي المؤرق لحكوماتهم التي تريد إبعادهم نهائيًا عن الساحة ولا ينقصها قضية جماهيرية تزيد من دورهم وشعبيتهم؛ الحل إذن أن تقوم إسرائيل وتشيل الليلة تقتحم وتحتل وتسجن وتغتال وتخطف وتطرد وتظهر البديل المخيف وهو ضياع فتات الدولة وبقايا الأرض هنا تحدث النتيجة التي أرادتها كل الأطراف سواء بالإيحاء أو الإيماء أو المشاركة الكاملة بالرأي والتخطيط وهي:

١- تركيع الحركات الرافضة للتسوية وطحن عظامها والتلويح لغيرها بنفس العاقبة.

٢- تنزيل مستوى الطموحات والمطالب العربية فبعد أن رفض العرب عام ٤٧ التقسيم عليهم الرضا بالمقسوم بعد ٥٤ عامًا من العجز والعار والهوان.

ساعتها يهب أنصار السلام الذين يريدون توقيع التسوية اليوم قبل الغد؛ دولة وهمية وحدود في يد العدو اقتصاد تحت أنيابه وأوامر تتلقاها الدولة العزبة من البندر الإسرائيلي.

وهكذا نخلص من وجع القلب في فلسطين وقضيتها ونطلع زعماء سلام وأعدنا فلسطين ونتفرغ لبناء الوطن الكباري والمجاري والمحمول والبورصة والصفقات ونمشي وراء

شطارة اليهود حيث العز والنغنغة ورضا أمريكـــا والنـــاس الحلوة والجدعان وأصحاب الأصول وأهل بلدنا فردًا فـــردًا وأنا وأنت وأجدع سلام!

هل فرح العرب في الضربة القاتلة التي نالتها الولايات المتحدة الأمريكية؟

حسناً السؤال بلا مواربة ولا ملاعبة: هل فرح العرب في الضربة القاتلة التي نالتها الولايات المتحدة الأمريكية؟

الإجابة (وليمسك محبو الإنسانية أعصابهم): نعم فرحـوا وابتهجوا وامتلأ الشارع العربي سعادة وراحة!

هل معنى ذلك أن العرب تخلوا عن إنسـانيتهم فسـعدوا وابتهجوا بسقوط آلاف الأبرياء قتلى تحـت ركـام الـدمار والانفجار.

الإجابة عن السؤال الثاني بدقة شديدة تحتاج إلى تعريـف الإنسانية، فهي (أي الإنسانية) كما هي تعاطف وتكاتف مـع الضحايا فهي (الإنسانية نفسها) أحيانًـا الانتقـام والشـماتة والتشفي، من هنا فردود الفعل إنسانية وتمامًا في الحـالتين، ومع ذلك فالمحتم أن العرب لم يسعدوا على الإطلاق لمنظر القتلى والضحايا لأنهم أولاً لم يشاهدوا في اللحظـة الأولـى لا قتلى ولا ضحايا (اليوم الأول كان الكلام عـن الضـحايا نظريًا ولم تكن شاشات التليفزيون قد أظهرت الجثـث بعـد وهو أمر لابد من أخذه في الاعتبار مع ضرورة فهم آخر في السياق نفسه أن العرب يشاهدون كل يوم بل لعله كل سـاعة الجثث الفلسطينية فيتألمون والجثث الإسـرائيلية فيبتهجـون

(ليغطي محبو السلام عيونهم!) لكن الفـرح الأول والبهجـة التي سيطرت على الشارع العربي (لا تصدق من يقول لـك إن هذا لم يحدث ولا تخجل كذلك من حدوثه فهم السبب فـي خشونة قلبك ولست أنت) كان مرده إلى انهيـار الغطرسـة الأمريكية، تلك الدولة العظمى التي تخيلت نفسها ربنـا فـي الوطن العربي تنهار أهرامها (برجا التجارة) ووزارة دفـاع الرجل الخرف الفظ رامسفيلد الذي صرح منـذ سـاعات أن شارون من حقه أن يضرب ويغتال الفلسطينيين، إذا بوزارته رمز الغطرسة والاستعمار تنهار، حذاء ثقيـل بنعـل حـاد يضرب هذا الكائن الأمريكي، كيف لا يسعد الشارع العربي إذن (إن لم يكن الأمر لا يعجبك فهناك متسـع فـي الأيـام القادمة لاستشارة الطبيب النفسي) نعم كبرياء أمريكا ينهـار أمام أعين بشر مطحون ومقهور ومحتل برعاية ودعم وقـوة وغطرسة أمريكا، ما الذي تنتظـره منـه إن أبسـط أمـور الإنسانية أن يفرح ويشمت لا يخجل من تلك المشـاعر بـل يحتضن أخوته وأصحابه ويقبل زوجته وأولاده فرحًا واحتفالاً بسقوط عدوه!

نعم سعد العرب وهو أمر مؤلم أن يسعدوا لهذه الكارثة الإنسانية لكن من حق العرب أن يسألوا عن مشاعر الأمريكان عند سقوط القتلى والجرحى في فلسطين من حليف أمريكا وبسلاح أمريكا، ماذا عن شعورها مع سقوط قتلى مدنيين وأطفال ويتامى من جراء ضربة جوية لبغداد! في المشاعر أيضًا العين بالعين والسن بالسن!

لقد تعامل العرب مع ضرب أمريكا على أنه انتقام من دعمها ورعايتها للصهيونية والعنصرية وتحالفها مع إسرائيل، بل وتمنى عرب كثيرون أن يكون منفذو العمليات أو قاهرو أمريكا عربًا ومسلمين، لأمريكا أن تجزع من تلك المشاعر ولها أن تندد أو تهدد، تستنكر أو تستنكف، تهاجم أو تتهجم، تغضب أو تعند، لكن عليها في وقت فراغها أن تسأل نفسها (لو كان لديها وقت) ما الذي يجعل كل هؤلاء البشر يكرهون أمريكا ويرفضون سياستها؟

من الممكن أن تريح أمريكا نفسها وتحافظ على غبائها وتستمر في نجاح ساحق تمارس الفتونة والغطرسة وهو أمر يبدو مع الرئيس بوش الأقرب للاحتمال، وسوف تبطش

وتضرب ولكن لتنتظر في أي صبح الطـــائرة القادمـــة مـــن بوسطن.. وسوف تظهر!

إذا كانت أمريكا تريد أن تـــذهب للجنـــون لتـــذهب إذن الطريق مفتوح والمواصلات سريعة لكن لا تلومن إلا نفسها فقد ارتفع خيال مواجهة أمريكا وصارت تلـــك الدولـــة فـــي متناول الأيدي والبالونة فرقعت والمستضعفون فـــي الأرض المقهورون في كل مكان مستعدون لتســـليم جثـــثهم مقابـــل توصيل رسائلهم! إنهم يوجعون قلوب العرب بـــالكلام عـــن ضرورة الرد الفوري الانتقامي (لا يوجد دليل ضد العـــرب المسلمين حتى كتابة هذه السطور رغم صدور تصـــريحات أحذية إسرائيل في أمريكا) وكأن العرب سيخافون من الـــرد؛ المرء لا يفهم حجم الهوس والروث الذي نراه في تصريحات الانتقام (هل تتذكر سهمًا عربيًا مسمومًا.. في فيلم الناصـــر صلاح الدين) كيف ستنتقم أمريكـــا، مـــن ستضـــرب، ألـــم يستوعبوا بعد أن الكارثة أن قوتهم لن تفعل لهم شـــيئًا لأن لا أحد يخشى شيئًا، أين سيضربون.. هناك حارتان لم يحطمهم! قسوة أكثر قوة أفدح.. ليكن الذي فجر أمريكا كـــان ســـكين مطبخ، كانت فتاحة جوابات، وهي أسلحة كما ترون لا تحتاج

تفتيش أو مطـــاردة.. أو غــزو أو احـــتلال. المؤســف أن الإدارات الأمريكية التي تقود مجتمعها إلى الكوارث لا تعي أن الذي يحاربها يحـــاربها من أجل ظلمها وطغيانها ثم أنـــه لا يطلب منها سوى العدل ولا يخاف شيئًا على الإطـــلاق.. لماذا لا يخاف؟ لأنه ببساطة لا يخاف المــوت ألـــيس هـــذا ما يخاف منه الجميع.. أمريكا لن تدرك سريعًا أنها تحـــارب الجنة!

لكن من قال إن الجنة في قتل أبريـــاء يشـــربون القهـــوة في مكاتبهم ولا يعرفون عن قضايا المسلمين والعرب أبعـــد مما يشاهدونه في التليفزيون ورؤيتهم حجاب جارتهم المسلمة وربما لا يكون معظمهم لا يحبون بوش وسياســته (نصــف أمريكا أساسًا لم تنتخب بوش) فعلاً قتل هؤلاء عمـــل غيـــر إنساني لكن لا يجوز معه سوى النظر بزاوية أخرى لمن نفذ هذه العمليات، هل كان يفعل ذلك إرهابًا مع أمريكـــا أم أنـــه يعتبر نفسه في حالة حرب مـــع قـــوى الولايـــات المتحـــدة الأمريكيـــة وعســـكرها وإدارتهـــا وســـيطرتها وســـطوتها وغطرستها وعتوها ضد الفلسطينيين، هنا يتصور فاعل هذه العمليات (ومعه الذي ابتهج بها) أن ما فعله مقاومة مســـلحة

وحربًا مضادة ومن ثم يصير طبيعيًا أن يكون هناك ضحايا من الأبرياء، ألم تقتل أمريكا نفسها آلاف الأبرياء في هيروشيما ونجازاكي في اليابان، كانت الأهداف مدنية وكان الضحايا مدنيين ولم تفرز القنبلة وهي تنفجر هذا مدني وهذا عسكري! ورغم أن الجنة ومن يدخلها علمها عند ربي لكن من حق صاحب هذه العمليات أن يراها فوزًا بالجنة فهو يرى نفسه حق يواجه باطلاً!

الهستريا القائمة الآن في أمريكا ضد العرب والرغبة المحمومة من الشعب الأمريكي في ضربة عاجلة وقاسمة للإرهاب دليل على أن مشاعر الانتقام والثأر هي الحاكمة لهذا المجتمع الذي يظن نفسه حضاريًا بل ورمز الحريات والحضارة أليس غريبًا أن يرفض المجتمع الأمريكي تنفيذ عقوبة الإعدام للأفراد مخافة تحول المجتمع إلى قاتل لا يقل وحشية وعدوانًا عن القاتل الذي ينفذ فيه عقوبة الإعدام، بينما يطالب الآن بالقتل والإعدام العاجل السريع الجماعي للدول أو الشعوب التي تقف وراء ذلك الهجوم على أمريكا، هل هذه هي الإنسانية التي غضب من أجلها الأمريكان حين فرح العرب بما جرى!!

ليكن لتصبح حكومة وإدارة أمريكا كما هو منتظر منها بالضبط، غاشمة وعنصرية وعدوانية ومتغطرسة واستعمارية وترد الضرب حالاً فورًا! لكن أين ستضرب ومن؟ هيا لتخرج الإنسانية أسوأ ما فيها، شماتة من الشارع العربي، وانتقام سافل غبي وغاشم من أمريكا، إذا كان للمسلمين والعرب علاقة بالهجوم فهل ستضرب أمريكا العرب والمسلمين؟ هل المفروض أن ترتدع قلوبنا وترتجف جلودنا خوفًا من أمريكا، إذن لتزداد الكراهية لتتعمق لتترسخ ليستعد كل من يريد الانتقام مرة أخرى من أمريكا؛ حقًا هل غاب العقلاء عن هذا البلد؟ هل خرج العقلاء ولم يعودوا إلى الولايات المتحدة فكل ما يفكرون به يخدم الأزمة ولا يقدم الحل، فمن المؤكد أنه لا توجد دولة عربية أو مسلمة وراء ما حدث، هناك أفراد داخل شعوب وراء ما جرى وهناك الشعوب نفسها التي سعدت بضرب أمريكا (وليست سعادة بقتل الأبرياء.. هناك فرق!) فماذا ستفعل الإدارة الأمريكية التي لم يعد أحد في العالم إلا ويشكو من غبائها وغطرسة رجالها (صباح الخير يا رامسفيلد يا وزير الدفاع الإسرائيلي في أمريكا!!) لتبحث عن عمليات اغتيال مستهدفة تنقذ عارك)

أغلب الظن أن الولايات المتحدة تريد أن تضرب أشباحًا، أشباح دول أو أشباح منظمات، والمحصلة أن التعنت الأمريكي والعنف والعدوان والرعاية والدعم الأمريكي سيظل قائمًا لإسرائيل.. إن أمريكا مذهولة من هذه الشعوب العربية التي تسند حكامها وتمنح شعوبها المعونات والأموال ويكرهونها، ولا تعرف أميركا (أو تستعبط) أن المعونات والمنح لا تهم أحدًا حتى الجوع والفقر، الذي يهم (لتستعد أمريكا للمفاجأة) هو المسجد الأقصى والقدس ودماء الفلسطينيين الزكي النقي التقي.

هل ينادي الحجر والشجر على المسلم لقتل اليهود؟

حاول المسلمون بعد الهزائم العربية أمام إسرائيل أن ينتصروا بترديد الأحاديث النبوية الشريفة (لا العمل بها) تعويضًا عن الانتصارات العسكرية وامتد في العالم العربي والإسلامي هذا الحديث النبوي الشريف الذي صار محفوظًا في القلب قبل الذاكرة ويتردد على نحو مقدس دون أن نفهمه بدقة وبعمق؛ الحديث عن النبي ﷺ أنه قال "لا تقوم الساعة حتى تقاتلوا اليهود فيختبئ اليهودي وراء الحجر والشجر فيقول الحجر والشجر: يا عبد الله – أو يا مسلم – هذا يهودي ورائي فتعال فاقتله" البعض يردد الحديث على أننا سنحارب اليهود إلى يوم القيامة (وكأننا هكذا لن ننتصر عليهم أبدًا!!) وأننا سوف ننتصر على اليهود بمساعدة من معجزات سماوية حيث ينطلق الشجر والحجر ويحاربون معنا (وكأننا لا نستطيع الانتصار على اليهود إلا بالمعجزات؛ ملائكة في حرب أكتوبر وحجر وشجر بعدها)! والحديث ضلع أساسي في الدعم المعنوي الذي نقدمه لأنفسنا في معركتنا المهزومة عسكريًا مع إسرائيل لكن التأمل فيه فعلاً يستحق التوقف والتبين فهو كما قلنا يوحي لكثيرين أنها حرب حتى القيامة والنصر يوم الحشر على هذا النحو مما يعمق لدينا اليأس من

النصر القريب فعلاً كذلك فإن مواجهة العدو والانتصار عليه يحتاج وفق الفهم المباشر للحديث إلى معجزات فوق البشر وأبعد عن التحقق في هذا العصر، وقد شرح صدري أن الشيخ الجليل يوسف القرضاوي قد رد على سؤال حول هذا الحديث في موقعه على شبكة الإنترنت (إسلام أون لاين) ليلة ٢٣/١٠/٢٠٠١ وجاء في السؤال نفس الفهم العام والهام حيث سأل السائل: (وسؤالي: هل يفهم من الحديث أن معركتنا مع اليهود ستستمر إلى قيام الساعة، وهل يدل الحديث على أن الحجر والشجر ينطق حقيقة؟ وهل يكون "كرامة" للمسلمين؟ وهل المسلمون اليوم أهل لهذه الكرامة، أو أن هذا علامة أخرى على قرب قيام الساعة كما يشير أول الحديث؟. (ينتهي السؤال الذي يعكس كل مخاوف فهم الحديث دون عمق ما فيه وألم ما فينا؛ فكيف أجاب الشيخ القرضاوي..

أول الأمر أن الحديث صحيح (فهكذا بدأت إجابة الشيخ) فقد صح من حديث ابن عمر، ومن حديث أبي هريرة.

فقد روي الشيخان عن أبي هريرة أن النبي – صلى الله عليه وسلم – قال: "لا تقوم الساعة حتى تقاتلوا اليهود، حتى

يقول الحجر وراءه اليهودي: يا مسلم هذا يهـودي ورائـي فاقتله" (ذكره في: صحيح الجامع الصغير برقم – ٧٤١٤).، وفي رواية لمسلم: "لا تقوم الساعة حتى يقاتـل المسـلمون اليهود، فيقتلهم المسلمون حتى يختبئ اليهـودي مـن وراء الحجر والشجر، فيقول الحجر أو الشجر: يا مسلم، يـا عبـد الله، هذا يهودي خلفي، فتعال فاقتله.. إلا الغرقد، فإنـه مـن شجر اليهود" (ذكره في: صحيح الجـامع الصـغير أيضًـا ٧٤٢٧)، ورواه الشيخان من حديث ابن عمر بلفظ: "تقاتلون اليهود، فتسلطون عليهم، حتى يختبئ أحدهم وراء الحجـر، فيقول الحجر، يا عبد الله، هذا يهودي ورائي فاقتله" (ذكـره في صحيح الجامع الصغير – ٢٩٧٧).

فالحديث من حيث سنده صحيح بغير نزاع، وهـو مـن أعلام نبوة رسولنا ﷺ.

وقد مضت قرون، وقارئ هذا الحديث يعجب مما تضمنه من نبأ لا ينبئ عنه الواقع الملموس لحال المسـلمين وحـال اليهود، نحو ثلاثة عشر قرنًا.

فقد كان اليهود في ذمة المسلمين وحمايتهم، وقد اضطهدوا في كل أنحاء العالم، ونبذهم أصحاب الملل كلها، ولم يجـدوا

دارًا تؤويهم وتحوطهم إلا دار الإسلام، ولـم يجـدوا مـن يحميهم ويذود عنهم وعـن حـريتهم الدينيـة والمدنيـة إلا المسلمين، الذين اعتبروهم أهل كتاب، وأعطـوهم ذمـة الله ورسوله، وذمة جماعة المؤمنين، فكيف يحدث قتـال بيـنهم وبين المسلمين؟ وكيف يقاتل الإنسان من يحميه ويعيش فـي كنفه؟ ومن أين لهم القوة حتى يقاتلوا المسـلمين؟!.) وهنـا استوقف إجابة الشيخ القرضاي لأعود وأؤكد حين أكـرر أن آخر معركة دارت بين المسلمين واليهود في بـدايات عهـد الفاروق عمر بن الخطاب وبعـدها لأكثـر مـن ١٣ قرنًـا لم يحارب المسلمون ولم يقتلوا أو ينكلوا باليهود (بمـا فيهـا فترة الحروب الصليبية وحروب الأندلس وأن الحرب التـي بدأت في فلسطين الذي أشعلها وفجرها وكان فيهـا الفـاجر المحتل والغاصب هم اليهود ولأنهم يهود؛ نعود لفتوى الشيخ القرضاوي حيث يضيف:

وقد بدأ القتال بالفعل بين المسلمين واليهود، منذ اغتصبوا أرض فلسطين، وأخرجوا أهلهـا مـن ديـارهم، وانتهكـوا كل الحرمات، وغدا المسجد الأقصى أسيرًا في أيديهم، وهـم

يخططون لهدمه؛ ليبنوا هيكلهم على أنقاضه، والمسلمون في غمرة ساهون، وفي غفلة لاهون.

ولكننا مؤمنون بأن المعركة التي نبأ بها الحديث الصحيح قادمة لا ريب فيها، تلك المعركة التي "يسلط" فيها المسلمون على اليهود، بعد أن كانوا هم المسلطين على المسلمين، تلك المعركة التي "يقاتل المسلمون فيها اليهود، فيقتلهم المسلمون" بعد أن مضت سنون وعقود، والمسلمون يقتلهم اليهود!!.

هذا المعركة التي أخبر بها الحديث الشريف آتية لا ريب فيها، هذا ما يوقن به كل مسلم، ويترقبه كما يترقب قدوم الفجر بعد ظلام الليل.

ولكن متى؟... علم ذلك عند الله عز وجل.

قد تكون غدًا. أو بعد غد... أو بعد ما شاء الله من السنين.

المهم أن هذه المعركة، كما ينبئ بها الحديث ليست معركة وطنية ولا قومية... إنها معركة دينية.

إنها ليست معركة بين العرب والصهاينة كما يقال اليوم، وليست معركة بين اليهود والفلسطينيين، أو بينهم وبين السوريين أو العراقيين أو المصريين.

إنها "بين المسلمين واليهود" هذا ما جاء في الحديث بصريح العبارة، فليست معركة "فئة" من المسلمين ضد "فئة" من اليهود، بل معركة "مجموع" المسلمين، مع "مجموع" اليهود، كما يفهم من الألفاظ. هنا أتوقف مع الشيخ القرضاوي لأختلف معه حيث إن الحديث الشريف نص على مسلمين ويهود في ساحة معركة وحرب حيث يدور القتال والاقتتال ومن ثم فالقطع النبوي هنا واضح حيث يقتصر على اليهود المعادين المحتلين والغاصبين حتى ينهزموا ويرتدوا على أعقابهم فنحرر الأرض وننقذ الوطن ونستعيد الشرف وليست هي حرب إبادة لكل يهودي وليست نحرًا بل هي تحرر فضلاً عن العصر النبوي لم يكن به لا مصري ولا عراقي ولا فلسطيني كانت الجزيرة هي أرض الإسلام والعروبة ومن ثم التعيين في الحديث أمر بعيدًا تمامًا والتعميم هو اللازم.. لذا لزم التنويه حتى نعود مرة أخرى إلى

استكمال الفتوى كتابة وقراءة؛ يمضي القرضاوي قائلاً في فتواه.

والواقع إلى اليوم أن مجموع اليهود يقاتلوننا بكل ما لديهم من طاقة، بذلوا أموالهم وهم أبخل الناس بالمال، وجادوا بنفوسهم وهم أحرص الناس على حياة، ولكنهم أخذوا الأمر جدًا لا هزل فيه، وخططوا وصمموا وأجمعوا ونفذوا.. مستمدين قوتهم من تعاليم التوراة، وأحكام التلمود.

أما نحن، فما زال الإسلام مستبعدًا من معركتنا معهم، وما زال الكثيرون منا يريدونها معركة قومية لا دخل للدين فيها، ولا صلة له بها، فهم يجتمعون تحت راية اليهودية، ونحن لا نجتمع تحت راية الإسلام، وهم يحترمون السبت، ونحن لا نحترم الجمعة، وهم يتنادون باسم موسى، ولا نتنادى نحن باسم محمد ﷺ.

ولابد أن نصارح أنفسنا: إننا إذا أردنا أن تتحقق معركة النصر الموعودة، فلابد لنا أن نغير ما بأنفسنا حتى يغير الله ما بنا، لابد لنا أن نحاربهم بمثل ما يحاربوننا به، كما قال أبو بكر لخالد.

وهذا ما نادينا به، ونادى به كل المخلصين الذين أنار الله بصائرهم، وعرفوا الطريق الصحيح والوحيد لتحرير فلسطين (وليسمح لنا شيخنا الجليل في وقفة نوافقه فيها تمامًا على أن الدين تم استبعاده من غلاة ومتطرفي اليسار والقومية الليبرالية فيما مضى رغم أن الدين هو المفجر للثورة ضد إسرائيل ورغم أن المساس بالأقصى هو الذي جعل انتفاضة الأمة تقود وتسود حتى النصر بإذن الله ورغم أن قدسية القدس هي التي أوقفت مسلسلات التنازل والاستسلام على موائد التفاوض؛ لكن يا سيدي الجليل نحن لم ولن نقف بين النضال ضد العدو الإسرائيلي ومن يرغب من إخواننا الأقباط والمسيحيين العرب العظام والأحرار ولن نحول بين القوميين المؤمنين بعروبتهم دون شرف الدفاع عن الأرض والعرض بل ولن نرفض الأيادي الممدودة من كافة شعوب الأرض بالكلمة والفعل والحرب أحيانًا من أجل فلسطين وكل من يرى إسرائيل غاصبة ومعتدية؛ أخشى أن الذي يريد تحويل المواجهة إلى دين ضد دين يرتكب نفس مأساة الإبعاد لشركاء في النضال والكفاح لمجرد رؤيته المختلفة والمغايرة وهو ما ارتكبته فرق فكرية وسياسية وآل الأمر إلى ما آل

إليه ثم قد يفهم البعض من فتواك يـــا شـــيخي أن فلســـطين ستحرر لتكون وطناً للمسلمين فقط وأنا أعلم يقيناً أنك تـــرى فلسطين الحرة وطناً لشـــعبها مـــن المســـلمين والمســـيحيين بل واليهود إن سلموا واستسلموا ليست معركة بين دين ودين بل معركة بين مسلمين وعرب يرفعون راية الإسلام والحق والعروبة بل والإنسانية ضـــد يهـــود صـــهاينة عنصـــريين محتلين.. وهذا قولي).

ويمضي الشيخ الفاضل القرضاوي في فتواه ويقول:

وهنا نتساءل: أيكون نطق الحجر والشجر بلسان المقال أم بلسان الحال؟.

والجواب: أنه لا يبعد على قـــدرة الله تعـــالى أن ينطـــق الحجر الأصم، وما ذلك على الله بعزيز، ويكون ذلك كرامة للمؤمنين من باب خوارق العادات، وقد رأينا في عصرنا من العجائب المذهلات، ما قرب إلينا كـــل مـــا كـــان يســـتبعده الماديون الجاحدون.

على أنه لا مانع أن يكون نطق الشجر والحجـــر بلســـان الحال، وقد قيل: لسان الحال أفصح من لسان المقام. والكلام لغة: كل ما يفيد معنى، وإن لم يكن بطريق النطق المعتاد.

المهم أن من كان النصر حليفه كان كـل شـيء يعمـل لحسابه، ويدل على عدوه، حتى النبات والجماد، ومن كتـب عليه الخذلان، كان كل شيء ضده، حتى السلاح الـذي فـي يديه). وهنا لا مناقشة لظهور الخوارق التي يظـن شـيخنا القرضاوي أنها قد تكون معجـزة ولـم لا؛ ولكننـا نـرى أن الركون إلى المعجزات يسلمنا إلى التواكـل وهـو ممـا لا ينقصنا في حقيقة الأمر كمسلمين بـل أظـن أن الحجـر والشجر كأنهما أقمار صناعية تكشف وتفضح وتذيع وكأنهـا أجهزة استشعار عن بعد مركبة فوق أشجار وأحجار إمـا أن ينطق الحجر فعلاً فهي كرامة لا وجود لها ولا أمـل فيهـا ولا معنى لانتظارها فالذي يدافع عن أرضه ويحرر مقدساته ليس في حاجة إلى معجزات لم يقدمها الله عز وجل لرسوله إلا في بدر الكبرى ولا قبلها ولا بعـدها إنـه ديـن العقـل والإرادة لا التواكل والمعجزات! ولنعود إلى فتـوى شـيخنا حيث يقول:

أما سؤال الأخ: هل يفهم من الحـديث أن معركتنـا مـع اليهود ستستمر حتى قيام الساعة؟.

فالجواب: إن الصيغة لا تفهم يفهم منها ذلك بالضـــرورة، إنما تدل على أن الأمر الواقع بعد حرف الغاية "حتى" ســيقع لا محالة ولا ريب في ذلك قبل قيام الساعة، وكلمة "قبل قيام الساعة" تمتد من بعد وفاة النبي – صلى الله عليـه وسـلم – إلى أن تطوى صفحة هذا العالم، وبعبارة أخرى: إلى أن تقوم الساعة.

وقد نظرت فيما ورد بهـذه الصـيغة "لا تقـوم السـاعة حتى..." في كتاب صحيح الجامع الصغير، فوجدته قد أورد خمسة وعشرين حديثًا، منها ما قد وقع بالفعل، أعني ما بعد "حتى" ومنها ما لم يقع، ولا زال منتظر الوقوع.

فمما وقع: ما جاء في حديث أبي هريرة عند البخاري: "لا تقوم الساعة حتى تأخذ أمتي أخذ القرون قبلها، شبرًا شـبرًا، وذراعًا بذراع، قيل: يا رسول الله: كفارس والـروم؟ قـال: ومن الناس إلا أولئك؟" (صحيح الجامع الصغير).

وتقليد الأمة لم قبلها من الأمم، وإتباعهـا لسـننها شـبرًا شبرًا، وذراعًا بذراع، قد وقع وأسفاه، وكلنا يشكو منه..

ومنها: ما جاء في حديث أنس عند أحمد وابن حبـان: "لا تقوم الساعة حتى يتباهى الناس في المساجد" (صحيح الجامع

الصغير). أي التباهي بزخرفتها وفخامتها، وهذا قد حدث منذ قرون.

ومنها: ما جاء في عدد من الأحاديث: "لا تقوم الساعة حتى تقاتلوا الترك.." (صحيح الجامع الصغير).، وقد حدث هذا من قرون، ثم هدى الله الترك، ودخلوا في الإسلام، وأصبحوا من أعظم المقاتلين من أجل الذود عنه، وإعلاء كلمته.

وهناك أمور تضمنتها أحاديث أخرى لم تقع بعد، مثل: "لا تقوم الساعة حتى تطلع الشمس من مغربها". ويبدو أن السائل ظن أن الانتصار على اليهود، من هذا النوع المؤخر إلى قرب الساعة، ولا دليل في الحديث على ذلك.

بل المرجو – إن شاء الله – أن ذلك قريب، وقد لاحت تباشيره، وظهرت بواكيره، في الصحوة الإسلامية المرجوة لغد هذه الأمة، وفي ثورة المساجد، ثورة أطفال الحجارة، وحركة المقاومة الإسلامية الصامدة الباسلة، وفي التنادي في كل مكان بضرورة العودة إلى الإسلام، وهو ما يبشر بقرب يوم النصر ﴿ **أَلَآ إِنَّ نَصْرَ اللهِ قَرِيبٌ** ﴾ البقرة: ٢١٤.

والله أعلم.. انتهت الفتوى ويبقى أن نشير بكل امتنان مذهل للحركة الإسلامية الساطعة في فلسطين لكن المعركة لنصرة فلسطين ليست حكرًا على جماعة أو فريق والنصر قادم بإذن الله بتحالفنا جميعًا وإيماننا كلنا وراية الإسلام الدين والحضارة ترفرف فوقنا جميعًا وتحتها رايات الحق والعدل والعروبة والإنسانية؛ والصيحة الصحوة هي الإيمان المطلق بأن المعركة تدور اليوم ولا تنتظر يوم القيامة والحرب ضد إسرائيل هذه الساعة وليس يوم قيام الساعة..!

بترول مصر لإسرائيل

أما بعد..

فلا بعد ولا قبل..

لا في الروح منفذ للطلوع ولا في العروق عرق لم يحترق دمه.

فإذا كان الواحد يستطيع أن يتحمل رؤية خيانة الساسة والحكام لفلسطين وللفلسطينيين من كثرة ما رأى ومن كثرة الخونة إلا أنه لا يقدر على تحمل تبرير البعض وتفسير الكثيرين للخيانة ورفعهم من شأن وحكمة الخونة!

وما كنت أحب أبدًا أن أتهم أحدًا بالخيانة مهما كان (رغم إيماني بوجود خونة بالطبع)، لكنني ما كنت أتمنى أيضًا أن تصبح الخيانة وجهة نظر ورؤية استراتيجية وحكمة قيادية ونظرية ملكية أو رئاسية ثاقبة يطالبون الشعب ليس فقط بالسكوت عنها بل بتصديقها وبمبايعتها!!

المؤكد يا جماعة أن حكومة مصر لا تريد أن تحارب إسرائيل ولا أن تطرد سفيرها ولا أن تقطع علاقتها مع الصهاينة وهي كالثور الحرون مصممة تمامًا على أن تفعل ما تراه رغم أن ما يراه الشعب والمواطنون عكس وضد ذلك، لكن في الزمن الذي نشاهد صورًا لطلبة مجبرين

ومقهورين يقدمون وردًا لقتلة زميلهم ويشكرون رئيسهم أنه أمر بالتدخل في أمور القضاء والقدر وأفرج عنهم بينما حكومته هي التي سجنتهم بتهمة الاعتراض والاحتجاج على إسرائيل والوزير الأمريكي باول (الذي يأتي لينشر بعضًا من فيض بوله على ساستنا!)، في هذا الزمن لنا أن نتحمل ما لا يتحمله البقر ما دام يحكمنا ما لا يمكن للبقر أن تقبل بحكمهم!

المهم ما يجب أن يعرفه كل طفل وشاب ومواطن ومواطنة في مصر ويكرره لنفسه في الصبح والمسا؛ أن حكومة مصر المحروسة بالمرتجفين من مواجهة إسرائيل عدوهم وعدو العرب وعدو الله!! هي التي تزود دبابات العدو الصهيوني بالبترول والنفط الذي تمشي به وتسير وتسافر وتقتحم الدبابات والطائرات الإسرائيلية فلسطين شعبًا وأرضًا لتقتل وتدمر الفلسطينيين وفلسطين أيهما أقرب!، نعم أيها الشعب الكريم فإن ٨٠% من البترول الذي تستورده إسرائيل من مصر، من حقول بترول سيناء، آه والله العظيم تلاتة، وإذا كانت الحكومة يمكن أن تنصب علينا وتقول إن توريد وتزويد بترول مصر لإسرائيل إنما هو طبقًا لاتفاقية معاهدة السلام مع إسرائيل (!!) فالرد الباتر الحاسم أن مدة هذه

الاتفاقية ببنودها العلنية والسرية تنتهي بعد عشرين عامًا من توقيعات أي أنها انتهت عام ١٩٩٩ فلماذا ما زلتم تــزودون دبابات وطائرات ومدرعات وسيارات قتلة إسرائيل بالبترول المصري؟، لماذا تشاركون في العدوان على فلسطين والشعب الفلسطيني العظيم المقاتل المقاوم، قلتم لن نحارب ولن نقاطع ولن نطرد أو نسحب سفيرًا، وضربتم وقتلتم مواطني مصــر المتظاهرين الغاضبين وأعلنتم في مذلة أن ســلامكم ســلام استراتيجي وأنكم ستنهزمون لو حاربتم وأن سيناء يمكــن أن تضيع مرة أخرى لو هاجمتنا إسرائيل، وكل هذا جبن صــار طبيعيًا ومفهومًا فمتى كنتم غير ذلك؟ أنــتم أبطــال علينــا، فرسان ضدنا، بواسل أمامنا وليس على أو ضد أو أمام العدو أمريكيًا كان أو إسرائيليًا!

لكن كله كوم وأن تكونوا المورد الأول والرئيسي لبترول مصانع أسلحة ودبابات ومدرعات إسرائيل فهذا ما لا يطيقــه أحد، لا تدافعون عن فلسطين.. ماشي، وأن تضغطوا علــى عرفات كي يوقع بيان هزيمة.. مش أول مــرة!!، لكــن أن تشاركوا في قتل الفلسطينيين فهذا العار كامل ومكمل!!

نحن الشعب المصري للأسف نشارك بثروتنا من البترول بأوامر حكومتنا في قتل الفلسطينيين وكل دبابة ترمي بمدافعها منزلاً أو مواطناً فلسطينيًا إنما يجلس في مخزن وقودها مواطن مصري يحمل في راحة كفيه بترولاً، نحن شركاء للقتلة الصهاينة نحن نقتل أعظم المناضلين والشجعان الفلسطينيين، نحن نشارك بترولنا في حصار عرفات!!

نحن قتلة بفضل بعض السفلة!!

فهل نصمت، وهل نرضى، وهل نرضخ؟

انتبهوا اصرخوا احتجوا عارضوا اذهبوا لحقول البترول المصرية أيها المصريون وتفرجوا على أول زناد يضرب فلسطين، على أول طلقة رصاص في صدر فلسطين!

نحن قتلة بفضل بعض السفلة!!

نحن لسنا فقط نسلم ونستسلم للعدو الإسرائيلي بـن نحن نساعده ونشاركه في قتل شقيقنا وعدوه الفلسطيني!

ليس السلام فقط إذن الخيار الاستراتيجي.. بل الذل خيار استراتيجي!

نحن قتلة بفضل بعض السفلة وإن لم تصدقوني فاسألوا السفلة!

تحرير فلسطين من أعدائها.. وحكامها!

قلنا بدل المرة ألفا أن الديمقراطية هي طريق تحرير فلسطين من العدو الإسرائيلي، فالديمقراطية تحررنا لنملك تحرير فلسطين، والديمقراطية ليست مطلوبة في السلطة الفلسطينية وعند عرفات فقط بل هي واجبة وحتمية في البلاد العربية كلها كي نخرج من دائرة العجز وطوق التخلف وحظيرة العبودية لحكامنا وحكوماتنا، وتحاول إسرائيل منذ فترة أن تقنع العرب أن نشأة ديمقراطية عربية في المنطقة هو الذي سيوفر عقد سلام (استسلام) مع إسرائيل، وهي محاولة لتشويه صورة الديمقراطية لدى المواطن العربي وتقديمها على أنها استسلام وانهزامية ومن ثم فقدان الثقة بها وعدم الأمان لها، بل وتفضيل الديكتاتورية والطغيان العربي على الديمقراطية المطلوبة إسرائيليًا من أجل الاستسلام وضياع الأرض!

والحقيقة إن بعد ما تريده إسرائيل في منطقتنا العربية هي ديمقراطية تصعد بحكام منتخبين شرعيًا إلى مقاعد رئاسات الدول والحكومات، حيث إن الكفيل والضامن لحالة العجز والهوان والهزيمة والرخاوة العربية هو الطغيان الحكومي الجمهوري والملكي وتزييف إرادة الشعوب وعبودية وتأليه

الحكام وتوريث الحكم والحكومات وغياب الديمقراطية وتداول السلطة في بلادنا تمامًا!!

من هنا أود تقرأوا معي مقالين منشورين في جريدة إسرائيلية (أتمنى أن يصلا لكما كاملين!!) لتدركوا كيف ينظر لنا عدونا؟ وإلى أي حد تعرف إسرائيل تعرية الطغيان العربي أمام العالم، ثم كم هو محزن أن تكشف أقلام إسرائيلية عورات أمتنا ولا نستطيع إلا أن نوافقها على خيبتنا ومهانتنا كشعوب أمام الحكام والحكومات، مثلاً كتب جاري بيخور في يديعون أحرنوت في عدد ٢٠٠٢/٥/٣٠ يقول بالنص.

"يتكلم الكثيرون في المنطقة وفي الولايات المتحدة عن نية أو ضرورة ياسر عرفات لتنفذ إصلاحات هيكلية وسياسية في السلطة الفلسطينية، بما في ذلك انتخابات جديدة لرئاسة السلطة الفلسطينية وانتخابات للمجلس التشريعي الفلسطيني أكثر انفتاحًا، لسوء الحظ، من ينتظر أن تنفذ إصلاحات هيكلية كهذه قريبًا، لا يفهم الواقع السياسي في المنطقة – بما في ذلك في السلطة الفلسطينية – منذ أكثر من خمسين عامًا. وبما أننا لا نتوقع إجراء إصلاحات هيكلية في المملكة

العربية السعودية، في مصر أو في سوريا، فلا يمكن لنا أن نتوقعها في السلطة الفلسطينية، عادة عندما يواجه زعيم عربي مأزقًا معينًا، فيجري استفتاء أو نوعًا ما من الانتخابات. ولا ينوي الزعيم تنفيذ عمل ديموقراطي، إنما استعادة ثقة شعبه، بالنموذج الكلاسيكي لنظام العالم العربي، وهو نموذج البيعة. هذا شبه عقد بين الزعيم، الملزم بتحقيق الاستقرار الاجتماعي لشعبه، وبين الجمهور العام، الملزم بالطاعة غير المحدودة. يتم تجديد البيعة إزاء حدث فتاك، وهكذا يفعل الزعماء العرب في الشرق الأوسط. للوهلة الأولى يبدو أن الدول العربية تتأسس على مؤسسات ديموقراطية مثل الدستور والبرلمان وحرية الصحافة وحقوق الإنسان والاستفتاء، وأما المفهوم المركزي فعليًا، فهو البيعة الثابتة القديمة بين الزعيم والرعية. وهكذا حدث أن بعض الدساتير العربية، من بينها المصرية والتونسية، جرأت على تعديل يحدد فترة حكم الرئيس، لكن تم تعديلها بسرعة، وذلك لمفهوم البيعة الذي يسمح للرئيس بالاستمرار في الحكم حتى وفاته.

هل لديك أي تعليق رافض أو ناقد لما كتبه هذا الصحفي الإسرائيلي (الفاهم)، طيب خذ عندك مقالاً آخر من كاتب إسرائيلي هو سيفر فلوتسكر في نفس الجريدة يديعوت أحرنوت بتاريخ ٢٠٠٢/٦/٣ كتب يقول:

"أخذت العربية السعودية ومصر على عاتقيهما، مسئولية الضغط على ياسر عرفات كي ينفذ الإصلاحات الديمقراطية في السلطة الفلسطينية. ومنذ ذلك الوقت تدور نقاشات يقظة، لكنها غير محسومة، حول السؤال الفضولي: هل يمكن لعرفات شخصيًا قيادة هذه الإصلاحات، أم أن استبداله يعتبر شرطًا أساسيًا لجعل السلطة الفلسطينية ديمقراطية.

لكن النقاش لا يجري حول مسألة لا تقل أهمية، وهي: كيف يمكن للقيادة السياسية في بلدين غير ديمقراطيين أن تكون العراب والأب الروحي للديمقراطية الفلسطينية؟

وكيف يمكن للفلسطينيين أنفسهم التعامل باحترام مع مطلب إجراء الإصلاحات وسماع مواعظ الديمقراطية من أنظمة لم تمنح الحقوق الأساسية، الديمقراطية والإنسانية لمواطنيها؟ هل سيتعلم الفلسطينيون من السعودية ومصر آداب الليبرالية السياسية؟ هذا ليس جديًا، من لا ينتهج

الديمقراطية في بلاده لا يمكنه أن يكون كذلك خارج بلاده، أيضًا. إن النخبة الحاكم في العالمين العربي والإسلامي، بما في ذلك السعودية ومصر، تتخوف حتى الموت، حتى من إمكانية قيام وترسخ ديمقراطية عربية – علمانية، في السلطة الفلسطينية، تكون نموذجًا ومصدر إلهام. بالنسبة لهم، من المفضل بقاء عرفات، فهو على الأقل يعتبر منهم، من سلالة الدكتاتوريين والحكام المنفردين.

إذا كانت المؤسسة السعودية معنية إلى هذا الحد برؤية الإصلاحات في الشرق الأوسط، فلتبدأ تطبيقها في بلادها، والأمر نفسه يقال بالنسبة للحكومة المصرية. فالديمقراطية، تبدأ في البيت أولا".

انتهى المقال الإسرائيلي الكاشف الفاضح لما يجري في أمتنا.. وقد كسر عيوننا، تمامًا كما يكسر حكامنا ظهورنا!!

الحقيقة أن فلسطين سوف تتحرر عندما تتحرر من صناديق انتخاباتنا العربية من التزوير والتزييف وعندما تتحرر صحافتنا وإعلامنا ومثقفونا من النفاق والقمع، وعندما تتحرر أحزابنا العربية من عملاء الأجهزة الأمنية العربية والأجنبية، فالعبيد لا يحررون أحدًا ولا يستردون وطنًا، كما

أن الطغاة لا ينتصرون في أية معركــة إلا عنــدما تكــون المعركة ضد شعوبهم!!

زفرة العربي الأخيرة

هي ذات المعركة في كل مرة ومنذ مئات السنين، هل نقاوم أم نسلم؟، هل نستشهد دفاعًا عن أرضنا ونحارب دفاعًا عن الدين والأرض والعرض ولا نشتري دماغنا ونعمل لنا واحد خيار استراتيجي ونوقع على معاهدات في كامب الكوفة أو جنب أوسلو! ونخلص.. وطنش تعش تنتعش،!

وفي كل مرة هناك أيضًا علي بن أبي طالب ومعاوية، وهناك الحسين ويزيد بن معاوية، وكل واحد ورجاله، من يطلب النعش نصرًا ومن يطلب العرش قصرًا، ومن يطلب الجنة بالسيف ومن يطب البيت الأبيض بالتليفون!!

ومنذ خمسمائة عام وأكثر كان الأسبان قد حاصروا غرناطة آخر ممالك الأندلس الإسلامية واشتد الحصار وبلغت أهواله حدًا مريعًا وبينما كان الملك عبد الله أمير غرناطة داخل قصر الحمراء أشهر قصور الدنيا، ملتاعًا فزعًا كان هناك فارس عربي يقود آخر المعارك، إنه موسى بن أبي غسان بطل الفرسان الذي كان يصيح على أسوار غرناطة: "لم يبق لنا سوى هذه الأرض التي نقف عليها فإذا فقدناها فقدنا الاسم والوطن" ولكن كما يقول د. محمد عبد الله عنان أعظم مؤرخي الإسلام في مجلده الجامع (دولة الإسلام

في الأندلس) وهو ما يمثل مرجعي في هذه السطور، يقــول إن الأوامر جاءت بالتسليم والاستسلام!

وكان أمير غرناطة نفسه (ومعه وزراؤه وقواده) كانوا قد اتفقوا مع ملك قشتالة الأسباني العدو سرًا على تسليم غرناطة ولم يجرؤوا على المجاهرة بعزمهم هذا خشية ثورة الشـــعب ضدهم، وتزيد الحكايات على ذلك بأن القواد المسلمين الذين اضطلعوا بهذه المفاوضة تلقوا تحفًا وأموالاً جزيلة من ملــك قشتالة (هل وضعوها كالعادة في بنوك سويسرا؟) وفي نفس الوقت الذي عقدت فيه معاهدة التسليم عقدت معهـــا معاهـــدة سرية أخرى يتم فيها منح الأمير أبى عبد الله وأفراد أســـرته ووزرائه منحًا خاصة من ضـــياع وأراضٍ (عرفـــت لمـــاذا يقضي الملوك والرؤساء العرب حتى الآن مصـــايفهم فـــي أسبانيا إنهم ينعمون بورث أجدادهم الذين بـــاعوا العروبـــة والإسلام من زمان!) وأموال نقدية وحقوق مالية وغيرها.

وحينما اجتمع الزعماء والأمراء والنواب وأعضاء مجلس الشعب والشورى والأعيان والتجار ورجال الأعمال ورؤساء الأحزاب في بهو قصر الحمراء الكبير ليوقعوا عهد التســـليم وليحكموا على دولتهم بالذهاب وعلى أمتهم بالفناء لم يملـــك

كثير منهم نفسه من البكاء والعويل (شهيدًا شهيدًا شهيدًا!) ولكنه وحده موسى بن أبي الغسان لبث صامتًا عابسًا ثم قال: "اتركوا العويل للنساء والأطفال فنحن رجال لنا قلوب لم تخلق لإرسال الدمع ولكن لتقطر بالدماء وإني أرى روح الشعب قد خبت حتى ليستحيل علينا أن نوقظ غرناطة ولكن ما زال أمامنا سبيل للنفوس النبيلة؛ ذلك هو موت مجيد فلنمت دفاعًا عن حرياتنا وانتقامًا لمصير غرناطة وسوف تحتضن أمنا الغبراء أبناءهم أحرارًا من أغلال العدو وعسفه وإن لم يظفر أحدنا بقبر يستر رفاته، فإنه لن يعدم سماء تغطيه وحاشا الله أن يقال إن أشراف غرناطة خافوا أن يموتوا دفاعًا عنها "ثم صمت موسى وساد المجلس سكوت الموت وسرح أبو عبد الله البصر حوله فإذا اليأس مائل في تلك الوجوه التي أضناها الألم وإذا كل عزم قد خاب في تلك القلوب الكثيرة الدامية عندئذ صاح: الله أكبر لا إله إلا الله محمد رسول الله ولا راد لقضاء الله والله لقد كتب عليَّ أن أكون شقيًا وأن يذهب الملك على يدي وأنه لا مفر ولا مهرب وأن شروط ملك الأسبان أفضل ما يمكن الحصول عليه (دولة على أقل من ٢٢% من فلسطين عفوًا

من غرناطة!) فلما رأى موسى أنهم بدأوا فعلاً توقيع صك التسليم نهض غاضبًا وصاح: "لا تخدعوا أنفسكم ولا تظنوا إن الأسبان سيوفون بعهودهم ولا تصدقوا كلام ملكهم، اسمعوني فإن الموت أقل ما نخشى فلا يزال هناك ما سيفعلونه من نهب مدننا وتدميرها وتدنيس مساجدنا وتخريب بيوتنا وهتك نسائنا وبناتنا وأمامنا معاناة الجوع الفاحش والتعصب الوحشي والسياط والأغلال وأمامنا مصير السجون والأنطاع والمحارق، هذا ما سوف نعاني من مصائب وعسف وقهر وقمع وهذا ما سوف تراه على الأقل تلك النفوس الوضيعة التي تخشى الآن الموت الشريف". ثم غادر المجلس عابسًا حزينًا غاضبًا وخرج من القصر دون أن ينظر لأحد أو ينطق بكلمة ثم ذهب إلى داره وغطى نفسه بسلاحه وركب جواده المحبوب واخترق شوارع غرناطة ولكن مؤرخ أسبانيا قديمًا هو القس انطونيوا أجابيدا يكمل ما حدث بعد رفض موسى لمعاهدة الخزي والعار وبيع غرناطة من الفسدة الفجرة فيقول إن سرية من الفرسان الأسبان تبلغ نحو الخمسة عشر التقت في ذلك المساء بعينه على ضفة نهر "شنيل" بفارس مسلم قد دججه السلاح من رأسه إلى قدمه

وكان مغلقًا خوذته شاهرًا رمحه وكان جواده غارقًا مثله في رداء من الصلب فلما رأوه مقبلاً عليهم طلبوا منه أن يقف وأن يعرف بنفسه فلم يجب الفارس المسلم ولكنه وثب إلى وسطهم وطعن أحدهم برمحه وانتزعه عن سرجه فألقاه إلى الأرض ثم انقض على الباقين ينهال عليهم طعانًا وكانت ضرباته ثائرة قاتلة وكأنه لم يشعر بما أصابه من جراح ولم يرد إلا أن يقاتل وأن يسيل الدم وكأنه إنما يقاتل للانتقام (بل للشهادة يا سيدي!!) وكأنما يتوق أن يقتل دون أن يعيش لينعم بنصره (الشهادة أجمل من النصر!) وهكذا لبث يبطش بالفرسان الأسبان حتى أفنى معظمهم غير أنه أصيب في النهاية بجرح خطير وسقط جواده بطعنة أخرى فسقط الفارس إلى الأرض ولكنه شب على ركبتيه واستل خنجره وأخذ يناضل عن نفسه ويقتل في عدوه، فلما رأى أن قواه نضبت ولم يرد أن يقع أسيرًا ألقى بنفسه إلى مياه النهر وتعرفوا عليه إنه موسى الغسان. ولكن لم يعرف أحد حتى الآن هل مات من الجراح أم نجا من الغرق وعاش بعدها، لكن المؤكد أن الأسبان تعرفوا على جواده مقتولاً!!

أما الملك عبد الله فقد سلم ووقع معاهدة السلام وسقطت غرناطة وسقط المسلمون ودولة الإسلام في الأندلس خرج الملك من وطنه ولما وصل إلى مراعي على حدود غرناطة وتأمل مجده الضائع ووطنه المستسلم انهمرت دموعه وأجهش بالبكاء فصاحت فيه أمه عائشة: "أجل فلتبك كالنساء ملكًا لم تدافع عنه كالرجال" وتنهد الملك مكسورًا ومحطمًا، فأطلق الأسبان على هذا المكان تحديدًا ذلك الذي بكى فيه آخر عبي في الأندلس اسم (زفرة العربي الأخيرة)..

**

وكل ما أرجوه حين يتفسح ويصيف زعماؤنا العرب في أسبانيا قريبًا أن يوقف أحدهم تاكسي مناديًا "زفرة العربي الأخيرة لو سمحت"!!..منهم لله!

ومن قال إننا سننهزم لو تصارعت الحضارات!

أشم رائحة سمك ميت هذه الأيام تخرج من أقلام بعض الكتاب (والكتبة) الذين يطالبون العرب والمسلمين بمراجعة دورهم وأفكارهم التي أدت إلى اتهام الغرب لنا وللثقافة والحضارة الإسلامية بالتعصب والإرهاب!

والمؤكد أنه لا بأس من أن يراجع العرب أنفسهم ليفتشوا عن أخطائهم (وهي كثيرة وأثقل من الهم على القلب) وليبحثوا عن عيوبهم (وهي ليست في حاجة إلى بحث متعب فهي في المرآة بمجرد النظر) وليقوموا بجرد للأعداء والخصوم والأصدقاء (وهو أمر في حاجة إلى أمين مخزن موضع ثقة وليس من هواة إشعال الحرائق قبيل تاريخ الجرد).

لا بأس من هذا كله وهو مطلوب ومرغوب ومفروض كذلك؛ من أين إذن تأتي الرائحة النتنة في الكتابات والمحاضرات والمنتديات التي تدعو إلى مراجعة الذات ومحاسبة النفس العربية؟

مشكلة الذي يدعونا إلى المراجعة أنه يطلق دعوته في مناسبة غريبة للغاية وهي إعلان الغضب الأمريكي والأوروبي على الحضارة الإسلامية والعربية أو على

المسلمين والعرب، وكأن تلك المراجعة للنفس والفكر والسلوك والثقافة مطلوبة الآن لأننا أخطأنا (..) في حق الإنسانية والبشرية؛ ولأن الغرب برجاله وإعلامه ومسئوليه يعلن عن غضبه علينا وعلى تعصبنا وتطرفنا وتخلفنا ومن ثم لم يعد راضيًا علينا (مبقاش يحبنا زي زمان!) ولذلك علينا أن نعيد النظر في مواقفنا وحياتنا كي نعرف لماذا نحن هكذا (لا نحظى برضا الإنسانية ولماذا يكرهنا الغرب وشركاه؟).

مشكلة الذين يدعوننا إلى المراجعة أنهم (وهكذا كتب معظمهم) انتهزوا فرصة الهجوم الأمريكي والغربي على العرب والمسلمين وقالوا "وبمناسبة هذا الهجوم يجب أن نراجع أنفسنا!" ومن ثم ليست الدعوة لاكتشاف ضعف وتهرؤ في حضارتنا بل بسبب سوء ظن الغرب بنا وطرده لنا من حضانة الحضارة الغربية، ويبدو هذا متسقًا مع صدور تلك الدعاوى من أساتذة متغربين بالضرورة وأكاديميين يعتقدون أن محالفة الغرب والاندماج معه هي وسيلة التقدم والتحضر!

طبعًا من المهم أن نسجل أن تلك الدعاوى رغبتها الأساسية هي تقدم ورقي مجتمعاتنا، ولكن التقليد والإتباع (والتبعية) للغرب هي قنوات الوصول من وجهة نظرهم لهذا

التقدم؛ فضلاً عن الاعتقاد أن نموذج التقدم هو الغرب أي أن كتالوج الحضارة والتطور هو كتالوج غربي بالأساس ولا يمكن إصلاح سيارة إلا باستخدام كتالوج بلادها أما الطريقة الوطنية بتاعة وكالة روض الفرج، موتور مرسيدس وشكمان بيجو وديركسيون فيات وفوانيس فولكس وميكانيكي من عابدين، فتنتهي بنا إلى تخلف وتراجع حضاري (دعك أن سيارات من هذا النوع تجري في شوارع القاهرة كالرهوان!) ولهذا فقد انتهز الإخوة من جمعية أنصار السنة الغربية وزملاؤنا من مشاركي المجهود الحربي الأمريكي مجريات الأحداث هذه الأيام وقرروا الانقضاض على العروبة والإسلام في لحظة تلقي السهام من كل صوب وطرحوا لعبة الجرد الحضاري (الذي ينتهي بالحريق) وخرجوا بحكاية "إحنا اللي نستاهل، والذنب ذنبنا والغلطة عندنا وإحنا اللي ربينا عيالنا غلط فجابوا لنا العار، وابعد أيدك يا باشا لا حسن تتوسخ"!!!

والسؤال من الذي وضعنا موضع المتهم وألقى بنا في قفص الجناة؟ من هو أساسًا الحكم في تلك المباراة ومن الذي يضع قواعد المعادلة ومعايير المحاسبة! إنه الغرب

والأمريكان، بمعنى أن من يلبس جلبابًا ويطلق لحيته يصبح متخلفًا فيسارع أصدقاؤنا بتوع المجهود الحربي الأمريكي لدعوتنا لارتداء البدلة حتى نواكب الحضارة، هل تلاحظ أن قوات التحالف الشمالي الأفغاني العميل لأمريكا يحرص جنوده على لبس الزي العسكري الغربي كذلك يظهر سياسيوه بالبدل الأمريكاني كوسيلة لتعاطف وتأييد العالم وتقديم أنفسهم بديلاً حضاريًا بالبدل ضد بدائي ومتخلفي (..) طالبان والقاعدة!

عشرون مسلمًا وعربيًا على أكثر تقدير دبروا ودمروا في واشنطن ونيويورك فإذا بقوى الغرب الشريرة والعنصرية تخوض حربها ضد الإسلام فيخرج عشرات من مجرمي الكتابة (وهم لا يقلون خطورة عن مجرمي الحرب) يقولون إن الإسلام مسئول فعلاً ويخرج الغربان الذين لونوا جلودهم بالبياض لعل الحضارة الشقراء ترضى عنهم، يزعمون أن مجتمعاتنا الإسلامية بأفكارها وخصالها متخلفة وإرهابية أو على أقل تقدير مسئولة عن التخلف والإرهاب والمفروض أن نراجع أنفسنا أمام خيمة الامتحان التحريري والشفوي أمام لجنة الأمريكان والغرب؛ لابد أن نحفظ ونصم ونصدق

منهاج الغرب ونحفظ أناشيده ونستوعب دروسه حتى ننجح، أما المناهج العربية والإسلامية فهي التي أودت بنا إلى كارثة التخلف والإرهاب؛ هذا هو الذي يسعى إلى تمريره وترويجه وتعميده عدد من مثقفي الماركسية القدامى ومفكري التنوير التابع وجنود كتيبة الكتبة في الجيش الأمريكي من خلال طرح تلك الأفكار والإلحاح عليها ويشاركهم فريق لا بأس به من المستقلين والنابهين منا، المشكلة أن بعضنا بدأ يستسلم لهذه الأفكار السقيمة من فرط القهر والإفراط في اليأس، ورغم أنه يبدو من الصعب القبض على الجمر تلك الأيام إلا أننا نصر على أن الصراع أو الصدام بين الحضارات أمر مذموم ومرفوض وغير عاقل أصلاً، لا يجب أن نتعامل مع هذا الصراع المزعوم كأننا نخافه أو نخشاه وترتجف أجسادنا من التفكير فيه أو في حدوثه لو فرض علينا فنحن لسنا الطرف الأدنى أو الأحقر أو الأرخص والأضعف؛ ثم إذا كانت الحضارات هي محصلة مشاركة وتفاعل بين الإنسانية كلها فنحن لنا نصيب حقيقي في العز الذي يحياه الغرب بل هو نفسه ورثة المستبدين والمستعمرين والصليبيين وتجار العبيد كما أنه ورثة قيم العدل والحرية والمساواة؛ الحضارة

الغربية ليست شرًا أو وبالاً بل فيها الناصع المشرق البراق لكنها كذلك موضع أخذ ورد، ونقض ونقد، ثم أنها ليست مفروضة علينا ولا هي شرط وجودنا؛ بل أصل إلى حد أننا قد نأخذ من تلك الحضارة الغربية ما نحبه وليس ما يفيدنا بالضرورة، ونترك ما نكره حتى لو أفادنا؛ فالتفاعل بين الحضارات مثل نقل كلى أو كبد من جسد إلى جسد آخر؛ مدى قابلية التلقي وقبول العضو الغريب يتوقف عليها نجاح العملية والشفاء؛ ونحن حين نقول حضارة عربية إسلامية نعني أن المسيحي العربي مشارك فيها مثل المسلم العربي تمامًا، نعني أنها تحمل داخلها وفي جذورها كذلك حضارة الفرس والفراعنة والعجم والترك واليونان وكل ما تشتريه الحضارة العربية والإسلامية؛ نحن أصلاب حضارة ولسنا مستولي أفكار وشحاذي نظريات! ومن ثم نتفاعل ونتحاور ولكننا لسنا في موضع التعامل مع الحضارة الغربية كبضاعة تصدير واستيراد أو تجارة تقفيل وتركيب؛ ثم لماذا نوجه عيوننا إلى الحضارة الغربية (هل لأنها المتسلطة المنتصرة) ولا نتجه إلى حضارة الصين والشرق الآسيوي (هل لأنهم صفر وليسوا بيضًا شقرًا مستعمرين!).

ربما نحن في حاجة ماسة إلى مراجع حقًا نحاسب أنفسنا فيها؛ كيف تركنا مصائر أمتنا في أيدي حكام ظلمة وطغاة رموا بنا تحت نعال البيت الأبيض؛ لماذا ينتشر بيننا رجال نخبة رخوة يكرهون حضارتنا وتراثنا ويعيشون بقمصان نوم على سرير الغزاة، بعض الذين يطالبوننا بالمراجعة لحضارتنا الإسلامية والعربية كي يرضى عنا حكام وصهاينة أمريكا يشبهون تمام أولئك "المتعاونين" مع الاحتلال الإسرائيلي الذين يبلغون على أماكن فدائي حماس ويشيرون على مقرات كوادر الجبهة الشعبة من أجل مساعدة الصهاينة لاغتيال الوطن!

غنم الراعي الأمريكي!

يبدو أن عرفات ليس المرتعش العربي الوحيد الذي يدافع عن بقائه في السلطة على قلبها لطولون، بل هنـــاك عـــرب وعربان يسعون في تدافع وتكالب يشبه فوضى ساعات مـــا قبل الزلزال أن يتموا تصـــفية وبيـــع القضـــية الفلســطينية والخلاص منها ومن وجع قلبها وإحراجها لحاملي الأوســـمة والنياشين العسكرية من حكام الأمة العربية المنكوبة بحكامها والمخروبة بزعمائهـــا والمهزومـــة بجنرلاتهـــا والمخذولـــة بمثقفيها والموكوسة بوزرائها والمنهوبة من رجال أعمالهـــا والمحروسة بالخرز الأزرق والأحجبـــة ودعـــاء العـــواجيز والتعاويذ الطيبة من شر أعدائها إذا اعتدوا!!

عرفات ليس الملهوف الوحيد فهناك لهفة عربية رســـمية على إنهاء الانتفاضة الفلسطينية ولم الدور وتكبيـــر الـــدماغ وتبريد العروق وتركيب القرون وتوفيق الأوضاع وتلبـــيس العروسين (عرفات وشارون!!) الدبل وكتب الكتاب في القسم وربنا حليم ستار!.

ألم تلاحظ حضرتك معي أنه بعد اندلاع الغضب الشـــعبي العربي الرائع متمثلاً في مظاهرات هائلة سالت فيهـــا دمـــاء شباب مصري وأردني وبحريني برصاص قوات أمن الحكام

العرب الذين يحمون الحاكم لا الشــعب والــذين يــدافعون عن استقرار السلطة وليس عن حق المواطن، ومع المقاطعة العربية المذهلة للبضائع والمحلات الأمريكية والإســرائيلية، أصبح من الطبيعي جدًا أن يهاجم رموز الســلطة ورجــال المباحث الصحفية مظاهرات الطلبة والجمــاهير ووصــفها بالشغب والتخريب وكيــف أن الشــاب العربــي الطــائش المضحوك عليه يقف أمام مدرعة الشرطة الوديعة التي تشبه العصفورة كي يعطلها عن دهس زملائه، وأيضًــا يصــرخ بهتافات عن عجز الحكام بالذمة شفت انحــراف واندســاس أكتر من كده! ثم هــذا الهجــوم الفاســد الســافر والســافل على دعوة المقاطعة للبضــائع والمحــلات الأمريكيــة لأن الكُتاب والسياسيين ومخبري وعسس الصحافة العربية أنفسهم أعضاء فروع محلات أمريكية في الوطن العربي، محــلات السي آي إيه للدجاج وسلسلة مطاعم البيت الأبيض للهــوت دوج! هؤلاء الذين يتباكون على العمالة المصرية والعربيــة التي تعمل في فروع هذه الشركات لم نشهد دمعة حبر واحدة من أقلامهم على آلاف العمال المفصولين والمطرودين مــن

مصانع وشركات القطاع العام المتباع في أكبر عملية نهب ونصب شهدتها بلادنا!!

المهم ألم تلاحظ معي أن المظاهرات في الأسابيع الأخيرة وهي تخرج في العواصم العربية أصبحت تحت رعاية وطبقًا لتوجيهات الحكام أنفسهم، لأ وإيه زرعت مباحث كل قطر عربي شقيق غريق (..) طلابًا وأشخاصًا يرفعون صور زعيم الدولة بطل السلام وكمال الأجسام أو مليكها المفدي بطل الحلال والحرام وسط المظاهرات مع الهتاف له رأسًا برأس مع فلسطين والمسجد الأقصى بل وكذلك خروج قادة الجامعات وعمداء الكليات مع الطلبة لنصرة القضية الفلسطينية مع محاضرات على الهواء عن عظمة حاكم الدولة (كل باسمه!) ودوره الرائد والعميد في القضية الفلسطينية!! فضلاً عن عشرات المقالات والبرامج والخطب عن دور الحكام وزوجاتهم وعيالهم في نصرة الشعب الفلسطيني مع عد حبات الرز التي أرسلها الحكام للفلسطينيين وعدد حبات القمح وكم كيلو لحمة وكذا مليون قطنة وقول بتاع مليون خيارة استراتيجية!!

لقد أدرك الحكام أن العروش تهتز تحـت أقـدامهم وأن قضية فلسطين التي أسكتوا بهـا شـعوبهم عـن المطالبـة بالديمقراطية والحرية وتداول السلطة انقلبت علـيهم وعلـى عروشهم وشكلها ح يقلب جد، وصورتهم صارت مهـزوزة ومتهزأة بضعفهم وذلهم وتبعيتهم أمام أمريكـا وإسـرائيل، والذي زاد وغطى أن أمريكا نفسها شخطت فيهم وقالت لهـم بالصوت الحياني والبجاحة النسواني التي تتميز بها كوندليزا رايس الخنفساء الأنيقة على رأي صـديقي جمـال فهمـي، قالت لهم كده بالمفتشر وباستخدام عصا الغلية" يعني سـكتنا على قمعكم لشعوبكم ووراثة عروشكم وفسادكم عشان خاطر تفوتوا موضوع فلسطين وتسكتوا شعوبكم عنها وفي الآخـر يا حاكم منك له لله؛ شعوبكم تكرهنا وتكره إسرائيل وبتقتـل روحها عشان فلسطين أمال انتـوا قاعـدين بتعملـوا إيـه، والله العظيم تلاتة وتربي أمي (دي كوندليزا اللـي بتحلـف) لو ما تلمش موضوع فلسطين ده والانتفاضة لنشوف شـغلنا معاكم واحد وراء التاني وأولكم عرفات ألزهايمر ده!!

الرسالة وصلت للحكام، من هنا تتابع حضرتك الاهتمـام المحموم بلم الحكاية، أولاً خلاص بقت العمليات الاستشهادية

عند الحكام العرب انتحارية من الأسبوع اللي فات، والمقاومة بقت عنفًا، والصهاينة بقوا مدنيين، والدم بقى ميه (ماء) والبترول أصبح عرقسوس والنفط ليس سلاحًا بلغ غصن زيتون أو عود جرجير، والمقاطعة بقت شغل عيال والمظاهرات تحمل صور الحكام، وحماس بقت إرهابية!! شرم الشيخ أصبحت عاصمة الخيار في الأرض (الخيار الاستراتيجي طبعًا!) وبدأت طاحونة التسوية وهيا بنا على مؤتمر السلام واجروا يا غنم قصاد الراعي الأمريكي!!

ما يحدث الآن من الآخر وبوضوح فاجر هو الاستسلام الكامل للشروط والتعليمات والأوامر الإسرائيلية عبر أمريكا وإنهاء الانتفاضة مقابل قطعة أرض نحصل عليها بعد كام سنة ونسميها فلسطين، والحقيقة أن الحكام العرب لا يهتمون حتى بأن نحصل عليها المهم أن تهدأ الأوضاع وينطفئ الحريق وربنا يعمل اللي فيه الخير، فقط يظل عرش الحكام ثابتًا، أولاً من ناحية الشعوب، فتهدأ وتتلم واللي فاكر نفسه راجل بكره نلبسه طرحة نسوان! ومن ناحية أمريكا، فتخف وترضى علينا الست كوندليزا وأبونا رامسفيلد شيخ الخفر ومفيش داعي للنقرزة كل شوية فساد، ديكتاتورية، تزوير

انتخابات، تداول سلطة، حقوق إنسان وقلة القيمة مع الأخ جروج تنيت مدير المخابرات الأمريكية ومستشار الأمن القومي الفلسطيني! خلاص خدوا راحة بال إسرائيل واتركونا أحرار مع شعوبنا ياكش نولع فيهم بجاز، مالكوش دعوة!!

وعندما تكتشف أن هذا هو ما يحدث بنجاح ساحق على الساحة العربية تضحك من سخرية الزمن حيث سيفشل كل التنازل والذل العربي الرسمي تحت يد إرهاب شارون ونازيته وخلفه نتنياهو بتطرفه ونرجسيته وشعبيته ومعهم جورج بوش بجهله وغبائه الذي يسمح له بأن يكون حاكمًا عربيًا عن جدارة.. وأهلاً به في أي وقت.. بيته ومطرحه!!

اعرف عدوك..

هل تذكرون النكتة الشهيرة التي من كثرة ما قيلت باخت، تحكي النكتة عن مواطنين واحد أمريكي والثـــاني ســوفيتي (أيام ما كان فيه اتحاد سوفيتي)، قال الأمريكي الرخم: عندنا في أمريكا حرية وديمقراطية نقدر قصاد البيت الأبيض ذات نفسه نقف ونصرخ ونقول يسقط الرئيس الأمريكي ولا يقبض علينا أحد ولا يحقق معنا أمـــن ولا نـــذهب وراء الشـــمس، رد عليه المواطن السوفيتي الرذل قائلاً: وإحنا كمان عنـــدنا ديمقراطية وحرية في بلدنا، وممكن جدًا تقف قصاد الكرملين وتصرخ وتقول يسقط الرئيس الأمريكي ولا يقبض علينا أحد ولا يحقق معنا أمن ولا نذهب وراء الشمس.. بايخة وقديمـــة أنا أعرف تمامًا مثل مرة واحدة راح يقعد على قهـــوة قعـــد على شاي (فيه أبوخ من كده).. لكن ما يدفع بهذه النكتة إلى ذاكرتي هي تلك الأخبار والمتابعات الهمامة التـــي نشـــرها الصحف العربية لمظاهرة ضمت عشـــرة آلاف إســـرائيلي جرت في تل أبيب ونددت بسياسة شارون واحتلال إسرائيل للضفة والقطاع والممارسات الوحشية البشـــعة التـــي تمـــار إسرائيل ضد الشعب الفلسطيني وامتدت المظـــاهرات وهنـــا الأهم إلى سب ولعن سنسفيل شارون ثم تدعيم موقف الضباط

والعساكر الإسرائليين الذين عصوا أوامر الجـيش ومـردوا على قادتهم العسكريين ورفضوا الخدمة العسكرية في مناطق فلسطين المحتلة (من وجهة نظري قطعًا فلسطين كلها محتلة وليست مناطق فيهـا فقـط) وذلـك اعتراضًـا واحتجاجًـا على الاحتلال وعلى ممارسات إسرائيل هنـاك، والسـؤال هو ما مغزى ذلك؟ والإجابة الواضحة (أو التي أظنها كذلك) أن إسرائيل بلد ديمقراطي وحر!! بدليل أن مظـاهرة ضـد حكومتها ورئيسها بكل هـذا العنـف فـي الهجـوم عليـه بل والتمرد على جيش إسرائيل قد جرت وتمت ولم يمنعهـا كائن من كان، ولم يمس أحد طـرف أي شـخص شـارك في المظاهرة على أي نحو.. ولهذا السبب تحديدًا (لا غيره) انتصرت وتنتصر وستنتصر إسرائيل علينا!! فأنـا أتحـدى إذا كانت هناك دولة عربية واحدة تسـمح بقيـام مظـاهرة من عشرة آلاف مواطن ليس لا سمح الله ضد حكومة هـذا النظام العربي بل ضد إسرائيل وممارستها.. نعـم وارجـع إلى النكتة كي تعرف أننا لم نعد على مستوى النكت ومـش محصلين نبقى نكتة!! فلا يوجد نظام عربـي مـن اليمـين للشمال يسمح بخروج مظاهرة من شعبه ومواطنيـه للتنديـد

حتى بإسرائيل!! ديمقراطية إسرائيل تسمح لها بخروج آلاف في مظاهرة ليس ضد حكومتها بل وضد جيشها (لم نسمع هناك اتهامات بالعمالة والخيانة ومثل هذا الكلام العربي!) بينما الديمقراطية العربية لا تسمح بخروج مظاهرة من آلاف المواطنين العرب للتنديد بإسرائيل (فضلاً عن أن الأنظمة العربية حالفة بالطلاق وتلاتة ما تخرج مظاهرة ضد الحكم والحكومات فيها).. فيها أسوأ من هذا أوضح من ذلك دليل أننا نستحق الضرب بالجزم من العدو الإسرائيلي وسيده الأمريكي!!

حقًا إن إسرائيل تملك سلاحًا أقوى وأعظم مما يملكه العرب جميعًا، ليس هو المفاعل النووي والقنابل الذرية ولا هو أحدث أنواع الطائرات والمدافع وأبرع تكنولوجيا الكمبيوتر وأنظمة المعلومات والانترنت، لا ليس هذا كله رغم أنه موجود ومتفوق بل إنه سلاح الديمقراطية وهو معدوم وفاني ومنسوف نسفاً في وطننا، إسرائيل تنتصر علينا بالديمقراطية، ورغم أن بعض السذج يروجون بقصد (وهذا نفاق) أو من غير قصد (وهذا جهل) للمقولات التي تحبها حكوماتنا العربية من قبيل أن إسرائيل ليست ديمقراطية

بدليل أنها عنصرية ومحتلة وغاضبة وغاشمة ضد العــرب داخل كيانها الصهيوني أو مع المواطن الفلســطيني المحتــل فأين هي هذه الديمقراطية في تلك المعاملة والممارسة البشعة التي تقوم بها إسرائيل كل يوم مع الشعب الفلسطيني وكيــف تتسق الديمقراطية مع احتلال الأرض!! وهذا كــلام يصــفق له حكامنا ومستعدون ليدفعوا فيه فلوس!! لكنه كلام كــاذب في أصل وشه وجب أن نعرف عدونا وأهم أسلحته كي نجيد عداوته ونعمق كراهيته ونواجــه عدوانــه ونقهــر تفوقــه، إسرائيل يا جماعة ديمقراطية تمامًــا بينهــا وبــين شــعبها ومواطنيها لا علاقة لذلك بمدى طغيانها وعنصــريته ضــد العرب، الديمقراطية هي المنهج وأسلوب التعامل الذي يحكم علاقة الدولة بمواطنيها أما العلم الخاص بعلاقة هذه الدولــة بغيرها من الشعوب أو الدول فهو علم اسمه علاقات دوليــة، اسمه سياسة خارجية؛ والديمقراطية ليســت مهمــة وزيــر الخارجية في الحقيقة!! من هنا فإسرائيل ديمقراطية بمعنــى أن شعبها يملك الحق في انتخاب حر نزيه وشريف لحكامه، بمعنى أن أي مواطن هناك يملك الحق والحرية في تكــوين حزب (الأحزاب هناك أكثر من الهم على القلب ومعنــدهمش

لجنة أحزاب خالص ألبته) والانتخابات هناك غير مزورة ولا مطعون في صحتها، والأمن يقف يتفرج علـى التجمعـات الانتخابية. والمؤتمرات السياسية ولا يوجد بـوكس بـيلم سرادق المرشح المعارض وأساسًا فيه مرشـح معـارض!! وفي إسرائيل تداول للسلطة فلان يـروح وعـلان بييجـي وعواجيز على شباب على ستات على عمال وفلاحين، سلطة ليست حكرًا على أحد ولا يملكها أحد بصندوق مبايعة أو ابن سلطان أو سمو الأمير، كما يوجد كذلك حرية رأي وتعبيـر من أول حق إنشاء الصحف والمحطات التليفزيونية إلى حق التظاهر وبالآلاف وبـلا خـوف ضـد الحـاكم والـرئيس والحكومة.. فهل عرفت لماذا تهزمنا إسـرائيل؟.. الغريـب والمذهل أن الحكومات العربية تردد من خمسين سنة (أهـو من خمسين سنة كي لا يزعل أحد!) أننا لابد أن نكـون يـدًا واحدة وننسى خلافاتنا من أجل أن نهزم إسـرائيل ونواجـه العدو المشترك على أرض صلبة.. المذهل إنهـم يروجـون لعطيل الحرية والديمقراطية بل وإلقاء الآلاف في السـجون العربية من أجل ألا يعطلنا المتآمرون والمعارضـون عـن مواجهة العدو، وينادون ويتنادون بأن نقـف جميعًـا (مثـل

طابور التلاميذ) صفًا واحدًا وراء (دائمًا وراء مفيش مرة بجانبه أو قدامه على طول وراء..) القائد من أجل وحدة الزفت الصف!! لا ديمقراطية ولا حرية ولا تداول سلطة ولا انتخابات نزيهة وكله من أجل فلسطين والنصر على العدو.. وطبعًا كلكم واخدين بالكم أن العدو رغم ذلك كله (أو بسبب ذلك كله) هو الذي انتصر علينا وهزمنا.. وأظنكم تابعتم الأخبار في الخمس والثلاثين سنة الأخيرة أن فلسطين ضاعت..!! العجيب في الأمر أن العدو الإسرائيلي الذي انتصر علينا (لا أريد أن أسمع نباحًا أو هو هوة من أحد أن إسرائيل لم تنتصر) هي التي شهدت ديمقراطية وحرية في التعبير والتغيير وتداول في السلطة وطعنًا ونقدًا وهجومًا على الساسة والحكام فيها وأحزاب مقطعة بعض ومظاهرات ضد الحكام وسحب ثقة في الكنيست كل يوم والتاني وناس معترضة على الجيش ورجال دين بيتكلموا في السياسة ومتطرفين ولاد كلب بيكتسحوا الانتخابات وممثلون بيقلدوا قادة الدولة في التليفزيون ويتريقوا عليهم ومحاكمات لرؤساء وزارة بتهم العبث بالمال العام وتطليع دين وعين رئيس وزراء لأنه جدد مكتبه على حساب الدولة أو شحن الهدايا

على البيت.. ورغم كل هذه الديمقراطية بل وبسبب كل تلـــك الديمقراطية فقد انتصرت إسرائيل علينا ليس فقط عســـكريًا وإنما على كـــل الأصـــعدة.. فـــي التكنولوجيـــا والتصـــنيع والتصدير والزراعة ودخل المواطن السنوي.. ومـــع ذلـــك كل هذا ليس مشكلة فالفقر ليس عيبًا والغنى غنى النفس لكن أين هذه النفس أساسًا؟

أمريكا تفضل الأسرع.. والأرخص!

بطبيعة الحال لا يوجد عربي عاقل أو محترم يمكن أن يتعاطف أو يوافق الإدارة الأمريكية الصهيونية والمتغطرسة عما تفعل وتقرر فيما يخص العراق (وفلسطين بالقطع) لكن أليس من باب أولى أن نسأل أنفسنا ولماذا تطمع فينا أمريكيا وتريد أن تفعل وستفعل ما تريد، فكر معي قليلاً لو أن العراق على سبيل المثال بلد حر ديمقراطي ينتخب رئيسه دورتين متتاليتين أو يرحل بعد دورة واحدة ويمضي إلى عمل سياسي أو تطوعي بعيدًا عن سدنة الحكم وتوريث البلد لولده أو لولديه!! ماذا لو كان العراق يتمتع بانتخابات حرة وتداول سلطة وقيادات شرعية ومجالس نيابية غير مزورة وغير مزيفة، أكان من الممكن أن يقوم بما قام به صدام منفردًا وكان من الممكن أن تغزوه أمريكا أو تجيش الجيوش من أجله، من المؤكد لا النافية للجنس والناهية عن الأمر لم يكن لتحاربه أمريكا، وربما نعم احتمال، ربما وصل الوضع لما هو عليه الآن أمريكيا من استقصاد واستهداف العراق، لكن ساعتها سيكون اختيار الشعب العراقي حرًا ويتحمل البلد قراره واختياره!!

لكن الحاصل أن العنف الأمريكي تجـاه العـراق وضـد كل الدول العربية بلا استثناء تسوق له وتروج أسـبابه فـي العالم كله بأن طغيان حكومات هذه الدول واستبدادها بشعوبها وتبديدها لثروتها وراء الرغبة الأمريكية في الضغط والتغيير وربما الغزو لبعض هذه البلدان.

ويمكن لنا أن نسب أمريكا وإدارتها الحالية للصبح ونغني قصاد بعض عن جهل بوش وغبائه (بينما طبعًا نشيد بعبقرية وحكمة وإلهام حكامنا العرب؟؟) لكن ألـيس ممكنًـا وسـط تجمعات الشتيمة وخطب الهجاء إياها أن نلتفت قليلاً لنـدرك أن ما تقوله أمريكا عن طغيان حكومات البلاد العربية حـق وأيضًا عن فساد السلطات العربية حق وأننا يجب أن نختشي على دمنا ونعرف أننا سبب بلوة الأمة ونكبة الأوطان، هؤلاء المصابون بالشيخوخة والذين أكلتهم العتة السياسـية (فـين النفتالين؟) والذين ركبوا على ظهورنا (انتبه أقول ركبـوا!) بتزويرهم للانتخابات وتزييف إرادة الشعب ونفـاق وعبـادة الحاكم والتصـفيق والموافقـة المعتوهـة فـي البرلمانـات لكل القوانين المكبلة للحرية والمقيدة للديمقراطيـة،، هـؤلاء الذين يبايعون ويتملقون ويمجدون ويزحفون أمام كل حـاكم

وسلطان وسلطة هم الذين أصابوا الوطن بالضعف أمام الأعداء وجعلوا إسرائيل تستخف بنا وتستهتر أمريكا بنا شعوبًا وحكومات، هذا الحزب وأمثاله الذين جعلوا إسرائيل تبدو أمام العالم كله واحة الديمقراطية في الشرق الأوسط من تداول سلطة وحرية تكوين أحزاب وسحب ثقة من حكومات وإسقاط رؤساء، بينما نبدو نحن نحيا كالقطعان على أكوام المبايعات وبرقيات التأييد وانتخابات التزوير وأزهى العصور وهامش الديمقراطية وهاموش الحرية الذي نعيشه!

وهنا يقفز السؤال الذي أردده دائمًا، لماذا لا تطالب أمريكا الدولة العربية المعتدلة بإصلاحات سياسية وهي التي تتهم تلك الحكومات من أول صدام لغاية زين العابدين أن الشعوب العربية صارت تكره أمريكا تمامًا لأنها مقهورة من حكامها العرب الموالين لأمريكا؟ والإجابة هنا وهي التي أكررها كثيرًا حتى أخشى أن أمشي في الشوارع كالمهاويس أرددها وأنا أجر علم أمريكا زاحفًا في ذيلي!! إن الولايات المتحدة الأمريكية لا يهمها إطلاقًا حبنا لها أو كراهيتنا، هي تريد مصالحها في المنطقة البترول وإسرائيل أو العكس وهي تعلم أن الحكومات الديمقراطية الحقيقية في هذه الأوطان لن تحقق

لأمريكا مصالحها بهذا الشكل الكامل والمتفاني والمذلول والمتذلل، من هنا فهي لا تريد إصلاح هذه الحكومات بقدر ما تريد استمرارها وبقاؤها وخلودها على مقاعد الحكم وكلما انغمسوا في طغيان أكثر وديكتاتورية أكبر وفساد أعمق كلما نفذوا تعليمات وأوامر السادة الأمريكان أفضل وأسرع وأرخص..!

يبقى أن نلتفت نحن إلى طول المهزلة وعرض المسخرة التي نحياها فحكوماتنا العربية التي تسمع شعوبها ليل نهار تغني بكراهية أمريكا (وتشجعها) هي التي تخرج تؤيد خطوات أمريكا وتسبح بحمدها وتردد حججها وتحني لها رأسها، إنها حكومات مثلنا تمامًا (نحن شعوبها) جبناء للغاية وحمقى أكثر من اللازم لا نعرف أن من يريد إيقاف العرائس عن الرقص يجب أن يقطع خيطها المربوط في يد لاعب العرائس!

العبارة في السفارة

الذي يتابع تحركات وتصرفات ونشاطات السفير الأمريكي في القاهرة يشعر أنه أمام رجل مخلص في عمله لكن عمله نفسه يخونه فهو أشبه بمندوب مبيعات دؤوب ولحوح يبيع توابيت موتى وينسى في غمرة حماسه ونشاطه أنه يعدد للزبون مميزات وحسنات تابوت ومقبرة ومدفن موت! تشعر أنه يمسك بسياسي أو صحفي لإقناعه بالسياسة الأمريكية كمن يقول له شايف الخشب؛ واخد بالك إنه خشب زان مستورد؛ طيب شايف ليونة اتساعه ورحابة انسيابه وينسى أنه يتحدث عن تابوت أو نعش، يقول: تحسس بنفسك نعومة القماش وينسى أنه يتغزل في الكفن..!

الخبر السار أن ديفيد وولش السفير الأمريكي في القاهرة ليس يهوديًا (بعد أكثر من سفير يهودي احتلوا مقعده) لكن الخبر السيئ أنه أمريكي الجنسية والعقيدة؛ إنه مندوب مبيعات السياسة الأمريكية في مصر وهو مطالب أن يبيع للمصريين سياسة الانحياز الأمريكي الأعمى والعميق لإسرائيل ويبيع لنا عشرات القرارات الأمريكية بالفيتو لصالح إسرائيل والتحالف معها في سياسة القتل والاغتيال والاحتلال لفلسطين؛ المفروض أن يبيع لنا الكيل بمكيالين

وقتل مليون طفل في العراق ووضـع حـزب الله وحمـاس في لائحة المنظمات الإرهابية؛ والمفـروض أننـا نشـتري منه هذه البضاعة وهو يزعل ويأخذ على خـاطره لـو لـم نشرتيها! ولأن السفير ليس عبيطًا فمن المؤكد أنـه يتخيلنـا نحن مجموعة من العبط كي نصـدق التسـويق والتـرويج لبضاعة سياسة الموت التي يحـاول أن يقنعنـا بهـا منـذ الاكتشاف الأمريكي المذهل أن الشعب المصري يكره ويلعن في السياسة الأمريكية بل ويشمت فيها ويتمنى هزيمتها؛ فجأة اكتشف الأمريكان أن بضعة رؤساء تحريـر وعـددًا مـن الباحثين وكم دكتور جامعة ممن يحتسون الكوكا في منزل أو مكتب السفير الأمريكي ليسو المجتمع المصـري؛ فسـارع السفير وسفارته في اللف والمرواح والذهاب وتحديد المواعيد وعقد الجلسات وشرب القهوة والحديث في التليفونـات كـي يتمكن من تغيير الرأي العام المصري وإقناعـه أن أمريكـا طيبة وبنت حلال وبتغسل أسنانها قبل أن تنام وتصلي الفجر حاضر!

تخوض السفارات الأمريكية في البلاد العربية امتحانـات شفوية وتحريرية منذ انطلاق حمم الحرب علـى أفغانسـتان

والتعليمات القادمة من واشنطن تتركز على محاولة كسب تأييد القوى السياسية والصحفية والإعلامية في تلك الدول لصالح الأهداف الأمريكية؛ الحد الأقصى هو تجنيد كل من يمكن تجنيده من الكُتاب والسياسيين في المجهود الحربي الأمريكي بالدعاية والإعلان والتأييد والترويج والحد الأدنى هو إيقاف حملات الهجوم على السياسة الأمريكية بأي ثمن ولو باستعداء الحكومات والمسئولين الرسميين على صحف وصحفيين أو إغراء واستمالة المعارضين والمناهضين!

للوهلة الأولى تشعر وأنت تسمع وتقرأ ما يردده الأمريكان لكسب تعاطف وتأييد الشعوب العربية أننا داخل أحداث فيلم سينمائي أمريكي من أفلام المحاكمات العظيمة حيث المحامي لا يملك أي دليل يدافع به عن موكله فيلجأ إلى رشوة بعض المحلفين وتهديد البعض الآخر وربما يبتز القاضي نفسه بفيلم بورنو صوره له مع عاهرة في موتيل! يتخيل السفير ولش ومن معه أن بذل الجهد فقط في توضيح الموقف الأمريكي كفيل بتعاطف وتأييد العرب ويسعدني أن أنصحه بتوفير صحته وجهده فالنجاح ليس من قسمته ونصيبه فليست اللغة هي العائق بيننا حتى يتكلم هو بالعربية

(معظم السياسيين الأمريكان الذي تعلموا العربيــة تعلموهــا في المخابرات الأمريكية أو لأســباب مخابراتيــة!) ولــيس الحائل دون تعاطف العرب هو غياب الصــوت الأمريكــي العاقل والفاهم للثقافة العربية ومن ثم نجد الساسة الأمريكــان الآن يحدثوننا عن رمضان والأشهر الحرم وسماحة الإسلام ولا أجدع وعاظ وشيوخ! وهو أمــر كالنصــب أو للنصــب أقرب!

فقدان الكفاءة الأمريكية في التعامل معنــا هــي النتيجــة الطبيعية لفقدان الضمير في التعامل مع قضايانا؛ إن السفارة الأمريكية تقدم نشرة دعائية شديدة السذاجة تحــت عنــوان أساطير وحقائق، طبعًا الأساطير هي أي تهمة أو نقد لأمريكا والحقائق هي أي كلمة ولو فارغة تقولها أمريكــا! والنشــرة تبان من عنوانها فأمريكا لا تخطئ وأي اتهام لهــا خيــالي وأسطوري، وأمريكا تملك الحق كاملاً ومكملاً؛ مــن أولهــا ألا تشعر بغطرسة أمريكية من اللحظة الأولــى فــي تلــك البيانات التي يتصور الأمريكاني أنها طيارة بي ٥٢ ترمــي حججًا وأدلة زنة ١٥ ألف رطل! الملاحظة الثانية أن البيانات التي تفند ما يقوله بن لادن على كل شيء إلا قضية فلسطين

والتحالف الأمريكي الإسرائيلي وقرارات الفيتو الأمريكية ضد أي قرار دولي يعارض إسرائيل والدعم الأمريكي والنازي لسياسة الاحتلال والاغتصاب الإسرائيلية والخسة التي يتعامل بها أفراد الإدارات الأمريكية مع الضحايا والشهداء الفلسطينيين بنيران إسرائيل؛ هذا التجاهل الأمريكي للرد على اتهامات بن لادن (وربما مليار مسلم كذلك!) يدل دلالة واضحة على نطاعة سياسة ولا شك!

وإذا انتقلنا لأساطير أمريكا وحقائقها نجد مثلاً في بيان السفارة الأمريكية في القاهرة.

الأسطورة: أكدت تصريحات تنظيم القاعدة أن الهجمات الإرهابية الأخيرة على الولايات المتحدة كانت جهدًا من المسلمين لمعاقبة الولايات المتحدة.

الحقيقة: استهدفت الهجمات الإرهابية التي حصلت في الولايات المتحدة في ١١ سبتمبر/ أيلول أناسًا ينتمون إلى كافة الأديان والجنسيات. فقد لاقى مواطنون من حوالي ٨٠ دولة حتفهم، بينهم مئات من المسلمين. كان هؤلاء الضحايا، الذين أصبح يعتقد الآن أن عددهم يتراوح بين خمسة آلاف وستة آلاف، من الأبرياء. إن مركز التجارة العالمي ليس

رمزًا للولايات المتحدة، بل للتجارة الدولية، وللازدهار، ولفرص النجاح لقد سعى الإرهابيون إلى تدمير هذا النموذج الدولي (المثالي للتقدم العالمي) والتعليق على ذلك من عندنا أنه إذا لم يكن هجوم بن لادن على المركز التجاري معاقبة لأمريكا فلماذا يا ترى هاجم أمريكا؛ هل لأنها رمز الحضارة الغربية ولكن لماذا لم يذهب ليهاجم هولندا مثلاً وهي رمز للحضارة الغربية التي يكرهها بن لادن قطعًا، هناك حيث المخدرات المباحة والزواج الرسمي بين الشواذ وغيره؟! ثم إن مركز التجارة من وجهة نظر كثيرين ممن تظاهروا ضد العولمة في سياتل وجنوة وغيرهما رمز للسيطرة الرأسمالية على العالم؛ ثم إن المركز التجاري قد يكون رمزًا لأي شيء تدعونه إلا أن يكون رمزًا للنموذج المثالي للتقدم فهو رمز للاستغلال وامتصاص شعوب العالم الفقير؛ ثم لو فرضنا أن كل ما قالته حقائق السفارة الميمونة حقيقي فعلاً فما هو مبرر تجاهل حقيقة أن بن لادن هاجم البنتاجون، ويا ترى البنتاجون يمثل هو أيضًا الحضارة الغربية أم يمثل السياسة الأمريكية الاستعمارية والعنصرية والقوة المتغطرسة المسيطرة على العالم، ولماذا يركز الأمريكان طيلة الوقت

على ضرب مركز التجارة العالمي ويتناسون ضرب البنتاجون؛ الأمر لا يحتاج إلى د. فرويد لندرك أن الغطرسة والمصلحة الأمريكية سوف يلحق بها الضرر لو ظهر ضرب البنتاجون في الصورة؛ ثم نعود لبيان أساطير السفارة الأمريكية والسادة الذين بذلوا جهودًا جبارة لترجمة هذا الغثاء إلى اللغة العربية يقول البيان (الأسطورة): إن الحملة ضد طالبان والإرهابيين في أفغانستان هي هجوم على الشعب الأفغاني.

الحقيقة: لا تمثل حركة طالبان الشعب الأفغاني. وفي الوقت الذي يواجه فيه الشعب الأفغاني المجاعة والتهجير هربًا من الجفاف، ومن تقاتل طالبان مع فئات أخرى في أفغانستان، تفتح حركة طالبان بلادها أمام الآلاف من الإرهابيين غير الأفغانيين. لا يتشارك هؤلاء الأغراب في الأحوال المعيشية الصعبة التي يواجهها الأفغانيون العاديون، وقد قاموا باستغلال موارد الشعب الأفغاني وقواه البشرية لتحقيق مصالحهم الخاصة التي لا ترتبط بأي شكل من الأشكال بمصالح الشعب الأفغاني (انتهت هذه الفقرة ولنحاول نحن استكمال بعض الثغرات الأمريكية)؛ أولاً إن

طالبان لا تمثل الشعب الأفغاني فهذا أمر يرجع للشعب الأفغاني ونحسب أن السيد بوش ليست لديه أصول بشتونية ليحكم بنفسه ومع ذلك ماشي؛ لكن دعونا نذكركم أن طالبان هي التي أوقفت الحرب الأهلية الطاحنة في أفغانستان وأعادت الأمن والأمان لها ورغم ظلامية وغباء أفكار طالبان إلا أن كل شعب حر في التصرف في حكامه والتمرد عليهم وتغييرهم فضلاً على أن قوات التحالف التي يعتمد عليها الأمريكان ويقدمون لها الدعم المجنون والمهول هم أيضًا أذاقوا الشعب الأفغاني الويلات والحروب وارتكبوا المذابح الشنيعة في حق شعبهم ومنهم من تعتبره منظمات حقوق الإنسان مجرمي حرب مثل العميل دوستم الذي يجلس على الحجر الأمريكي الآن، إذن الموضوع ليس الشعب الأفغاني وطالبان التي عملت فيه وسوت لأنكم حلفاء قتلة وسفاحون تبدو طالبان بجانبهم المهاتما غاندي!. أما الأغراب الذين استغلوا موارد الشعب الأفغاني فهو كلام فارغ حيث إننا وأنتم ندرك أن ظهور طالبان هو الذي أوقف زراعة وتجارة الأفيون والمخدرات كما أن طالبان والأفغان العرب لا يعيشون في القصور واليخوت بل هم في الكهوف والخيام

في أسوأ حياة؛ أما النكتة فهي موارد الشعب الأفغاني ونحن نسأل ما هي هذه الموارد والكل يعلم أنه أفقر شعوب الأرض! ثم أليس أغراب أفغانستان هم حلفاء الأمس في المعارك ضد الحكومة الأفغانية المعترف بها دوليًا والتي استقدمت جنودًا سوفييت طبقًا لاتفاقية تحالف ودفاع مشترك! ألم يكن هؤلاء الأغراب هم رعايا المخابرات الأمريكية والعربية المعتدلة! عمومًا ننتقل إلى مثال آخر في حقائق وأساطير الأمريكان المعتمدة من سفارتهم في القاهرة لنقرأ أيضًا.

الأسطورة: إن العمل الذي تقود الولايات المتحدة ضد أفغانستان يشكل نموذجًا لدولة كبيرة تهاجم دون حق دولة صغيرة.

الحقيقة: إن الشعب الأفغاني ليس المستهدف من الحملة الدولية، إذ أن أهداف الحملة هم الإرهابيون الذين ارتكبوا مجازر في الولايات المتحدة، وأفريقيا، وعملاؤهم في نظام طالبان. تستمر الولايات المتحدة في الالتزام بتحسين أحوال الشعب الأفغاني وقد تعهدت بمساعدة هذا الشعب على إعادة بناء بلاده بعد سنين طويلة من ظلم حركة طالبان). وهذه

أطرف أساطير السفارة وهو أن الشعب الأفغاني لـــيس هـــو المستهدف ومع ذلك نقتله! ومع ذلك نهدم بيوته ونرمل نساءه ونيتم أطفاله ونحفر أرضه ونرميهم بالسلاح المشع والقنابـــل الذرية الصغيرة ونجرب فيهم كـــل فنـــون القتـــل وســـقوط الضحايا لا يمكن تجنبه في الحروب ومثل هذا الكلام الـــذي يسمح لبن لادن أن يقول إنه لا يستهدف الشعب الأمريكي بل الملا عمر – بوش أمريكـــا – وأن ســـقوط الضـــحايا فـــي نيويورك لا يمكن تجنبه وأن ضرب البنتاجون كـــان هـــدفًا عسكريًا لقاعدة عسكرية! ومن الجميل أن تحسن أمريكا مـــن أحوال الشعب الأفغاني كما تقول في فيلمها الكوميدي (بطولة جيم كاري!) الذي توزعه سفارتها في القاهرة، فالحاصل أنه سوف تساعد الأفغان على الموت ودخول الجنة وهل أحســـن من كده أحوال!

والسؤال الآن بعد كل هذه الحقائق والأساطير في السفارة هو: أين فلسطين، نحب أن نسمع لحنًا مـــن ألحـــان البلـــوز الأمريكية عن دور واشنطن في ذبح الفلسطينين؛ ثم ســـؤال أخير: متى كانت آخر مرة عرض فيها المسئولون الأمريكان أنفسهم على طبيب أمراض نفسية وعصبية؟